رواية

نداء أخير للركاب

أحمد القرملاوي

مكتبة الدار العربية للكتاب

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

رواية

نداء أخير للركاب

أحمد القرملاوي

مكتبة الدار العربية للكتاب

القرملاوي، أحمد.
نداء أخير للركاب: رواية / أحمد القرملاوي
.- ط1.- القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2018.
224 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 - 757 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 17683 /2018

©
مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2018م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

1

كنتُ قد نسيتُ أن لي أبًا حيًّا، لا زال يتنفس فوق بُقعةٍ من عالمنا مُكوَّر الشكل، حتى ذكَّرني موتُه.

مات أبي، تاركًا لي شعورَين مُبهمَين يتناوبان الطَّرْق على جدران قلبي؛ ارتياح، وقلق.. ارتحتُ لكوني قد تخلَّصتُ أخيرًا من ذلك الرابط المُتوهَّم، الذي يساورني ويُقلق راحتي، حتى لَيجعل شعورًا غامضًا بالذنب يتسلَّل إليّ.. لكنني من جهة أخرى أُصِبتُ بقلق مُزمن، مَبعثه أني لم أبذل جهدًا كافيًا للتعرف إلى الرجل، حتى إن ذاكرتي لا تحتفظ ولو بصورة مشوَّشة لقسماته.

كان نهارًا باهتًا، باعثًا على التأسّي، حين تلقَّيتُ الخبر. المدينة يُظلِّلها سقف من غيوم دخانية، كما لو كان حريقًا قد شبَّ في العالم. جاءتني رسالة الواتساب المُعتادة من أمي تستدعيني للقائنا اليومي، حيث تملأ شيئًا من فراغ وقتها باستجوابٍ يتكرَّر كل يوم. نجترُّ الكلمات القليلة المُتاحة والكليشيهات المحفوظة بأبطأ ما نستطيع.. كيف حال الجو لديكم؟ مُتقلِّب كالعادة يا ماما.. طمئنّي على ساندي.. تمامًا كما كانت بالأمس؛ شاطحة، ووقحة.. ألم أقل لكَ إن تربية البنات أكثر صعوبة،

كنتَ ملاكًا يا حبيبي.. لا عليكِ يا ماما؛ هكذا حال المراهقات، مرحلة وتعـدّي.. ربمـا.. صمتَت يومهـا لبرهة قبل أن تسترسـل: حبيبي، ثمة خبر قد يُزعجكَ قليلاً.. خير يا ماما؟ بابا، تعيش أنت.

هكـذا علمـتُ بموت أبـي، وبأن وفاتـه خبرٌ قـد يُزعجنـي قليلًا.. صدقَـت أمـي، بـل لعلَّهـا بالغَـت علـى سـبيل المجاملـة، فالطبيعـي ألا تُسـبِّب لـي وفاتُـه أي إزعاج بالمرة، كل ما شـعرتُ بـه كان الرغبة العابرة في استدعاء قسماته، بعد أن طمرَتها عشرون سنة من الذكريات المتراكمة. أغمضتُ عينيّ على الماضي البعيد، فإذا بقسـماته أبعد من سـفينة غارقة، ولم أجد بي رغبةً في بذل المزيد من جهد التذكُّر، لولا أن خطر لذهني الدوسيه القديم.

كنـتُ أحتفـظ بأوراقـي القديمة التـي حملتُها من مصر في دوسـيه كئيـب، كان آخـر عهـدي بـه حيـن دفسـتُه فـي حقيبة سـفر مكسـورة العجلات، أودعتها في القبو السـفلي لهذا البيت حين انتقلتُ إليه قبل سـنوات، وبذلك طويتُ بداخل الحقيبـة فصلَين كاملَين من ماضيَّ لم يبدوَا منسجمَين مع حياتي الآنية بحال؛ طفولتي وشبابي. ربما أكون قد طويتُ شبابي مبكرًا بعض الشيء، فلم أكن وقتها قد جاوزتُ الخامسة والثلاثين، ولكن هذا ما فرضَته عليّ طبيعة حياتي الموسومة بالجديّة، كما زواجي بامرأة تكبرني بست سنوات تقضُّ مضجعها طوال الوقت. اليـوم أقـف علـى حافة الأربعين، أتحاشـى النظـر لما وراءهـا، فليس وراءها إلا المزيد من الشـعر الأبيض ومن آلام الفقرات، ومن الخشية

من مرور الوقت دون إنجاز، كما يُفزعني التطلُّع لوجه زوجتي المكلوم بآخر معاركها السريّة مع البوتوكس، أختلس دون إرادة نظرات مبتورة لوجنتَيها، وأتساءل: أي مصير يتربص بنا خلف السنوات، وأي سلاح سنضطر لحمله لو حاولنا المقاومة؟

انتظرتُ ذهاب زوجتي لعملها صباح اليوم التالي، وسجلتُ تنبيهًا في مفكرة الهاتف كي لا تفوتني مشاهدة تغطيتها لحادث قتل طالب زميلاته بسلاح ناري. ارتديتُ ملابس قديمةً أحتفظ بها لمهام المنزل غير الاعتيادية، وهبطتُ السلم المُفضي إلى القبو من ردهة المعيشة، وشرعتُ أبحث عن الدوسيه. كانت الحقيبة قد حال لونها، كأن الشيب أصابها هي الأخرى، ومن يدها الجلدية تعلَّقَت بطاقة مغلَّفة بغشاء بلاستيكي في لون الضباب، تراءت من تحته كلمات عربية مبهمة. وضعتْ نظارة القراءة وطالعتُ البطاقة من مسافة أقرب؛ كان اسمي وعنوان بيتنا في حي هليوبولس، وبأرقام إنجليزية رقمَيْ هاتف منزلنا ومحمول أمي، وعلى ظهر البطاقة نفس البيانات بالإنجليزية. خامرني ابتهاج غير مريح، تركتُ البطاقة تعود لسُباتها، وجذبتُ سوستة الحقيبة عدة مرات حتى استجابَت. كان الدوسيه يرقد فوق وسادة من ملابس قديمة وجلابيب صلاة، وخطابات ورقية وكروت مُعايدة؛ سرب من طيور الماضي صاحبني حين هاجرتُ قديمًا، قبل أن يرقد في هذه المقبرة. لملمتُ الكروت والخطابات والصور الفوتوغرافية بداخل الدوسيه، وصعدتُ بها جميعًا للطابق الأعلى.

كانت ساندي قد استيقظَت، وجدتُها تخطر في البيت ذهابًا وجيئة بساقَين عاريتَين وقدمَين حافيتَين، توزّع نظراتها غير المكترثة في كل الأرجاء. "صباح الخير"، قلت، فأهملَتني ولم تُفسِد عليَّ توقّعي. أوصدتْ باب غرفتي وافترشتُ الأرض، مُحيطًا نفسي بقوسٍ مبعثر من الذكريات، من بينها خطابات من ابنة عمٍّ كانت تُضمر نحوي حبًّا غير مُعلَن، مع أنها لم ترَني أبدًا من قبل؛ ياللجنون! تذكّرت كيف سلّمني أبي خطابَها الأول بسعادة غامرة في إحدى زياراته لمصر، وكان قد سكن بجوار عمي في مدينة الكويت، حين عادا إليها معًا مع زوال الغزو العراقي، فيما نعيش أنا وأمي في بيت هليوبولس أثناء غيابه (أي طوال الوقت)، واستمرَّ يحمل إلينا الهدايا مرتين كل عام، من بينها هذا الخطاب الأول.

كانت خطاباتها بالإنجليزية، ولم أكن في مثل إجادتها للغة آنذاك، لذلك تظهر في الخطاب عدة مفردات عربية مكتوبة بقلم رصاص، فوق كلمات لم أكن أفهمها. هكذا كان خطي وقتها! يالها من ذكريات سخيفة ومضحكة. كانت تُبرِّر إرسالها الخطاب بضرورة تعارفنا كأفرادٍ لعائلة واحدة، مهما ابتعدت المسافات، وبأنها عرِفت عني الكثير من خلال أبي، الذي لا يكف عن الحديث عني في كل لقاء. لم أكن أصدّقها بالطبع، فمن أين له أن يعرف عني ما يملأ الأحاديث واللقاءات.. تلَت هذا الخطاب رسائل أخرى كانت تصلني عبر البريد، وكثيرًا ما اشتملَت مظاريفها على صورٍ لابنة عمي، في أوضاع كانت

تقصد بها استمالتي، من بينها عدة صور هي الوحيدة التي أملكها لأبي؛ تلك التي كانت تُلتقط له مع أسرة عمي أثناء غيابه الأبدي.

بدَت فتاةً خمرية ممصوصة، تدّعي جاذبية غير موجودة، فيما يقف بجوارها أبي بأريحيّة وثقة ممتلئة، بقوامه المشيق وعضلاته النافرة، يبارز الكاميرا بابتسامة متحدية. داخَلني غيظ طفولي لكوني لا أحتفظ منه بصورة كهذه، رغم أني لا أملك نحوه أية عاطفة على الإطلاق، وبسبب هذا الشعور المثير للشفقة، قرّرتُ أن أُلملِم الصور والأوراق وأعيدها حيث احتفظتُ بها لسنوات.

وبعد فراغي من نزوة التذكُّر تلك، تحمَّمت وبدَّلتُ ثيابي، وجلستُ على الليزي بوي في غرفة المعيشة ممسِكًا بالريموت كنترول، مُنتظرًا ظهور زوجتي على شاشة القناة الإخبارية، كي ألتقط صورةً لظهورها الاستثنائي، الذي لا يختلف عن سابقيه ولا لاحقيه، وأنشرها على الانستجرام، فتتلقى الاستحسانات والتعليقات المعتادة من أصدقائها ومتابعيها. ضغطتُ زر كتم الصوت مؤقتًا، وداعبتُ شعري المُبتل كما كانت أمي تفعل في الزمن السحيق، ورحتُ أستعيد مُحادثتي معها بالأمس.. كان أهم ما جاء فيها أن عليّ الاتصال بمحامي الوالد، لأستوضح منه إجراءات الحصول على الميراث. تساءلْت: كيف لم أُولِ هذه النقطة أهميتها اللازمة في غمرة الرغبة في استعادة ملامح أبي! لا بد وأنها الصبيانية التي لا تُزايلني أبدًا مهما كبرت.

2

كنتُ أعبث بأوراق جمعَتها أمي في ملفٍّ من الورق المقوّى، قبل خوضي امتحانات الشهادة الإعدادية، حين طالعتُ شهادة ميلادي لأول مرة. تفاجأتُ بكوني من مواليد الكويت، وحملتُ ذهولي وأسئلتي لأُلقيها في حِجر أمي: "هل وُلِدتُ في الكويت؟!".

شردَت قليلًا، كأنها تُلملِم تاريخًا مُبعثرًا، ثم قصّت الحكاية..

كانت قد حملَت بي في مطلع عام 1978، قبل فترة وجيزة من سفر أبي إلى الكويت إثر إلحاح طويل من أخيه، الذي عمِل طبيبًا في المستشفيات الحكومية هناك منذ بداية السبعينيّات. لحِقَت به أمي حين استقر الحَمل، وهناك وضعَتني مع حلول شتاء صحراوي قارس. سألتُها: "لِمَ لا أذكر شيئًا من هذه الفترة؟"، قالت: "كان عندك ست سنوات حين عدنا نهائيًا لمصر، قليلًا ما تحتفظ الذاكرة بشيء قبل هذه السن".

ظلّت مُلابساتُ حياتي في الكويت تمثّل غموضًا ما، غموضًا يُشعرني بقلق غير مفهوم، ما جعلني حريصًا على ألا أُفشي سرّي لأحد، حتى أني كنتُ أغتاظ حين تذكر جدّتي شيئًا من هذا أمام

الجيران. كثيرًا ما كانت تُدنيني منها وتقول أمامهم: "هاني حبيبي.. كم حرمَني أبوه من فرحتي بحفيدي الوحيد"، ثم تصف كيف فاتتها خطواتي الأولى المُتعثّرة، حروفي الأولى المُلخبطة، وأسئلتي الأولى التي لا بد وأنها كانت ذكيةً جدًّا. "الولد ناصح"، كانت تقول. كنتُ أشعر أن جزءًا غامضًا من حياتي لا يُرضي جدّتي، ويبدو غير متَّسق مع الحياة التي أعرفها، وكنتُ أشكو لأمي من حديث جدّتي مع الجارات، فلا تجد سببًا لسخطي، بل تقول: "جدّتك معها حق.. كنتَ صبيًّا حين رأتكَ لأول مرة، وكنتَ صامتًا لا تحدِّث أحدًا، هي من أعادَت إليك القدرة على الكلام".

كانت جدّتي ذات تأثير واضح على المحيطين بها؛ لا أستثني نفسي. ربما تكون هي من زرعَت بداخلي هذا القلق غير المفهوم إزاء الماضي. علمتُ لاحقًا بأنها من حملَت أمي على العودة النهائيّة لمصر، بعدما أصابني داءُ الصمت، وأنها جمعَت شكاوى أمي المتفرّقة مع مصيبتي التي حلَّت أخيرًا في موقف مُتماسك، أملَته عليها في عدة مكالمات دولية شارك فيها أفراد العائلة، حتى رضخ أبي وسمح لأمي بالعودة. في مواقف عديدة كانت جدتي تُشير بإيماءات مُستترة، لكونها أنقذَت أمي من فضيحة مؤلمة كانت ستقع لا محالة، وهي مسكينة ومتغرّبة، وأنها دفعتها دفعًا كي تترك لوالدي الجَمل بما حمل وتعود بي، لتغرسني في تربة البيت قبل فوات الفرصة.

استدعيتُ كل هذا حين هاتفتُ المحامي، الذي أبلغني بالخطة التي أعدّها أبي لإجهاض آمالي. فبينما اختار لي الله أيسر طرق الحصول على الميراث، بأن جعلني ابنه الوحيد، تعمَّد أبي أن يجعله الطريق الأكثر شقاءً من أي طريقٍ قطعتُه، فوزَّع الميراث بين الكويت والنمسا ومصر، ثم رهن حصولي عليه برحلة شقاءٍ رسم خريطتها في ذهنه المُشوَّش بأوهام الاحتضار.. لولا حاجتي الماسّة للمال، ورغبتي في الصفح عن والدٍ شقيتُ بسببه عمرًا بأسره (بعد الحصول على التعويض المناسب) ما كنتُ لأترك موطن هجرتي، وزوجتي التي تبدأ العراك مع شكوكها مع آخر قبلة وداع تنفخها نحوي في مطار أورلاندو الدولي، وابنتي ساندي؛ نكبتي الصغيرة وعقوبتي العاجلة عن كل سبَّة سببتُها في خاطري للوالد البعيد.

أنصتَت تايا لقصتي الغريبة بروحٍ مُتشكِّكة، فندمتُ أيّما ندم لكوني أفضيتُ إليها بجميع تفاصيلها عند هذه النقطة المبكرة. كان الأفضل أن أقول لها: والدي يرقد في فراش الموت، أريد أن أراه قبل أن يُفارق العالم؛ أو: توفّي والدي وعليّ الذهاب لاستلام الميراث. أما أن أقول لها إن محامي والدي يطلب إليّ السفر تباعًا لثلاثة بلدان في ثلاث قارات لأجمع تركتَه، فهو ما لا بد أن تعتبره مبالغةً غير منطقية، أبرّر بها فترة سأقضيها بصحبة مرؤوستي الشابة المثيرة، والنفقات الباهظة التي تأهّبتُ لإنفاقها على إسعاد الحسناء. تايا أذكى من أن تقول ذلك صراحةً؛ لكنني أيضًا أذكى من أن أُخطئ قراءة ما جال بخاطرها فيما

تُنصِت إليّ، فذكرى خياناتي الصغيرة (كما تُسميها تايا) لا تزال حاضرةً، تُعبّق المساحة الفاصلة بيننا.

"كم تستغرق هذه الرحلة، بحسب تقدير *المحامي*؟".

تجاهلتُ اتّكاءها على لفظة "محامي"، وقلت: "لم أُناقشه في هذه النقطة، لكنني لا أتصوّر العودة قبل شهر".

"شهر! لقد اقتصر شهر عسلنا على أسبوعين، لو أنك لا زلتَ تذكر!".

تجاهلتُ إشارتها الماكرة، وقلتُ ساخرًا: "حياتي معكِ شهر عسل ممتدّ"، أومأَت بفراغ صبر، وعادَت لادّعاء القراءة في رواية رومانسية.

كان عليّ التأهُّب للسفر في أسرع وقت؛ أجهّز البديل الذي سيحلّ مكاني في إدارة التسويق بشركة المعدّات الطبية، وأُطلعهُ على ما بقي عالقًا من محتويات الخطة السنوية. أقوم بسداد الفواتير وكروت الائتمان، وببعض الإصلاحات في سيارة زوجتي وسقف المنزل، أقطع تذكرة السفر وأحجز مكانًا للإقامة (لم أكن مرتاحًا للإقامة في بيت هليوبولس)، وأثناء كل ذلك، أسعى لإقناع زوجتي بصدق حكايتي.

قبل سفري بأيام، طلبتُ من زوجتي أن تُتابع مع مارثا (مرؤوستي الحسناء) سير العمل كلما أمكنها ذلك، آملًا أن تطمئن لعدم مرافقتها

لـي أثناء الرحلة. طلبتُ إليها أيضًا أن تُراسـلني بمواعيد ظهورها على القناة الإخبارية مهما كان فارق التوقيت، لكي أستمر في مُتابعتها ونشر صورها على الانستجرام؛ قلتُ إنني سأطلب من كل فندق أُقيم فيه أن يُتيح لـي مُتابعة القناة في تليفزيون الغرفة، وإنني أثق في إمكانية ذلك. دعوتُها وساندي للعشاء في مطعم سكراتش المفضّل لديهما، وبدون وعـي مني وقعتُ في خطيئة إسداء النصح لابنتي المراهقة، فطلبتُ منها ألا تتمادى بعيدًا في علاقتها بالفتى المُلوّن الذي يكبرها بست سنوات، فما كان منها إلا أن قالت: "لا تنسَ أنك تصغر ماما بست سنوات أيضًا، كما أنك مُلوَّن مثله"، ثم غادرَت المطعم، واستقلّت أوبر لتبيت ليلتين حيث لا نعلم.

حمَّلَتني تايا (كعادتها) مسؤولية الموقف برمَّته، اتَّهمتني بالتسبُّب لساندي في المزيد من الضغط النفسي؛ أنت لا تدعمها، لا تمنحها الثقة بنفسها، الفتاة موهوبة، صوتها ساحر وشعورها شديد الرهافة، فيما أنت دائم الانتقاد لمظهرها وتصرفاتها، المظهر هو أكثر ما يشغل الفتاة في هذه السن (هذه السن فقط؟ ماذا عنكِ أنتِ!)، كما أن شجارنا المتكرّر يُشوِّش في ذهنها صورة الرجل.. على امتداد يومين، استنفدَت تايا كل طاقات اللَّوم والتقريع الممكنة، التي أودعها الله في روح المرأة. ثم إذ بي ألمح في عينيها نظرةً حانية فيما تُودِّعني في المطار. شعرتُ بأنها تُصدّقني هذه المرة، ولدهشتي أحسستُ برضا كبير عما قمتُ به طوال الفترة السابقة لسفري. منحَتني قُبلتها الأثيريّة

المُعتـادة، فلـم أتمهّل للحظة أخرى خوفًا من ظهـور بوادر عراكها مع الشـكوك. كنتُ أحتاج لأن أحتفظ بشـعورٍ إيجابي، ومـع تقدّمي نحو صالـة المغادرة، بدأ شـعورٌ سـلبي بالخوف والترقّـب ينتفخ بداخلي. سـحبتُ مـن بين أوراق سـفري صورة أبـي مع ابنة عمـي، ولأول مرة أمكنني تفسير نظرته المُتحدِّية.. كان يتحدّاني أنا.

3

سبعة أعوام تفصلني عن آخر مرة عاينتُ فيها مطار القاهرة. يبدو اليوم أفخم قليلًا، لكنه لا زال يعج بأجوائه الباعثة على التوتُّر. وجوهه التي يعوزها الصدق، تتدافع نحوك لتُسدي خدمات لم تطلبها، وأصواته المرتفعة تتطاير صوبك من كل اتجاه، وشعورٌ بالاتهام يتأكَّد مع كل مرورٍ بضابط أمن. خارج المطار، تمارس عليك القاهرة مزيدًا من الضغط، سائقو التاكسي لا يمنحونك مساحةً للاختيار، طالما لم يستقبلكَ أحدٌ فأنت فريسة سقطَت بين حفلٍ من الصيادين، سيتنافسون حتمًا أيهم يلتقطكَ أولًا ويمتصّ دماءكَ الخضراء.

"ليموزين يا باشا؟ ليموزين؟".

حاولتُ إقناعهم بوجود من ينتظرني، رددتُ بصرامة واقتضاب، لكنْ بمرور الوقت تأكَّد ضعف موقفي، وصار لزامًا عليّ أن أرفع راية الاستسلام. أمسك أحدهم عنوةً بعربة الحقائب وهبط بها نحو الشارع، صرتُ مُضطرًّا للحاق به خشية أن تُسرَق حقائبي، شعرتُ بقهر وتبَعية مُهينة فيما أحاول الاتصال بمحامي أبي لتاسع مرة. حين ردَّ أخيرًا كان السائق قد انطلق بعنفِ الهارب من مطاردة.

"أنا في السكة"، قال المحامي، أجبته بأني ركبتُ سيارة أجرة بالفعل، برَّر تأخُّره بازدحام الطريق وطالبني أن أوقِف التاكسي وأنتظره عند مخرج المطار، رفضتُ بصرامة وَشَتْ باستيائي.

كان مشواري قصيرًا بفضل اختياري فندق الميريديان، الكائن على طريق المطار، لهذا فضّلتُ لقاء المحامي في بهو الفندق. لدهشتي وجدتُه عجوزًا ضئيل الحجم، ما لم توحِ به نبرته الحادة الواضحة عبر الهاتف. عرَّفني بنفسه كصديق قديم لأبي وزميل سلاح. تساءلت: أي سلاح يحمله جسد بهذه النحافة؟! واستعددتُ لاستقبال كمٍّ أكبر من الأكاذيب.

"حضرتك محامي الوالد منذ فترة طويلة؟".

"منذ أول مرة يحتاج فيها لمحامٍ. كان ذلك قبل زواجه من والدتكَ بمدة، حتى إنه دعاني للشهادة على عقد الزواج".

مدَّ نحوي علبة سجائر تحمل صورةً مُفزعة: "تدخّن؟".

أومأتُ شاكرًا وأخرجتُ علبة سجائري. رمق العلبة باهتمام فقدّمتها إليه، التقط سيجارةً وقال بامتنان: "ذكّرتَني بأبيك؛ كان متعهّد الدخان أيام الجبهة".

دعوتُه لفنجان قهوة في كافيه سان جيرمان، وهناك حدّثني عن بداية معرفته بأبي، مدَّعيًا أنهما قاتلا ضمن كتيبتَي صاعقة في حرب

أكتوبر. كدتُ أضحك من صورته التي ارتسمَت في مخيلتي وهو يرفل في بدلة الصاعقة بجسده الهزيل.

"كانت أولى تجاربي مع الحرب الحقيقيَّة، فيما كان أبوك يكبرني بثلاث سنوات، وكثيرًا ما نفّذ مهام قتالية في معارك الاستنزاف".

أثناء حديثه، كنتُ أرسل لتايا رسالة فايبر، رفعتُ الهاتف على امتداد ذراعي وطلبتُ من المحامي أن ينظر نحو العدسة، وبعثتُ إليها بصورة تؤكّد طبيعة المهمة التي سافرتُ لأجلها، فتحتُ بعدها محادثة أمي على الواتساب، ومررتُ بعيني على تسع رسائل غير مقروءة منذ أمس الأول، تستدعيني لمكالمة السكايب اليومية وتُبدي قلقها عليّ. لم أُبلِغها بسفري حتى لا تُلاحقني بقلقها المعتاد. فكرتُ أن أستأذن المحامي وأتصل بها لأُخبِرها بوصولي، ثم عدَلتُ عن الفكرة تحاشيًا لإلحاحها المتوقّع لكي أبيتَ في بيت هليوبولس، كنتُ لا أزال متردِّدًا بشأن الإقامة هناك.

ربما لاحظ المحامي عدم مُتابعتي حكايته، فرشف رشفةً أخيرة من فنجان قهوته وتوقّف عن الكلام. رفعتُ بصري واعتذرتُ إليه بانشغالي بالرد على الكثير من الرسائل، فأومأ مُتفهّمًا ورَنا بعيدًا نحو البار. سألته: "أيمكن أن تُطلِعني على الأوراق الخاصة بالتركة؟ أنت تعلم ظروف السفر وضيق الوقت".

تمهَّل قليلًا وعلى وجهه ابتسامة شاحبة، قال: "مرَّ أبوك بالكثير، وتوزَّعت نجاحاته بين عدّة بلدان، ستجد رصيدًا بنكيًّا في الكويت،

وسندات ملكية في النمسا، وأرضًا زراعية في سيوة.. سيستغرق حصر التركة وإنهاء إجراءات الحصول عليها بعض الوقت، كما أن الوالد اشترط إنهاءكَ الإجراءات بنفسك دون توكيل محام، وبترتيب حدَّده في الوصيّة، ما لم يمنعكَ مانع قهريّ. اختار كذلك مُمثِّلًا قانونيًّا يُمثّله في كل بلد، جميعهم على الأرجح أصدقاء قدامى". ثم ابتلع ريقه وأضاف: "ستضطر لمرافقة عجوز مملّ مثلي في كل مرحلة".

ضحك بطريقة أربكَتني، فتلفَّتُّ لا إراديًّا حولي أستطلع المحيطين، ثم قلت: "لستَ مملًّا بالطبع، وليس ما يبدو عليَّ إلا نتيجة الضغط والإرهاق".

"لا عليك. من الأفضل أن ترتاح اليوم، وتُشرِّفني غدًا في المكتب وقتما يروقكَ".

"ليكن"، قلتُ فيما أتناول منه الكارت الشخصي، لأتخلّص من الحرج فحسب، لكني وجدتُه ينهض ويستعدُّ للمغادرة، فاستوقفتُه قائلًا: "لماذا يمنعني الوالد من توكيل محامٍ في إنهاء الإجراءات نيابة عني؟ أليس في رأيكَ شرطًا تعسُّفيًّا؟ وهل يكفل له القانون إملاء شروطه على الورثة بهذا الشكل؟!".

أشعل سيجارة جديدة وقال بتريُّث: "ناقشتُه في ذلك، ووجدتُه مُصِرًّا تمامًا على أن تقوم بنفسكَ باستخلاص التركة، ولهذا عمل على صياغة الأمر في إطار قانوني مائة بالمائة، ثِق في ذلك، سأشرحهُ لكَ حين نلتقي غدًا".

نهـض من فوره، ومدَّ يـده مُصافحًا: "كان أبـوك حريصًا جدًّا على انتقـال التركة إليك، حرصًا ربما تراه مُبالغًا، لكنـه أراد تأمينكَ وتأمين التركـة فـي نفس الوقـت". ربما قرأ فـي وجهي عدم الاقتنـاع بعريضة الدفـاع الهزيلـة تلـك، فـأردف يقـول: "اعتبِـره طلبًـا أخيرًا مـن أبيك المتوفّـى، وثِـق أنه حرص على تيسـير قيامـكَ به لأقصى ما اسـتطاع، سترى ذلك بنفسك".

أومـأتُ مُسـايرًا حديثـه دون اكتـراث حقيقيّ، أفلتَ يـدي وطلب سـيجارة من "الأميركاني" الذي أحمله (كانت سـجائر كوريَّة)، منحتُه العلبـة مؤكـدًا أن لـديّ مخزونًا يكفينـي طوال الرحلـة. لاحظتُ عليه بقايا رشـاقة وخفة حركة قديمة، حين مضى بخطوات لا تناسب عمره يحمـل حقيبة جلدية حائلـة اللون. خطَر لي أن الرجل لم يُطلعني على الأوراق التـي يحملها، لماذا لم أتمسّـك بطلبي! حملتُ ثقل السـؤال صعـودًا لغرفتـي، التي جـاءت إطلالتهـا على شـارع العروبـة الزاخر بمهرجان عارم للضجة والزحام، لم يجسُـر صخبُه على اختراق الدرع الزجاجيـة لغرفـة الميريديان، لكـنّ ضجيجه الماثل أمامـي لم ينقصهُ الصوتُ ليُشعرني بالانزعاج، وبالرغبة في العزلة.

أغلقـتُ السـتائر طبقـةً تلـو الأخـرى، وارتقيـتُ السـرير محـاولًا الوصـول لحسّـاس الحريـق، بصعوبـة غطّيتُـه بكيس بلاسـتيكي، ثم تمدّدتُ بملابسـي فوق المرتبة المرتفعة وأشـعلتُ سـيجارةَ اسـتعادة التـوازن. وددتُ أن أتّصـل بأمي وأُطمئنها، أن أتفقّـد محادثة تايا على

الفايبر، إذ ربما تكون قد أرسلت إشعارًا جديدًا بظهورها على التلفاز، أن أتفقّد الميني بار، فقد أجد علبة بيرة مثلجة، أو شيكولاته بلجيكية تمنح سعادة مؤقتة.. لم أفعل شيئًا من هذا، بل إنني فقدتُ الرغبة في كل شيء، وخطرَت لذهني ساندي، فكثيرًا ما تقول إنها لم تعُد ترغب في أي شيء. سريعًا داهمني النعاس، فخلعتُ حذائي وأطفأتُ السيجارة بين نعليه، وقبل أن يغشاني النوم جال بخاطري سؤال وحيد: ما الغاية من كل هذا الشقاء يا أبي البعيد؟

4

لشهرَين متواصلَين من عمر طفولتي، توقَّفتُ تمامًا عن الحديث للعالم. لستُ مُتيقّنًا إن كان صمتي إراديًّا أو غير ذلك. فقد اختلفَت حوله الأقاويل، حتى إن خالي ذا النزعة الصوفيّة ذهب في التفسير لكوني نذرتُ للرحمن صومًا عن الكلام، في لحظة كَشفٍ يُدركها الخواص، فتنبَّأ لي أن أصير قطبًا صوفيًّا يؤمُّه المريدون ذات يوم (ليته يراني اليوم كي يتأكَّد من هزليَّة نبوءته). أما الآخرون فتناولوا الأمر بعقلانية أكبر، فهِموا أني أُعاني اضطرابًا نفسيًّا شديد الوطأة على طفل في السادسة، نتيجة الحريق المُضرَم على الدوام بين أبي وأمي.

كانا قد بلغا ذروة الخلاف حين أصابني خرسٌ طَوعيّ. أتذكَّر أبي واقفًا كجِذع شجرة شديد الصلابة والخشونة والرسوخ، يُطوِّح بذراعٍ في ضخامة مجداف، ويصدَح بصوتٍ يرُجُّ جدران شقته الصغيرة في الكويت. تثور ثائرته، فيقذف بأقرب ما تطوله يداه صوب أمي، أحيانًا صوبي أنا، فتفزع الأخرى وتصرخ بعويل يدهمني كصرير الطباشير.

"رأيتها بأم عيني تتلكَّأ في عبور مدخل البناية ودخول المصعد، حتى تلحق بها".

"أنـتِ مجنونـة، ومريضـة، إن لـم تتوقَّفـي عـن الصراخ سـأنزع حنجرتكِ بيديَّ هاتين!".

ربمـا خشـيتُ علـى حنجـرة أمـي ووَدَدتُ لـو أفتديهـا بحنجرتي الصغيرة، فاخترتُ الهروب لحُجرة الصمت. أيقظَتني أمي ذات صباح لأتجهَّز للذهاب إلى المدرسة، سألَتني: أعمل لك ساندوتش لانشون اليـوم؟ فلم أُجِب. وصفَت لي الحادث بدقَّة عدة مرات فيما بعد، كأنه حـادثٌ أيقوني رسـم حياتنا التاليـة بكل تفصيلة فيـه. قالت إن وجهي كان مُضيئًا فوق العادة، كأني خارجٌ لتوّي من حمام دافئ، على وجهي ابتسامة اطمئنان غابَت عني منذ شهور، كل ما اعتراني وقتها أني ظللتُ صامتًا، أُجيبها بإشارات عشوائية لا يُفهَم منها شيء.

تلَـت هـذا الحادث أسـابيع مـن السـعي المُلتـاع هنا وهنـاك، بين المستشـفيات الحكومية وعيـادات الطب المدرسـيّ؛ يحضُرني عادةً وجـهُ عمّـي، حين أسـتعيد ما حكتـهُ أمي عن هـذه المرحلـة؛ يحدِّث أطبـاء باكسـتانيين وهنودا وأردنييـن ومصريين، تتـراوح تخصصاتهم بيـن التخاطب والطب النفسـي والأنـف والأذن والحنجرة، يطرحون الأسـئلة ويكتبـون التقاريـر التي يُوجِّهونهـا لإدارة المدرسـة، دون أن يقترحـوا علاجًـا محـدَّدًا؛ فقـط يُفيـدون بضـرورة إجـراء المزيـد من الفحـوص. آخرُهم كان طبيبًا مصريًّا شـابًّا نصح أمـي بالعودة لمصر، وعرضي على أسـاتذة التخاطب والطب النفسـي هناك، ومنحَها ورقةً كتَب عليها عدة أسماء.

عجَّل الحدث الطارئ بأمر كان محتومًا؛ أصرَّت أمي على العودة، ورفضَت الاستمرار مع أبي أسبوعًا آخر مهما كانت التبعات. دعَّمتها جدتي بشتى السبل، حتى إنها مارسَت ضغطًا على أهل أبي في الإسكندرية كي يُشاركوا في إقناعه بضرورة السماح لها بالرحيل بولدها المنكوب. صرتُ محور الأزمة، بعد أن كانت غيرة أمي وتصرفات والدي بؤرة الصراع. لا أحد يتحدَّث عن الأسباب، النتيجة هي ما يشغل الجميع، ويُحرِّك الصراع، ويُعجِّل بالقرارات.

"اتركها تعود بابنها".

"وعدتَها ألا تزيد مدة الإقامة على خمس سنوات، وها قد جاوز الصبي السادسة".

"تحمّلتما ما لا يُطيقه بشر، لكن الصبي المسكين لم يتحمّل".

"باشِر مصالحكَ ودَعها تنجو بمستقبل الطفل".

بعد العودة بأسبوعين، عاودَتني القدرة على الكلام بشكل جزئيّ، تحت غطاء سحريٍّ من حكايات جدتي. صدَّقَت جدتي على الأرجح تفسير خالي المُتصوِّف، وإن لم تُعلن ذلك صراحةً، فقد علَت وجهَها ابتسامةٌ صامتة حين أفصح عن تفسيره. صارَت تُسكِنني حضنها الوثير حتى أمَلّ، وفي الليل تُرقِدني على حِجرها وتقُصُّ عليّ أحوال الأقطاب الصوفيين الأسطورية، أولئك الذين تُطوى الأرض تحت أقدامهم فيقطعون مئات الأميال في كل خطوة، وأولئك الذين

يعرفون ما يجول بخواطر الناس، وما يخفونه في جيوبهم أو يُخبّئونه في بيوتهم. سحرَتني خاصة حكاية وليٌّ شجاع، فزِع إليه الناس حين هاجمهم أسد وأكل عِجلاً يُدوِّر الساقية، أقبل الوليُّ فأمسك بلبدة الأسد، ثم ربطه مكان العِجل في الساقية ثلاثة أيام، وصار يُطعِمه مما يُطعَم منه العِجل، حتى أفلتهُ وتركهُ يمضي لحال سبيله. لا أنسى أيضًا ذلك الوليَّ خارقَ القدرة، الذي جاءتهُ امرأة مذعورة تستنجد به حين خطَف تمساح النيل ابنها الصبي، فأرسل الوليُّ أحدَ أتباعه لشاطئ النيل يُنادي معشر التماسيح، ويأمر من ابتلع صبيًّا أن يُعيدَه، فخرج إليه التمساح ومشى بجواره حتى بلغا دار الوليّ، أمرهُ وليُّ الله أن يلفظ الصبي، فلفظَهُ حيًّا، ثم قال الوليُّ مُخاطبًا التمساح: مُت.. فمات التمساح من فورِه.

كان أولَ ما نطقتُ به بعد العودة أن سألتُ جدتي: "لماذا قَتل التمساحَ طالما أعاد الصبي؟"، كنتُ مُمدَّدًا فوق حِجرها، فدفعتني وقامَت كالملدوغة تكاد تقفز من أعلى السرير، تخبَّطَت حتى بلكونة الغرفة وشرعَت الشيش، وهناك أطلقَت زغرودةً مُحمَّلة بشهقات البكاء، وفي ذات الليلة نذرَت نذورًا عديدة لأولياء الله الصالحين.

ظللتُ على حالي أسابيع أخرى، لا أستطيع الحديث إلا حين أنفرد بجدّتي، حتى إن أمي بكت بينما تترجّاني أن أُسمِعها صوتي ولو لمرة. بعد فترة صرتُ أتكلم في حضرة خالي، وأخيرًا أمي.

منحَتني هذه البلوى أفضل أيام طفولتي على الإطلاق، فقد منعَتهم من إلحاقي بالدراسة حتى نهاية العام. كما نلتُ من التدليل ما لم أنلهُ طيلة حياتي السابقة واللاحقة، وبدأتُ أخوض الحياة الحقيقية تحت الشمس المُحتمَلة وفوق الأسفلت المُحفَّر والأرصفة المُقتلَعة. وتخلَّصتُ مع الوقت من كلمات شامية وخليجية كانت تتسرَّب للساني وقت اللعب، فتنتاب الأطفال من حولي دهشةٌ تُحرجني. كما أني شاركتُ في نقل متعلقاتنا نهائيًّا من شقة أبي بامتداد رمسيس إلى بيت هليوبولس، الذي صار بيتي حتى تخرَّجتُ في الجامعة، وهناك، في شقة الزوجية، تركنا صورة أبي ببدلة الصاعقة، تلك المُعلَّقة في صدر الصالة، والوسامَين المُتدلّيَين فوق ركبَيها، فرُحتُ أنسى ملامحهُ مع الوقت، حتى بعثَت ابنة عمي بصورتها مع أبي، وكان يرتدي زيًّا عصريًّا من ملابس بدايات التسعينيّات، ويواجهني عبر الكاميرا بنظرة تحدٍّ.

5

نمتُ طويلاً، خلاف ما أُعانيه من سُهاد حين أبيتُ في فراش غير معتاد. اعتراني ارتياح نسبيٌّ وشعور صافٍ بالحرية، غيرَ مُحاط بتوقعات تايا ولا مبالاة ساندي. حتى شعوري المُزمن بانضغاط الوقت حيال قائمة المهام اللا نهائية، لم أجد له أثرًا. رغبتُ في البقاء ممدَّدًا هكذا على سرير المريديان، أدلِّل حواسي بملامسة الملاءة الطريَّة، لولا ضيقي بطعم النوم المُعتَّق في فمي.

في الحمّام، وفيما أغسل أسناني وأُعاين بحسرةٍ عدَّة شعيرات بيضاء نبتَت حديثًا في لحيتي، استمعتُ لرسائل واتساب صوتية من أمي، أبدَت خلالها قلقًا يُجاوِز الحد. شعرتُ برغبة فجائية في احتضانها، وكذلك في التمدُّد في فراشي القديم، انتابني شوقٌ غير مفهوم لوسادتي القطنية الصلبة، الممتدَّة بعرض السرير، والتي طالما عبقَت بطانتها بروائح التبغ والعرق والشبق الليليّ. راقتني فكرة الذهاب لبيت هليوبولس، على أن أتحجَّج بعد الغداء بحاجتي لقيلولة قصيرة وأختبر مدى ارتياحي للمبيت هناك. عندها سارعتُ بإنهاء حمامي، وانطلقتُ إلى الشارع بحثًا عن تاكسي.

داهمَتنــي الحـرارة المُنبعِثة من كل شــيء، والوهــج المنعكس من أســطح الســيارات لدرجة الإيلام، ليســت الســيارات فحســب، بل إن المشــهد القاهــريّ بكلّيته كان يتحمَّم بأشــعة شــمس تنهمـر بلا عائق، رغـم ما يظلّله من ســحاب أبيض شــاهق، لا دور لــه إلا إضافة رتوش جمالية على اللوحة الصيفيَّة. استوقفتُ تاكسي أبيض، وطوال الطريق لـم يَظهـر ذلك التاكسـي الأبيض والأسـود الـذي كان يميِّـز القاهرة. سـريعًا عبرنا كوبـري الجلاء، لفتَني تضاعُف اتِّسـاعه، قبل أن ننحرف يمينًا زاحفين نحو الكوربة.

الكوربــة الحبيبــة، جداريَّتــي الهائلــة، أمضيتُ فصليــن من عمري أنقــش عليها ذكرياتي؛ مباهجــي وعثراتي، تحوُّلاتــي. تداعت الصور أمامي كلما عبَرنا واجهة أثرية أو استدرنا حول ناصية. لولا الشعارات السوداء والحمراء التي لطَّخت بعض الجدران لكنتُ رأيتُ نفسي بين الصِّبية المتوارين خلف كشـك السـجائر، أُنازِل سيجارتي الأولى بين جمع مُتحفِّز من الأولاد، وأُقاوم سعالًا يسحب الروح، أو بين الشباب المُتعاركين بحناجر خشنة تحت الشرفات العتيقة، مستدعين جميلات الكوربة كي يطلُلن عليهم، ويُلقين بنظرات في روعة الورود البيضاء.

استفسـر السـائق عن مقصدي فأرشدتُه إلى الشـارع، ثم سألتُه عن اللطخات المنتشـرة في كل مكان؛ شـعارات 6 إبريل، دعاوى إسـقاط الإخوان، وأخرى تُناهِض العسـكر، أكثرها مقرون بالسُّـباب، قال إنها بقايا التظاهرات، من هنا كانت تعبر المسيرات صوب قصر الاتحادية،

في إحداها احترقَت سيارته الأبيض والأسود، فصار من بعدها يعمل على هذه السيارة المملوكة لحَميه. سألته: "لماذا لا يُزيلونها الآن وقد استقرَّ الوضع"، فعلَّق ساخرًا: "استقر!".. عدتُ لمُطالعة اللطخات العديدة، كان السُّباب أكثر ما يُثير حفيظتي، لكنني تذكَّرتُ كم صدحتُ بسباب أقذع منه أيام الجامعة؛ أيام التظاهرات المُزامنة لانتفاضة الفلسطينيين الثانية، فأدركتُ كم بدَّلتني السنون.

نزلتُ قرب مطعم فول وطعمية ساهم في تكويني مع بيت هليوبولس. لاحظتُ تغيُّرات عديدة طرأت عليه؛ ربما صار أكثر حداثة، لكنه أكثر ابتذالًا بفارق كبير. أحسستُ أن السنين مُراوِغة، والانطباعات خادعة، ازداد شعوري بثقل اللحظة حين التحقتُ بطابور عشوائيّ يُهاجم الكاشير كوحش مُتعدِّد الرؤوس. بعد عدَّة مُحاولات فاشلة للَفت انتباه الرجل سأل بصلفٍ عن طلبي، تعثَّرتُ في الإجابة ووجدتُني أطلب ساندوتشات البيض الأومليت، راغِبًا دون سبب عن الطعمية التي أتيتُ لأجلها، وبعد إطلالة طويلة على تظاهُرة استلام الطلبات، رغبتُ عن المطعم ذاته، وفطِنتُ لكوني لم يعُد باستطاعتي القيام بذلك.

حاولتُ استيقاف تاكسي، أهمل نحو عشرة سائقين إشارتي، حتى أقلَّني سائق يقود السيارة بمنطِق عربة الرش قديمًا؛ ببطء شديد وبمحاذاة الرصيف. وصلتُ بيت هليوبولس، القريب، بعد نحو نصف ساعة، وألهمني الجوع أن أبتاع أكلة سمك من السمّاك المجاور وأدخل

بها على أمي. استغرق الأمر نحو ساعة من هشِّ الذباب واستنشاق الروائح الكريهة التي تسكن ممرات السوق. أخيرًا رقيتُ سلم البيت. فتحَت لي الباب فتاة ريفية، قالت إن "الحاجة" في شقة الجيران بالدور الأرضي. علمتُ فيما بعد أن خالي أسكَن أقارب زوجته في الدور الأرضي، وأن أمي صارت صديقة حميمة لهذه العائلة، تقضي عندهم أكثر أوقات النهار.

بعد ضمَّة طويلة من أمي، عدتُ طفلًا. أذاب دِفؤها تيبُّس مفاصلي. وكشطَت عني بشرتُها الرطبة العرقانة جميع التحفُّظات. فقدتُ اهتمامي بمُتابعة المحيطين، سواء عائلة المُستأجرين أو الخادمة الريفية، وصرتُ أجيبُ أسئلتها بأريحية وحسٍّ فكاهيٍّ ظننتُني فقدتُه منذ زمن. بعد قليل سألتني: "مال شعركَ ابيضّ هكذا؟!".

"صبغتُه لأظل قريب الشَّبه منكِ".

خبطَتني على صدري (لم يعُد صلبًا حيال خبطتها كما كان)، وضمَّتني ثانيةً ببهجةٍ عارمة. صعدنا للطابق الثالث، لاحظتُ اتِّكاءها على ساقها اليسرى، سألتُها: "مال رِجلك؟"، قالت: "العظمة كبرت يا هاني"، ضممتُها تحت ذراعي ولثمتُ يدها المُتَّكئة على يدي، فردَّت بقبلة على كتفي. قضينا ثلاث ساعات في ثرثرة لا تفتر فيما نُحضّر المائدة، وأثناء التهامي السمك من أصابع أمي مباشرةً، وبصُحبة كوب الشاي الأول والذي تلاه، ثم أثناء دفس البطيخ في

المعدة الممتلئة. غمرَتني دهشة سعيدة، كأني أعيش من جديد فرحة العودة لدنيا الكلام.

بعد قليل، لم يعُد باستطاعتي مقاومة النوم. ثقُلَت جفوني وتلكّأ لساني في لَفظ الكلمات، اعتذرتُ لأمي بحاجتي للنوم، لم تكُن حجّةً لاختبار الراحة كما خطّطت، بل كنتُ واثقًا من اختياري الإقامة في البيت. أمرَت أمي الخادمة بتبديل ملاءة سريري وأكياس المخدات، وأثناء ذلك فتحتُ موضوعًا أخيرًا: "ماما، كيف تعرّفتِ على أبي؟".

وجمَت أمي لبرهة، ثم أبدَت تعجُّبها من اهتمامي اليوم بسؤال كهذا. قالت إنها مثلي بحاجة لتعسيلة، وهذا حديث ذو شجون، الأفضل أن نُرجئه لجلسة العصاري مع فنجان القهوة، فوافَقتُها على الفور.

6

لـولا انتفاضـة الخبز مـا كنتُ اليوم في عِداد البشـر. هكـذا عرفتُ مـن أمي، فالصدفـة وحدها هي ما جمعَت ضابط الجيش السـكندريَّ الشاب، بابنة حقوق عين شمس اليسارية الجميلة، والصدفة هنا حدثٌ جلل، جدير بخَلط أوراق البشر وإعادة ترسيم مصائرهم.

كانـت إحـدى المـرات القليلـة التـي نـزل فيهـا الجيـش لترويـع المواطنين. كُلِّفت كتيبة أبي بمحاصرة إحدى التظاهرات الطلابية التي نشبَت ردًّا على ارتفاع الأسعار، مُستجيبةً لدعاوى الحركات العُمّالية، فيما قادت أمي مسيرة الطلبة لخارج أسوار الجامعة صباح التاسع عشر مـن يناير 1977 ، حين قـرَّروا التظاهر أمام ضريح الرئيس الراحل نصير العُمّـال. كان تحركًا عفويًّا بلا رأس (هكذا وصفتهُ أمي)، ولم يكن في الحسبان ذلك التدخل العنيف من قوات الأمن.

تمترسَـت القـوات أمـام البوابـات، واصطدمَت هتافـات الحناجر الشابة مع صيحات القوات النظامية ذات الإيقاع الرتيب، ذاب الصقيع مـن حـرارة المبـارزة، ولـم يبـقَ إلا شـرارة من هنـا أو من هنـاك ليبدأ الحريـق. أبدى الطرفان اسـتعدادًا تامًّـا لمنح الشـرارة اللازمة؛ تدافع

الطلبة لاقتحام الشارع، ولوَّحَت قوات الأمن المركزيّ بالهراوات والدروع، لم يطُل الحصار، نزلَت الهراوات تترى فوق الأجساد المشتعلة بالهتاف، واحترق العالم.. تمزَّقت الملابس، تقلَّصَت أجساد السيارات، وانطلق الكرُّ والفرُّ من كل جانب. فرَّت أمي من هراوة لاحقَتها عدَّة أمتار، واشتبكَت مع درع شفافة أرادت أن تسُدَّ في وجهها جميع السبل، حتى هوَت فوق رأسها يدٌ غليظة قبضَت كعكة شعرها المبتلِّ بالعرق، سيقَت كأرنب مفزوع نحو عربة أمن مركزيّ، وتسلَّمها ضابط رابض خلف العربة يُدير حديثًا مُتقطِّعًا عبر جهازٍ لا سلكيّ.

كان البلوفر الذي ترتديه أمي قد انداح لأسفل أثناء اقتيادها، كاشفًا عن كتفها وحمالة صدرها، جذبها الضابط من الحمالة المرنة، وراح يطوِّح بها يمنة ويسرة كمِنشَّة ذباب. أثناء ذلك، أخذ يسُبُّها ويُردِّد بسخريةٍ هتافها الذي أُبلِغ به عبر اللا سلكيّ؛ "سيد مرعي يا سيد بيه، كيلو اللحمة بقى بجنيه.."، يُردِّده بإيقاع راقص ويسألها: "الكيلو بجنيه؟ وأنتِ، تُضاجعين بكم جنيه؟".

كاد صدرها يطفر من فتحة البلوفر، بينما يقرزها الضابط بألفاظٍ خشنة وموحية، هنا دنا منهما شابٌّ ببدلة عسكرية، يحمل على كتفيه رتبة رائد وعلى ذراعه شعار قوات الصاعقة. سأله: "لماذا تُمسِكها؟"، فأجاب: "قبضناها بينما تقود الشيوعيين الأنجاس، الذين يخطِّطون لقلب نظام الحكم".

"أهكذا تُمسِكون بالحريم؟ تُشلِّحون ملابسهن؟!".

لـم يُمهلـهُ حتى يُجيـب، بل قبض يده الممسـكة بأمـي واعتصَرها حتى تفلّتَت حمالةُ الصدر، عاجلهُ بضربة رأس أفقدتهُ اتزانه، وأرغمتهُ علـى التراجـع خطوات صـوب عسـاكره، بينما أمسـك الرائـد بذراع أمـي المنهارة، واقتادها نحـو مدرَّعة الجيش المتمركـزة على الناصية المقابلـة. هناك سـألها عن عنوانهـا تفصيلًا، وأرسـل بصُحبتها مُجنَّدًا أوصلهـا حتـى بيـت هليوبولـس؛ نفـس البيـت الـذي زارهُ الرائد بعد يومين، طالبًا يدها.

قلت لأمي: "أحبَّكِ من أول نظرة".

فقالت بافتخار: "كانت أمكَ تقول للبدر قُم لأقعد مكانك".

سألتها: "وأبي؟".

شردَت قليلًا، ثم قالت: "الله يرحمه.. اذكروا محاسن موتاكم".

"اذكري محاسنه فقط".

عـادت لشـرودها، واحتجـتُ لأن أُرهِف سـمعي فيما تقـول بنبرة خفيضة: "كان عريسًـا لا يُرفَض بالطبع؛ شـهمًا، شجاعًا، ملء هدومه، يُثيـر إعجـاب أي فتـاة فـي عمـري آنـذاك، وكان ثوريًّا حـاد النبرة في معارضـة الأوضـاع، رغـم انتمائه للجيـش. لكن قلبه كان يتَّسـع لعالم بأسره من النساء".

"أهذا ما جعلكِ تكرهينه فيما بعد؟".

رنَت إليَّ وقالت: "تحمَّلتُ من أجلكَ وأجله الكثير، إلا الخيانة".
ثم أردفَت بعد برهة: "لماذا تطرق هذا الباب اليوم؟".

"لم نطرقهُ أبدًا من قبل، ظلَّ صندوقًا مغلقًا غير مسموح بفتحه ولو من باب الفضول".

"مات الرجل وشبِع موتًا، وله علينا بعض الفضل، فلا داعي لأن ننبش ذكراه".

هكذا أعادَت أمي غلق الصندوق كما عوَّدَتها جدّتي، وإن كانت بحكايتها هذه أثارَت شغفي لمعرفة المزيد. ماذا فعل الرجل كي يستحق هذا السخط؟ وماذا دفعني لقبول كراهيته كأمر مفروغ منه؟

لم أُحايلها كي تُبقي الصندوق مفتوحًا بعض الوقت، فقد كان عليَّ اللحاق بميعاد المحامي، وكان أمامي ما هو أكثر مأساويةً من قصة والديّ؛ قيادة سيارة أمي حتى مكتب المحامي الكائن في باب اللوق. تردَّدتُ بين القيادة في الشوارع المُكدَّسة، وبين استقلال أوبر مثلًا أو تاكسي أبيض. استقررتُ على القيادة أخيرًا لسببٍ أقرب إلى العناد منه إلى التصرُّف العملي؛ ربما من باب التحدّي مع هذه المدينة التي تقهر الجميع، لكنني وبعد قطع مسافة قصيرة نسبيًّا دُفِعتُ للتفاوض والقبول بحل وسط، فتوجَّهتُ صوب أقرب محطةٍ لمترو الأنفاق أشار إليها جوجل مابس، وأمضيتُ ساعة في السؤال حول الاتجاهات والتنقُّل بين خطوط المترو، حتى وصلتُ أخيرًا محطة السادات الكائنة في ميدان التحرير، ومنها أكملتُ طريقي مشيًا حتى باب اللوق.

7

انتشلني المحامي من سَكْرة الحنين، وأعادني لخشونة واقعٍ أجاد أبي صياغته بطريقة تمنحهُ السيطرة على حياتي بعد رحيله. ليس هناك ميراثٌ بانتظاري كما توهّمت، بل إنها عقود مُسجّلة قام أبي بتوثيقها قبل وفاته، في كامل قواه العقلية. لم يترك الأمور تمضي في مجراها المعتاد بعد موته، تمامًا كما فعل في حياته الحافلة بالتنقّلات، وضَع خطة مُحكمة لا يُمكن التملُّص منها، أحصل بمقتضاها على التركة الموعودة. باع لي أملاكه بعقود مُسجَّلة، ومنحني حق التوقيع على أرصدته البنكية، شريطة قيامي بإجراءات صارمة في كل بلدٍ أحصل فيه على جزء من التركة، وبترتيب سالف الإعداد.

"ماذا أراد بهذا التكدير؟"، سألتُ محاميه العجوز فيما أتأمل التحوُّل الذي طرأ عليه بداخل مكتبه؛ بدا صلبًا، متماسكًا، يُدير المكتب بصرامة ويقظة. ذكَّرتني خشونة صوته وجديّته المبالغ فيها بذكور الحيوانات؛ تحوّل في ذهني لأرنب لا يُفلح في التزاوج خارج حظيرته. مدَّ نحوي علبة سجائره المفزِعة، وشرع يشرح خطة أبي بغبطةٍ تُثير الغيظ. لبرهة شعرتُ أنه صاحب الفكرة، وأنه من أقنع بها

أبي أملًا في الحصول على غنيمة ما لـم ينَلها في حياته، لكنني بتكرار سؤاله وفتح الأبواب أمامه ليُفصح عن "طلباته"، لم أصل لتأكيد حول هذه الفرضية، بل إنه وصف لي اندهاشـه من الفكرة حين فاتحَه الوالد بشأنها. كيف أنه حـاول إثناءه عنها لما سيترتّب عليهـا من إجراءات تستدعي سفره وتعطيل شؤونه.

قال إن المحطة الأولى في رحلة استعبادي تلك، ستكون الكويت، حيث بدأ أبي طوافه الأبدي بحثًا عن الثـروة. أوراق الزيارة مُعدّة منذ راسلته بجواز السـفر، وهنـاك ينتظرني محـامٍ كويتي كان أبـي يعتبره صديقًا مقرّبًا. سـيقوم بإبلاغـه بموعد وصولـي حـال موافقتي على السفر، صباح الغد.

"صباح الغد! ومتى أحصل على تذكرة السفر؟".

"التذكـرة محجـوزة، وبانتظار تأكيدها عبر شـركة سـياحة يمتلك أبوك نصف أسهمها".

"أتعني أنني عليّ التوجُّه إلى المطار بعد بضع ساعات؟!".

"أدرك أنـك وصلـتَ للتو من رحلة طويلة، لكنْ سـبَق أن أعربتَ عن حاجتك لإنهاء انتقال التركة في أسرع وقت".

ابتلعـتُ تحفّظي، ورحتُ أُقلِّب دون تمييز في الأوراق الموضوعة أمامـي بجـوار فنجـان القهـوة. بـدا موقفي هشًّـا على نحو مـا، ويدي فارغةً من سُـلطة القـرار. التركة مرهونة بتنفيذ الخطـة، وأمامي الكثير

لأُنجزه خلال نصف ليلة.. أمَر المحامي أحد معاونيه بأن يصحبني إلى الفندق، ومن بعده إلى بيت هليوبولس حين شرحتُ له ظروف إقامتي "هنا وهناك". طلب إليَّ أن أوصل سلامَه لسلوى هانم، أمي. تساءلتُ: كيف عرف اسم أمي، ثم افتكرتُ قصة شهادته على عقد قرانها من أبي.

ذهبتُ كالمُنوَّم مع السيد ياسر، مُعاون المحامي، وكان الرجل خيرَ مُعين على الليلة العصيبة. أخذ يدفع سيارته الكورية الصغيرة عبر طوفان السيارات، فبدا بداخلها، بجسده الضخم وبشرته السمراء، كمارد محبوس في قمقم متحرك. طوى الشوارع والساعات بخفّة ظلّه الحاضرة دومًا، مهما كانت الظروف المحيطة، أصرّ على التوقّف مرتين لأكل الساندويتشات وشرب العصير، فأقف مُتّكِئًا على السيارة الصغيرة مُستقبِلًا منها صهد الموتور، ومنه حكايات مثيرة تسخر من البلد أكثر مما تشرّحه. وخلال حديثه الذي لا ينقطع، لم يتطرّق بالسؤال ولو من بعيد لشخصي ولا لحياتي، ما أشعرني بارتياح عميق. كما أخبرني عدة أشياء عن رئيسه المحامي العجوز، وكيف تأثّر بوفاة أبي لدرجة البكاء أثناء دفنه في مدافن الواحة.

"أي واحة؟".

"واحة سيوة".

"سيوة؟!".

"ألا تعرف أن أباك عاش ودُفِن هناك؟ كانت الواحة تسكن روحه، لذا أوصى بدفنه فيها، بعد أن يُغسِّله الشيخ مدني ثلاث مرات من ينبوع جبل الموتى".

لبرهةٍ شعرتُ بأنه يُحدّثني عن شخص آخر، عن وليٍّ من أولياء جدّتي غريبي الأطوار، وأن المقصود بالحصول على التركة ابن غيري، بادر شَعري بالوقوف احترامًا لهذه الخاطرة، ثم عاد لسُباته حين استعدتُ ترابط المعلومات الأخرى؛ زمالة السلاح، اسم أمي، العقود الممهورة باسم أبي.

بكت أمي بعينين مُثقلتَين بالنعاس حين أخبرتُها بسفري بعد ساعات. ساهم ياسر برهافة روحه في تخفيف وطأة الخبر. حدّثها قائلًا: "لن يمر أسبوعان حتى يعود، وعندها سيُمضي معنا ما شئنا من الوقت، بإمكاننا أن نتحفّظ عليه حتى تُعطينا إشارة إطلاق سراحه". كان يخاطبها بلفظة أمي، وبها ترك في نفسها أثرًا أظنه عميقًا، حتى إنها احتضنَته حين أفلتُّ بنعومة من حضنها، فقبَّل رأسها المُطأطئ وحمَل حقيبتيَّ قائلًا إنه سينتظر بالأسفل.

عُدتُ لاحتضان أمي وهمستُ في أذنها: "أتبكين رغم تأكيد المحامي عودتي سريعًا؟"، قالت بين نهنهات البكاء: "لم أشبع منكَ".

ليتني لاطفتُها وطيَّبتُ خاطرها بكلمتَين، لكنني كنتُ مهمومًا بمشاغلي فوق أي اعتبار. راجعتُ أوراقي وجواز سفري، والدوسيه

القديم المدفوس في حقيبة اللابتوب، هبطتُ السلم بينما أُقلّب سريعًا رسائل تايا التي لاحقَتني منذ عصر اليوم.

كان النهار الوليد يحبو نحو السماء، مُمهِّدًا الطريق لصعود الشمس، والهواء مُشبَّعًا بأنفاس مُندّاة، فيما انتظرني ياسر بعينين تُشعّان بياضًا وتفاؤلًا مُريحًا. أوصلني حتى صالة السفر، وأصرَّ أن يحمِل عني أغراضي ويودعها عربة الحقائب.

"لو لنا عُمْر، ستجدني في انتظارِكَ حين تعود، وسأكون ممتنًّا لو أخبرتَني بمستجدات الكويت، والنمسا أيضًا. هل سجّلت هاتفي؟".

"نعم فعلت". صافحتُه ضاغطًا يده السمراء العريضة، وقلت: "أرهقتكَ كثيرًا هذه الليلة.. لولاكَ ما مرَّت أبدًا".

"لا تقُل ذلك، حسبي أن تعرّفتُ إليك".

تردّدتُ لبرهة قبل أن أُكمل: "دعني أسألكَ كصديق، بعيدًا عن كونكَ ممثلاً قانونيًّا عن الوالد رحمه الله.. ما ظنُّك في الخطة التي ألزمني بها قبل حصولي على الميراث؟".

قال بابتسامة وضّاءة: "صدِّقني، لا أملكُ إجابة عن هذا السؤال، وإن كنتُ أميل للاعتقاد بأن أبًا كأبيكَ لن يُريد لوحيده مشقَّةً دون طائل".

"ربما لأنك لم تسمع بطبيعة علاقتنا".

"كل شيء جائز".

كانت أمامي رحلة طويلة ومرهقة، أتبيّن خلالها صحة اعتقاده. تذكّرتُ ساندي أثناء وقوفي في طابور الجوازات، استعدتُ طريقتها الوقحة في الحديث إليّ.. تساءلتُ إن كنت سأُقدِم على عقابها لو حانت اللحظة. فوجدتُ الأمر مُستبعدًا، وارتحتُ نسبيًّا لقناعة ياسر.

8

مـن بين ما أذكر عن أبي تبرز دائمًا فتـرة وحيدة، أقام خلالها طويلًا في بيت هليوبولس، والتي تزامنَت مع غزو العراق للكويت.

كنـتُ فـي الحادية عشـرة، وكنتُ قد دخلـتُ في طَور التمـرُّد تجاه أمـي، وجدّتي باعتبارهـا أصل الصورة، فيما توصّلـتُ مع خالي لحالة من التجاهـل المتبادَل. كوَّنتُ عبر السـنوات فكرتي الخاصة عما آلَت إليه علاقة أبويّ، وصرتُ أميل لكفَّة أبي على حسـاب أمي، مُستشـهِدًا بإصراره على اسـتمرار الـزواج، وداعمًا قناعتي الناشـئة بما يُقدِّمه أبي مـن مبـادرات كريمـة كلمـا زار مصر؛ ملابـس لأمي، أقمشـة لجدّتي، جلابيـب لخالـي، وكل ما يحلم به طفـل في عمري. أذكـر مثلًا أحذية النايكي الفاتنة التي كنت أُباهي بها أصحابي، وأكثرهم ينتعل الكوتشي والجازيلّا المحليَّين. أذكر كذلك جهاز الووكمان الأحمر الذي تفرّدتُ به، وكنتُ أُعيره لأصحابي بنظام صارم. من بين هداياه أيضًا كان مُجسَّما بحجم الذراع لروكي، مُقاتل الكوماندوز مفتول العضلات ذي العصابة الحمراء، التي يلمُّ بها شَعره المرسَل. سألتُ أبي حين أهدانيهِ أن يخلع ملابسـه كي أقارن جسـمَيهما، فقـال إن السـينما تُبالغ كثيرًا فـي الهيئة

المفترضة لمُقاتلي الصاعقة. أصررتُ على طلبي، فاكتفى بتشمير كمِّه القصير وإبراز عضلتَي ذراعه المنتفختَين. أدهشتني صلابتهما، وارتفع لديّ أبي لمصاف الأبطال الخارقين. صرتُ أتخيّل مُجسّمًا صغيرًا لأبي، يُحارب أبطالًا مثل روكي وهولك هوجان، ويتغلّب عليهم.

في تلك الفترة، ترسّخَت لديّ صورةٌ مثالية لأبي، صرتُ أُبادر بالدفاع عنه على استحياء كلما سنحَت فرصة، حتى قفز صدّام قفزتَه الجنونية في الثقب الأسود، ووقَع الغزو العراقيُّ للكويت. هاتفَنا أبي في اليوم الثالث للغزو، طمأننا على عبوره حدود الأردن، واحتمالية وصوله لمصر خلال أيام، لكنه اختفى بعد ذلك لمدة طويلة مكثتُ خلالها أنتظر وصوله بفراغ صبر، أسأل أمي عن أخباره كل يوم، فتُبدي عدم اكتراث مُصطنعًا، بينما تظهر في انفعالاتها معالم القلق. أمضيتُ الأيام مع الأخيلة؛ أبي يُقاتل أشرارًا كثيرين في طريقه إلينا، يُعالج جوعه بنَهش أرانب برية، ويهزم عطشه في قيظ أغسطس بامتصاص نبات صحراوي. كنتُ أتحرَّق شوقًا لمجيئه مُحمَّلًا بقصصٍ حقيقية وصعبة التصديق، أنوي قَصَّها على زملاء الفصل مع بدء الدراسة.

ازداد محيطي توتُّرًا مع طول انتظاره. بدأَت أمي تُعرِب صراحةً عن قلقها إزاء اختفائه. حتى جدّتي، التي لم تُضمِر لأبي حبًّا قط، صارت تُتابع أسماء المصريين الواصلين من الكويت، في قوائم تنشرها جريدة الأهرام كل يوم. سألتُها ذات مرة إن كانت حقًّا ترغب في عودته، حدجَتني باستنكار وقالت: "طبعًا يا هاني، أليس أبا حفيدي!".

انتقل التوتُّر إليّ، وتحوّل أبي في أخيلتي الصامتة لأسير، مُكبَّلٍ بالحبال، مُحاطٍ بجنود مُلثّمين يُصوّبون بنادقهم نحو رأسه. حين وصل أبي، أدركتُ أن خيالي لم يُحلِّق بعيدًا. هاتفَنا فجرًا من نويبع، قال إنه يحتاج لتعبئة السيارة بالوقود قبل أن يُواصل طريقه للقاهرة، في مساء نفس اليوم دخل علينا، هزيلًا، مُنتَّن الثياب والرائحة، لا يستطيع حَمل رأسه. منعَتني أمي من مُجالسته بحجّة إرهاقه. استمر الحال خمسة أيام أخرى، أبي يحبس نفسه في غرفة خالي القِبلية، ولا يبرحها إلا لدخول الحمّام. صبرْت، آمِلًا أن يستفيق سريعًا، وكان شوقي لسماع القصص قد تراجعَ مع الوقت. تركَّز الأمل الباقي في التأكد من احتفاظه ببعض قوَّته.

ما هي إلا أيام حتى تحوّل الأمل لكابوس كامل المعالم، فقد سكن البيتَ الهادئ عملاقٌ غاضب، مُحتقن الوجه، يمضي أكثر الوقت في شُرفة جانبية مُلحقة بغرفة خالي تُستَخدم في نشر الغسيل، ينفث الدخان ويُرسل الشرر صوب المجهول. يغيب بين الحين والآخر لقضاء مشاوير، فيرجع حاملًا غبار المعارك ومزقات الثياب، ويعود لمحبسه. أحيانًا يُلح خالي في سؤاله عما اعتراه، وأسمع شذرات من الحديث من خلف الباب؛ سيارة أبي تحمل لوحات "الكويت" المعدنية، تستقطب المضايقات في الشوارع، سائقو الميكروباص يُضيِّقون عليه، بعضهم يتعمَّد إيذاءه بكَسر فانوس أو تهشيم مرآة، ينادونه "يا كويتي"، "أنا في وادي يا ربي وولادي في وادي"، يلومونه على العودة، "هي

ناقصاكم!". كأنه جاء ليقاسمهم الرزق ويُزاحمهم وحدَه في الطرقات. جمارك السيارات ترفض تسليمه لوحات "جمرك نويبع"، حتى يُبَتّ في استثناء العائدين من سداد القيمة الكاملة. حتى الشؤون المعنوية في القوات المسلحة، تبطئ في منحه بطاقة المحاربين القدماء، والسفارة الكويتية لا تفيده بمعلومة عن أخيه.. مشاكل لا تنتهي، لا أعي منها إلا غضبه الكامن كشحنة لغم.

صرتُ أخشى اقترابه. مقتُّ وجودَه، أُشفِق على خالي المضطر لمجالسته والتهوين عليه، والاعتذار نيابةً عنه للجيران والمعارف ممن يُصيبهم رذاذ غضبه. صارت الأمور من سيئ لأسوأ، صارَت أمي تبرطم: "ليته ضفّني". "ليته بقي هناك مع غواني الفنادق"، فأزداد توجّسًا. وجدتُ ملهاتي حين بدأ العام الدراسيّ، لكن محيطي ظلَّ يغلي ببطء تحت غطاء الصبر. تمادى أبي في غضبته. تشاجر يومًا مع ساعي البريد، اتهمه على مسمع من الجيران بمنع الخطابات عمَّن لا يدفع "الشاي". تعارك بعدها مع صاحب البيت، حين قدِم يومًا لتحصيل الإيجار أثناء غياب أمي وجدّتي، فأخبرتُه بوجود أبي، فقال إنه سيعود في وقت لاحق. اشتاط أبي حين علِم بالأمر، صعد إلى الرجل في الدور العلوي، رأيته من بسطة السلم يُمسِك بخناقه ويقول: "تُراني لا أملأ عينك!". بينما يُقلِّص صاحب البيت رقبته كما السلحفاة، محاولًا الإفلات من ذراعه الحديدية. استاءت جدّتي كثيرًا حين علمت بما صار، لكنها كتمت غيظها تفاديًا لتفاقم الأزمة، ولم تكن تتوقع الطامة الكبرى التي ستقع بعد أسابيع.

ذات يـوم خريفـيّ، كنتُ عائدًا من المدرسـة. دلفتُ لمدخل البيت المغموس في الظلمة، شـعرتُ بوجودٍ دافئ يغمرني من الخلف، ذراع تلتـفُّ حول رقبتي، صوت يهمس في أذني: "أنت جدع ولا خوّاف؟"، ارتعدتُ خوفًا، شـككتُ في قدرتـي على التكلُّم، حاولتُ التملُّص من الـذراع الـمُحكَمـة، صـار العرق يتفصّـد لا أعرف من أيـن، ثم خفّت قبضتـه تدريجيًّا، حتـى أفلتني.. كان جارَنا غريب الأطوار السـاكن في الدور الأرضي، لا يبرح شـرفته الأرضيـة إلا للنوم، لا يُحدّث أحدًا إلا بغمغمـات مُقتضبة، أُحيّيه بابتسـامةٍ فيردُّ بأوسـع منها، ثـم يَذهل بعيدًا ويعود لشروده. دخلتُ الشقة، كان أبي خارجًا لتوِّه من الحمام، لاحظ تعرُّقي واضطراب حالي، سـألني: "مالـك؟"، تلعثمتُ في الردّ، فهِم ما جعلـهُ يعدو نحـو المطبخ، ويصنع جلبة اسـتدعَت خالـي وجدّتي، ثم إذا بـه يمرق قابضًا على السـكين الكبيرة، صرخَـت جدّتي ولحقَت به، فيما فزِع خالي وضمّني بيده الممسكة بمسبحةٍ مُعطَّرة بمسك الأولياء، وشرع يتلو أذكاره.

حال صـراخ جدّتي دون قتل الرجل، لكنهـا تحوَّلت لمارد حقيقي فاق أبي جبروتًا.. لم تسمح ببقائه ليلةً أخرى، صمَّت أذنَيها عن بكائي، عن توسُّـلات أمـي وحجج خالـي، "إما أنـا وإما هو"، صـارت تقول، فكانـت هـي، بينما رحل هو إلى الإسـكندرية. لم نتبـادل أنا وأمي غير النظرات طيلة عام، لا كلمة واحدة بخصوصه، حتى علمنا برجوعه إلى الكويـت مع انتهاء الحـرب. أذاع خالي خبره على طاولـة الطعام، فلم يتجاسر أي منا على التعليق.

9

الكويت.. تبدو كأقرب بقاع الأرض إلى الشمس. مطارها ثلاجةٌ هائلة يحيطُها موقِدٌ مُضرَم النيران. لفحَني هواؤها المُفعَم بالهيدروجين المُشتعِل، حتى خشيتُ أن تنضبَ سوائل وجهي ويتساقط جلدي، ورغم احتِجاب الشمس خلف غلالةٍ كثيفةٍ من الغبار الأصفر، شعرتُ بها تتعلَّق فوق رؤوس البشر، تنفث الغضب وتُفوِّر الدماء.

كان في استقبالي سائق هنديّ، يرفع لافتةً بيضاء طُبِع عليها بحبر داكن: هاني رأفت عبد الصمد. دنوتُ منه، نظر في هاتفه، ثم منحني هزَّة الرأس الهنديَّة الودود، التي تشي بالرفض والقبول على السواء. تبِعتُه لخارج المطار، فداهمَتني غضبةُ السماء تلك. كان طقسًا عدائيًّا يليقُ باستقبال إبليس في العالم الآخر. تناول السائق حقيبتيَّ وفتح باب سيارة كابريس بيضاء، سرعان ما استفاق مُكيِّفها وراح يبُخُّ الهواء البارد في وجهي. أشرتُ نحو الصَّفار المُغلِّف للسماء باستغراب، فقال بكلمات قليلة وبكثير من الإيماءات: "طوز، هذا موسم الطوز".

منعَني الطوز من رؤية المدينة الجميلة على حقيقتها لمدة يومين؛ طُرقها الفسيحة اللامعة، أعلامها المُرفرِفة في كل مكان، بناياتها الحديثة البرّاقة، أبراجها المغروزة في لحم السماء تُعانِد الذوَبان.

عايَنتُ كل ذلك لاحقًا، والتقطتُ صورًا كثيرة راسلتُ بها تايا. كانت قد أبدَت غضبَها من تجاهلي. حاولتُ استرضاءها بشرح الظروف، وكنتُ أعلم يقينًا عدم استعدادها لتفهُّم أي شيء، كل ما يشغلها هو إثبات تُهمة الإهمال واللا مبالاة عليّ، تمهيدًا لفَرض خيار الطلاق ومُشاطرتي مالي، خاصة وقد وقعتُ في خطأ لا يُغتفر في آخر زيارة لمستشار الشؤون الزوجية، حين استفزّني قولها بأني تزوّجتها لمجرد التعجيل بحصولي على الجنسية الأميركية، كأنما منحَتني ميزةً لم أكن لأحصل عليها في جميع الأحوال، ولشدة غيظي أبديتُ استعدادًا لمناقشة فرضيّة الطلاق. لامَني أصدقائي فيما بعد، قالوا إن الصواب أن أبدي تمسُّكًا قطعيًّا بالاستمرار معها أيًّا ما كان شعوري، فتتحمَّل هي الجزء الأكبر من مسؤولية القرار. لن يُجدي الندم الآن، ولن يُجبرني أحدٌ على الطلاق في لحظة غير مُواتية، فأجدُني بلا غطاء مالي ألتحِف به، لذلك تعمّدتُ الاحتفاظ بالرسائل والمُحادثات، وواظبتُ خلالها على إبداء الاهتمام بشؤونها، دعمًا لموقفي حين تتعقَّد الأمور.

أما عن لقاء المحامي الكويتي، فقد كان في مبنى إداري باهر الفخامة، يطُل بزاوية على الخليج المبسوط كصحراء زرقاء. رجل لا يتجاوز الخمسين بكثير، غشيني عطره الرائق وأناقته الأصيلة، رغم اندهاشي من ارتدائه الجلباب وغطاء الرأس في مكان عمله. استقبلني بحفاوة ملموسة، وحين لاحظ صعوبة فهمي لنصف كلامه، شرع يُدرِج كلمات مصرية قدر إمكانه. من حديثه نلتُ جرعة أمل ضرورية عند هذه النقطة. الرصيد المودع يستأهل المعاناة، والعَقد المطبوع

على ورقٍ مصقول فاتح للشهية، ليس فيه إلا التزامٌ وحيد؛ استئجار مُلحَق (قال المحامي إن المفردة تعني منزلًا شعبيًّا له حوش داخلي) لا تقل مساحته عن مائة متر، لصالح شخص هنديٍّ يُدعى كريشنا، طيلة أمد بقائه على قيد الحياة.

وعد المحامي بمساعدتي على التوصُّل للشخص المذكور، وإنهاء الالتزام المطلوب على وجه السرعة، فالسفارة الهندية تُعمِل إجراءات مُنظَّمة لحد بعيد، وباتصالاته سيُتيح لي إنجاز المهمة خلال أسبوع. سألتُه: "من الشخص؟"، فقال: "أحد معارف أبيك القدامى".

"ولماذا لم يقُم بنفسه باستئجار المنزل لصديقه؟".

"ترك الوالد العزيز الكويت منذ ما يقرب من عشرين سنة.. وحين هاتفني وحدّثني في أمر الوصية كان رجلًا مُسنًّا، ومن غير اللائق أن أطرح عليه سؤالًا كهذا".

"نعم، معكَ حق".

صرَف المحامي سائقه الهندي، ودعاني لعشاء بارع في مطعم دوّار في الأبراج الضخمة ظريفة الشكل، له إطلالةٌ هي الأجمل على المدينة المضيئة، لم يعُقها تمامًا هذا الصفار المُغلِّف للكون، فقد راح ينقشع مع دخول الليل. سألني بعدها إن كنتُ أرغب في قضاء السهرة مع جمع من الأصدقاء في ديوانيّته. لأول وهلة ظننتُ الرجل يملِك مقهًى ما، أو ملهًى ليليًّا، حتى عاينتُ الديوانيّة في اليوم التالي

حيـن اصطحبنـي لبيته. أمـا في الليلـة الأولى، فقد اعتـذرتُ بحاجتي للنـوم. أوصلني لفندق إقامتي، وقام بنفسـه بإنهـاء الإجراءات مع فتاة الاستقبال الشامية ذات البسمة المُشرقة، التي دعوتُها للعشاء فيما بعد. بينما تجمَع البيانات وتُجيب المكالمات وتُجري مسـحًا ضوئيًّا لجواز سـفري، راقبـتُ ماسـةً صغيرة تتـلألأ فوق رباعيَّـة من صف أسـنانها البيضاء اللامعة، فكانت أكثر ما أدهشني فيها.

قبل مغادرته، أوصاني المحامي بالاستمتاع بإقامتي قدر ما أشتهي، مُشيرًا الكوني ضيفَه طوال فترة إقامتي، حاولتُ التملُّص من هذا الحرج، لكنـه بلباقة وابتسـامة مُشـرَعة باسـتمرار نقل الحديـث لمجرى آخر. ناولنـي هاتفًـا بخط اتصال محلـي، وطلب إلـيّ أن أُهاتفه متى أحصل على الراحة الكافية، حتى نشـرع سويًّا في إنفاذ التزامي التعاقديّ، كما سـلَّمني الملف الذي حمله من حقيبة السـيارة، ومنه اسـتخرج أوراق الحجز في غرفة الفندق.

"هـذا الملـف يخـصُّ والـدكَ؛ قـد يهمُّـكَ الاطـلاع عليـه حيـن ترتاح".

شـكرته فيما أُرافقه حتى باب الفندق، ثم مررتُ بعيني سـريعًا عبر أوراق الملـف؛ كانت كثيرةً ومُتنوِّعة. عدتُ لفتاة الاسـتقبال الجميلة، تعمَّـدتُ الانتظار أطـول وقتٍ ممكن، لكي ألمح ماسـتها البراقة كلما ابتسـمَت أو نطقَت ياءً شـاميَّة ممطوطة. قلت حين صرتُ وحيدًا أمام الكاونتـر: "أحتاج لمتابعـة قناة إخبارية على شـبكة ABC الأميركية"،

فتحت كُتيّبًا مطبوعًا وقالت: "هذه قائمة القنوات الإخبارية التي ستجدها في تلفزيون الغرفة".

"عذرًا، أحتاج لقناة WFTV 9 بعينها، لي صديقة تعمل مراسلة في القناة، أرغب في مُتابعة تغطياتها".

طالعَت لبرهةٍ شاشة الكمبيوتر، ثم قالت: "ستحتاج لتقديم طلب مكتوب، سيُنظر خلال يوم عمل واحد. الأسهل أن تُشاهِد البث المباشر عبر الإنترنت على تلفزيون الغرفة، هل يفي هذا بالغرض؟"، سارعتُ بالقول: "نعم، فكرة عظيمة".

منحَتني ابتسامة سخيَّة، وسألَت باهتمام: "أتحتاج خدمة الغرف لضبط التلفاز على استقبال الإنترنت؟"، فسارعتُ لنَفي تُهمة التخلُّف: "لا، لا أحتاج بالمرة"، فقالت مُستعينة ببريق الماسة: "على الرحب والسعة".

تلكَّأتُ في الذهاب، وقلت: "هذه الماسة الرائعة، أفقدَتني التركيز في أبسط الحلول"، مرَّت برهةٌ قبل أن تنتبه لما أُشير إليه، أشرقَت بابتسامة أجمل من سابقيها، وقالت: "هذا لطفٌ منك".

مضيتُ نحو الغرفة مُحمّلاً بفائض بهجة جاوَز الحد الآمن. عاودَتني ذكرى تايا، ونيَّتها التكسُّب من وراء طلاقنا بأية طريقة، كما مرَّ بخاطري بكاء أمي وشعورها بالخذلان حين غادرتُها، فخشيتُ من تَطايُر البهجة وقلتُ لنفسي: لن تستجيبَ لقلقكَ هذه المرة، فالكويت تعدُكَ بالسعادة مع كل خطوة.

10

وضعتُ الملـف تحت مصباح المكتب حيـث تركتُه مُضاءً في ركـن الغرفة، وانشـغلتُ بضبط التلفاز لاسـتقبال الإنترنـت، وتصفُّح قوائـم الطعام المتنوعة في حافظة جلدية أنيقة عليها شـعار الفندق، ثم ارتميتُ على السـرير البارد مُنتظِرًا تقارير أورلاندو الصباحية، أو غلَبة النوم، أيهما أقرب. تعلَّقَت فوقي صورة الفتاة الشامية، أهدَتني ابتسامةً بنكهة الماس، وأغمضَت عينيها ببطءٍ لتُساعدني على استدعاء النوم.. انتبهتُ على موسـيقى النشـرة الصباحية، وكان زميلًا لتايا من أطلَّ من الشاشة في أول تقرير، ضغطتُ زرَّ كتم الصوت وتمدَّدتُ من جديد.

كان بياضُ الملف يعكس ضوء المصباح في اتجاهي، فيُعيقني عن الولوج في هَدأة النعاس، قمتُ لأُطفئ المصباح، لامستُ قاعدتَه فانطفأ، ثم عاودتُ لمسَهُ فأضاء من جديد، وأعاد رسمَ بُقعة ضوء ناعمة حول الملف. انطبعَت بُقعة الضوء على صفحة ذهني، يتوسَّطها عنوان أثار دهشتي: معالي السفير/ رأفت عبد الصمد.. سفير؟! عجِبتُ كيف لم تستوقني الكلمة من قبل؛ لا حين استلمتُ الملف من المحامي، ولا حين تصفّحتُه بعجالة قبل قليل. الآن تستوقفني، تسحب لي كرسيَّ المكتب وتدعوني للجلوس.

عدتُ لتصفُّح المستندات الموضوعة بعشوائية بداخل الملف؛ خطابات، قصاصات جرائد، مراسلات إلكترونية، عقود إيجار، بيانات بنكية، صور فوتوغرافية.. تعذّر عليّ نظمُها في سياق مفهوم. ثمة رابط وحيد فيما بينها هو نفسه عنوان الملف؛ أبي، فهو إما مُوقِّع على المراسلات، أو المُرسَل إليه، أو ضيف الحوار الصحفي، أو بطل الصور الفوتوغرافية التي تمتدُّ منذ بداية الثمانينيات وحتى نهاية التسعينيات، تبدَّل خلالها أبي عبر محطات مُنتظِمة، لاحظتُها حين أعدتُ ترتيب الصور تبعًا لتواريخها المطبوعة في الركن الأسفل بخط رقميّ. من بينها صورٌ لأبي يتوسّط جموعًا من الخليجيين والأجانب، عليهم سمات أبّهة ورقي تفوح منهما روائح العطور، يلتقطون صورًا رسمية في قاعات وأبهاء شديدة الفخامة. ظهر أبي في صور عديدة يرتدي ملابس احتفالية تُشبه أزياء الأساتذة الجامعيين، ويتسلَّم دروعًا وشهادات تقدير من أجانب وعرب. في صور أخرى، كان يجلس بين أطفال يرتدون زيًّا أصفر موحَّدًا، ويرفعون لافتاتٍ تحمل صور رجال خليجيين، وأعلامًا صغيرة للكويت. كلما تصفَّحتُ عددًا من الصور، بدا أبي شخصًا جديدًا لا أعرفه.

أما الخطابات والمراسلات، فلدهشتي كان عدد كبير منها يخصُّني أنا، والبعض مراسلات من أبي لصديقه المحامي الكويتي، يشكو لا مبالاتي بالرد على رسائله. تسمَّرتُ أمام خطابٍ من المحامي ينصحُ فيه أبي بالتوقف عن سداد مصروفاتي، بتاريخ سنَتي الدراسية

الثانيـة في جامعة أيووا. كانت بعـض الكلمات والعبارات مظلَّلةً بلون وردي فوسـفوري: توقَّف، نصحتُكَ عدة مـرات، لن يُذكِّره بكَ أفضل من الديون.. بحثتُ عن رد أبي في الأوراق التالية، فلم أهتدِ إليه، ربما بسـبب انفعالـي. أيكتبُ رجل لطيف كالمحامـي خطابًا بهذه اللهجة؟ وعمَّن، عني أنا؟!

حاولتُ اسـترجاع تلك الفتـرة الغائمة وأحداثها. كنتُ قد حصلتُ على منحةٍ من جامعة أيووا لاستكمال دراستي العليا، بعد تخرجي في الجامعة الأميركية في القاهرة، أذكر أني مُنِحتها بتوصية صديقٍ لأبي، أو فقط لارتفاع درجاتي لا يمكنني التحديد، لكنها كانت الفترة الأسوأ في علاقتي بأبي؛ هذا أكيد. كنتُ أرغب بشـدة في السفر لأميركا، وطلبتُ منـه دعم قراري، فقد كانت أمي تُصِرُّ على اسـتكمالي الماجسـتير في القاهرة، فما كان منه إلا أن عضَّض موقفَها وقال إنه أيضًا يُفضِّل بقائي بجانبهـا.. كـم كان أنانيًّا لا يتورَّع عـن التلذُّذ بحياته كيفما يشـاء، فيما يُلقـي بالتبِعـات علينا بأريحيـة تامة. هاتفتُ ابنة عمـي، وكانت تقضي أولى سـنواتها في مصر بعد التحاقها بجامعة الإسكندرية، طلبتُ إليها أن تُحدّث أباها، فكنتُ أعرف أنه الشـخص الأكثر تأثيرًا على أبي، لم تُخـفِ فرحتَها باتصالي، وقالـت إنها ترغب في زيـارة القاهرة لابتياع ملابس جديدة، فقد مرَّ عام منذ قدومها من الكويت لم تشـترِ فيه قطعة واحـدة. رحّبـتُ باسـتقبالها وأخبرتُ أمـي، هاجَت وماجَـت وقالت إنهـا لن تسـمح بمد حبال الـود مُجددًا مـع "العائلة الجريمـة" (هكذا

كانت تُسمّيهم في لحظات الغضب). قمتُ وحدي باستقبالها، ومن خلالها حصلتُ على التأييد الكامل من عمي، فأبي، فموافقة أمي نهاية المطاف، حين أقنعتُها بأنها فرصتي الأخيرة لتحصيل حقّي في مال أبي، فإن اكتفيتُ بتعييني مُعيدًا في الجامعة وإتمام الماجستير بجانبها، سيتوقّف مداد المال إلى الأبد، وختمتُ حديثي بكارثة كبرى وقعتُ على خبَرها خلال حديثي مع ابنة عمي؛ قلت: "خاصة أنه سيتزوَّج".

أخبرتُ أمي بزواج أبي من سيدة نمساوية، وأنه سيُسافر معها لأوروبا. كنتُ أرغب في تخويفها بشأني، لا أن يُصيبها الذعر الذي رأيته يُحيل ملامحَها لهيئة الصدمة. تعاطفتُ معها لحد الشعور بالذنب. كم أهانَتها نيّة أبي في الزواج من غيرها، كانت أنوثتها مصانةً في عزوبته، رجل خائن كأكثر الرجال، هذا مفهوم، أما أن يختار عليها امرأة أخرى، أن يستبدل بها زوجًا يُقدّمها للناس، يُنادونها باسمه المنقوش على خاتمها، يتذكّر يوم زفافها إليه ويُسمّيه عيدًا.. فهذا شأن آخر. استوعبتُ ذلك لاحقًا، من صدمتها وسرَحانها الممتد لأيام. لم تُعلِّق، لم تستفسر، لم تُفصِح عما قرأتُه بحدسي من أسئلة دارت بخُلدها، انتفشَت في صدرها، ساورَتها فوق الفراش وأمام المرآة، وأثناء تقطيعها الخضروات، لمحتُ إصبعها ملفوفًا بشاشٍ أبيض عدّة مرات، وشعرها يستسلم لسطوة الفضة البيضاء بالتدريج.

كرهتُ أبي، أن جعلني أفعل ذلك بأمي، أمعنتُ في كُرهه ولم أعُد أشعر حيال كراهيتي بنَخْس الذنب، صار مُستحِقًّا لحقدي،

ما عاد بمقدوره شراء عفوي مهما بذل. كل شيء يُمكن التسامح فيه، إلا أمي.. صرتُ لا أفتح رسائله الإلكترونية التي تأتيني من حين لآخر، وحين سافرتُ لأميركا صنعتُ حسابًا إلكترونيًّا جديدًا وبعثتُ به لأمي وأصدقائي، أولئك الذين يُهمُّني استمرار التواصل معهم. أضفتُ بريد أبي ورقم حسابه والفيزا التي يستخدمها، لقائمة المراسلات الخاصة بمصروفاتي الجامعية فحسب، فصارَت إدارة الجامعة تتعامل معه مباشرةً، وارتكنتُ مُرتاحًا لقسوة قطيعتي له.

أغلقتُ الملف، وقد صرتُ مُوقنًا بأن وراء العشوائية التي تبدو في أوراقه عقلًا مُدبرًا، يعرف جيدًا ما يريد إبلاغه عبر هذه الحيلة. فكّرتُ أن أتصل بالمحامي، ثم انتبهتُ لتأخر الوقت، فأرجأتُ الاتصال حتى الصباح. لكن الصباح تأخّر بشدة، واستعصى النوم عليّ حتى ظننتُه محالًا، وابتعدَت صورة الفتاة الشامية التي أمُلتُ أن تؤنس وحدتي، حتى استحالَت ذكرى باهتةً لا تعِد بشيء.

11

لم أنَم بعمق. ظلَّت خواطري تُناوشني لساعات، كلما استكنتُ للنعاس جذبَت أذني، وألقمَتها سؤالًا بلا إجابة، أو بعثرَت أمام عينيَّ صورًا لأبي في ملابس غريبة، يلتفُّ حوله أشخاص مهِمّون، مسرورون لمجرد الظهور معه.

مع سطوع الشمس، خاب أملي في العودة للنوم. أزحتُ الستائر وأطلَلتُ على الشارع من خلف الزجاج؛ ميدان كبير، تصطفُّ من حوله المحلات خلف أرصفةٍ عريضة، قلَّة من البشر هم من أقدموا على المشي تحت الشمس الحارقة، كلما عبروا شارعًا فرعيًّا توقَّفَت السيارات وسمحَت لهم بالعبور، كأنما لتُبجِّل تحدّيهم لسطوة الشمس. هاتفتُ المحامي، وحين طال الرنين تردَّدتُ، إذ ربما يكون الوقت مبكِّرًا أكثر من اللازم، لكنه ردَّ أخيرًا بصوتٍ مُفعم بالحفاوة كما سمعتُه بالأمس.. مهلًا سيدي المحامي، ثمة تناقض هنا؛ لقد تعمَّدتَ إطلاعي على مراسلاتكَ لأبي، وفيها كنتَ تستعديهِ عليَّ وتُهينني فيما بين السطور! هكذا وددتُ أن أخبره، لكن أدبَهُ الجمَّ منَعني، أو ربما تأرجحي بين السخط والامتنان. قال إنه سيمرُّ عليّ بعد ساعة لنبدأ

مشـوارنا الأول بحثًـا عن كريشـنا؛ الهندي، صديق أبي. شـكرتُه على اقتطاعه الوقت لأجلي، وانتظرتُ حتى أغلق الخط.

فيـمَ أقضي السـاعة التالية؟ فكّـرتُ أن أطلب إفطارًا فـي الغرفة ثم عدلتُ عن الفكرة، فضَّلتُ النزول والسؤال عن الإقامة المحجوزة لي، إذ ربما تشـمل الإفطار، أو الإفطار والعشـاء معًـا. أفرغتُ ربعَ زجاجة عطـر فـوق وجهي وملابسـي، تأمَّلـتُ ذقنـي الحليق وقميصـي الذي تكسَّـرت أطرافه في حقيبة السفر. أردتُ الظهور بهيئة تعكس صورتي الحقيقية. نظرتُ لنفسـي بلَوْم في مرآة الغرفـة، وتنبَّهتُ لحاجتي لكيِّ ملابسي قبل حلول المساء، فقد يُسعدني الحظ بلقاء فتاة الاستقبال.

مضيتُ نحو الكاونتر، واستفسرتُ من شاب ذي ملامح آسيوية عن طبيعة حجـز الغرفة، فإذا بها إقامة كاملة. ذهبتُ مُنتشـيًا نحو المطعم، وعاينتُ البوفيهات المتعـدِّدة التي أحاطَت بطاولات الطعام، انتحيتُ جانبًا بطبق عامر بالخيارات، وكوب من عصير البرتقال جلستُ أحتسيه قبل الشـروع في الأكل. كانت الرسـائل قد أمطرتني منذ الأمس، على الإيميل والواتساب والفايبر والتطبيقات كافَّة، طالعتُها بعجالة أفقدَتني حلاوة العصير، ورددتُ على العديد منها. من بينها رسـالة من ياسـر، معاون المحامي العجوز، يطمئن على الأحوال. رددتُ برسالة صوتية أقول إني بخير، وإني مُستمتع بإقامتي في البلد الصغير، الجميل.

قبل مرور السـاعة، هاتفني المحامي من خارج الفندق. مرقتُ عبر قشـرة اللهب الشفّاف صوب الكابريس البيضاء. "صباح الخير"، قلتُ

بينما أدلف لداخل السيارة، فاستدار المحامي من المقعد الأمامي وقال ببشاشة: "أهلًا أهلًا دكتور هاني". كان لطيفًا كعادته. لاحظ انزعاجي من وهج الشمس فناولني نظارة شمسية، وسألني إن كنتُ مرتاحًا في إقامتي، أبديتُ امتناني لاهتمامه. تهيّأتُ لسؤاله عن الملف، لكني تحرّجتُ من بدء الحديث من هذه النقطة. سألتُ عن وجهتنا، فقال: "إلى السفارة الهندية، فهذه أفضل نقطة انطلاق نحو غايتنا". حملقتُ الكابريس كما سحابةٍ بيضاء بمحاذاة الشاطئ؛ خليج دكن الزرقة، أمواجه تضرب بكسلٍ كتلًا خرسانية، فيما تطلُّ عليه مبانٍ أنيقة حديثة الطراز. حين طال أمدُ الصمت قلت: "الكويت بلد جميل". استدار نحوي قائلًا: "هذا الإعجاب موروث؛ لقد أحبَّ والدكَ الكويت كوطن ثانٍ"، فقلتُ ممازحًا: "أظنهُ استبدل الثاني بالأول، فقد شهدته في مصر لعدة أشهر فقط، كان خلالها لا يُطيق البقاء ليوم واحد".

"أراكَ تقصد سنة الغزو؟".

"هي بعَينها".

"أمامكَ الكثير لكي تطَّلع عليه يا دكتور".

"لهذا أعطيتَني الملف؟".

"ليس إلا فاتحًا للشهية، البقية ستأتي تِباعًا".

مضيتُ بجواره كطفلٍ يخاف الابتعاد عن ظلِّ أبيه. طلبَ جواز سفري قبل عبورنا لداخل السفارة، وظلَّ يحمله طوال اليوم، كأن عليَّ

أن أفقد ذاتيَّتي في وجوده؛ شعورٌ لم يُرِحني تمامًا، لكنني رغم ذلك شعرتُ باطمئنانٍ عميق، فقد كان يشقُّ طريقه بين الحشود الهندية بثقة وتمرُّس. كلما غادرْنا موظفًا، كان يتوقَّف ليشرح لي ما توصَّل إليه. أدهشني حين تحدَّث لأحدهم بعبارات هندية، فانشرح وجه الموظَّف بعدما كان مُتجهِّمًا. أخبرني أن عثورنا على كريشنا لن يكون يسيرًا، فأسهل طرق البحث في البيانات يكون عَبر التأشيرات وتصاريح العمل وجوازات السفر. كريشنا هذا لم يُسافر قط، لم يستخرج تصريحًا ولم يُجدِّد جوازًا، ولم ينتقل من وإلى الكويت أبدًا. سألتُه إن كان مُحتمَلًا أن يكون حاملًا لجنسية أخرى، فقال: "لا، بل إنه هنديٌّ صِرف، قابلتُه عدّة مرات منذ زمن بعيد، لكنني لم أتصوَّر أبدًا ألا يكون قد غادر الكويت ولو لمرة".

"أليس لديهم طرق أخرى للوصول إليه؟".

"جرَّبنا أغلبها.. بقيت طريقة واحدة نصحَني بها الموظف الأخير؛ أن نُراجع كشوف صندوق إعانة الجالية الهندية، إذ ربما نعثر على اسمه الثلاثيِّ بين قوائمها، فيسهُل التوصُّل لعنوانه".

عدنا لمكتب المعلومات في الطابق الأرضي. طلب المحامي عنوان صندوق الإعانة هذا، ثم قال إنه في منطقة بعيدةٍ ومُزدحمة، والدَوام الصباحي ينتهي في الثانية عشرة، لذا فالأفضل أن نتوجَّه إليه فورًا. استغرقَنا الطريقُ نحو ساعة، انتقل خلالها المحامي للجلوس

بجواري في المقعد الخلفي، وأخذ يحكي خلفية تعرّفه بأبي.. كيف التقاهُ للمرة الأولى سنة 1992، بعد تحرير الكويت بنحو عام، حين قصَدهُ أبي لكي يستشيره في تسجيل شعار يخص حملةً إعلامية سيتفرّغ لإدارتها، كان عازفًا عن العودة لعمله السابق قبل مغادرة الكويت، وكان مدعومًا بشكل لا محدود من حكومة البلاد، وكذلك من شيوخ مُهمّين. ساعدهُ المحامي في تأسيس الكيان الجديد، وشهِد نجاحه في إحداث طفرة حقيقية في مجال التسويق. "التسويق؟!"، لفظتُ باستغراب مجالي الذي أعمل فيه، فقال المحامي: "نعم، ليس تسويقًا بالمفهوم المعتاد، بل تسويق في مجال أوسع من ذلك؛ تسويق الأفكار، لا السلع". ربما ظل اندهاشي باديًا على وجهي، فابتسم المحامي وقال بغبطة إن الوقت لا يزال أمامي كي أعرف الكثير.

12

قديمًا سألتُ أمي عن مهنة أبي، وكان أولَ سؤال أُسألُه حين ألتقي شخصًا جديدًا: ماذا يعمل والدُك؟ قالَت إنه يعمل مديرًا لأمن الفنادق في دولة الكويت. حكَت لي كيف استقال من الجيش بعد زواجهما السريع إثر اللقاء الأول، مُتأثرًا بنزعَتها الثورية وعدم رضاهما عن التحوُّل السياسي الذي شهدته البلاد؛ السلام مع إسرائيل، الانفتاح الاقتصادي، الالتفات صوب المعسكر الغربيّ.. افتَتح مع أصدقائه بوتيك للملابس الجاهزة، وكان المشروعَ الأكثر رواجًا في تلك الآونة. لكنْ سرعان ما حطَّ الخلاف بينه وبينهم حول طبيعة المسؤوليات ونِسب الربح، فأعلن التراجُع عن شراكتهم. حاولوا غَبنَه (تقول أمي)، فمضى يُهدِّد بانتقام عنيف لن يعمل فيه حسابًا لصداقة. ساعدهُ مُحاميه (أظنه نفس العجوز صديق أبي)، في التوصُّل معهم لاتفاق يقلِّص خسارته لحدٍّ معقول.

أُسقِط ساعتها في يد أبي. تأمَّل حالَه وحال البلد، فاضطُر لأخذ عرضِ أخيه مأخذ الجد، وكان قد ألحَّ عليه مرارًا في السفر إلى الكويت. قرّر خوض التجربة، وَعدَ أمي ألا يطول بقاؤهما عن خمس

سنوات، هي كل ما يحتاجه لادّخار ما يعوض خسارته، وما يُمكّنه من بدء مشروع جديد يرتزق منه، فلم يعرف في حياته غير العسكرية وإدارة المنزل. وافقَت أمي على مضض، فيما وقفَت جدّتي حائلًا منيعًا دون استمرار التفكير في السفر. أسرَّ جدّي بتشجيعه لأمي على المُضِيّ مع زوجها حيث تُفتَح له أبواب الرزق، لكنه لم يُبدِ دعمَه علانيةً، فقد كانت جدّتي صاحبةَ الأمر والنهي في بيت هليوبولس.

شهِد خالي المبارزة المصيرية التي دُفِع أبي لخوضها أمام جدّتي. هو من أكمل لي باقي الحكاية، حكى كيف تمادى أبي في رفض الحلول المعروضة عليه من كل الأطراف، لتجاوز ضائقته المالية. كيف رفض بإصرار أي مساعدة من طرف جدّتي. قال إن أمي ظلَّت ممزقةً بين تعلّقها الشديد بأسرتها، وحُبها الذي شارَف حدَّ الهوس بأبي، وإن شقاق المزروع بعمق بين أبي وجدّتي مبعثُه هذه المبارزة.

سفرا نهاية الأمر. سبق أبي مُحمَّلًا بضغط انفراده بقرار السفر، وبمسؤولية إلقائه الأسرة في خليجٍ لا تعرفه. تركَ أمي تُعاني اكتئابًا وتقوم تسمُّم حَملها نتيجة الضغوط. لحقَت به وقد شارفَت الانهيار، فقد رفضَت جدّتي توديعها قبل ذهابها إلى المطار، فقام جدي بتسنيدها حتى بوابة الدخول وأوصاها بنسيان كل شيء، والكفِّ عن البكاء قبل ركوب الطائرة، فهو فأل سيئ.

كان أبي قد أعدّ شقة صغيرة للإقامة؛ غرفة صغيرة، صالة صغيرة، حمّام، وما يشبه المطبخ. وَعدَ أمي بالانتقال لشقة أكبر حين يستتبُّ

الأمر، فقالت إنها لا تُبالي، فالإقامة مؤقتة في جميع الأحوال. كانت تنظر لعبور السنوات الخمس كغاية وحيدة. لم تُصادق أحدًا، لم تألف سوقًا، لم ترغب في تعلُّم القيادة ولا البحث عن وظيفة. حتى مع استقرار الوضع وانتقالنا لشقة أكبر في بناية يعلوها مسبحٌ صغير، لم يطب لها العيش. صارت عداوةٌ بينها وبين الجيران، وعداوةٌ أكبر مع الصحراء.

في طريقنا نحو صندوق الإعانة، شاهدتُ أحياء قديمة لم تمسَّها يد التطوير، فاستوعبتُ مشاعر أمي. بيوتٌ قبيحة تسبح في الرمال، تنتأ من واجهاتها مكيفات قديمة كبثور الوجه، تعلو أسقفها ألواح حديد متعرج. يكبس أنفاسها الصَّهد الشديد، لا أسواق، لا ساحات خضراء، لا رائحة طيور. لا بائع زبادي يمر كل صباح بأوانٍ فخارية تعلوها طبقة القشدة الرقيقة، لا جامع قمامة يُقلِق نومها بعد الفجر، ولا مُهاتفة صبحية مع جدتي تُقرران خلالها ما ستطبخانه لغداء اليوم.

ترقبتُ الفرصة لأحكي تلك الخلفيات لمحامي أبي، أردتُ أن أضعه على الوجه الآخر للحقيقة، ربما أردتُ أن أقول: لستَ وحدكَ من يمسك الحكايات. لستُ الابن العاقَّ الذي رسمته في خيالك. لقد عانيتُ أنا وأمي. اختار أبي مصيرَها بعِناد ثور، استلبها من عُشِّها الآمن، وأسكنها ووليدَها واديًا غير ذي زرع. هكذا كان خالي يُضمِر التشبيه بين طيات الحكاية: أمي هاجر، أبي إبراهيم، وإسماعيل أنا، والبئر بركةٌ عظيمة يجلبها الصبر. رأى خالي في أمي الضعف، فيما رأى في

أبي الطموح، كان يقول إن الضعف والطموح قطبان يتنازعان نفس الإنسان، فتردّ أمي بأن خالي لا يفهم شيئًا عن حقيقة الحياة، لا يدرك بعقله وقراءاته ما تُدركه المرأة من تلقاء نفسها، بغريزتها الفطرية. لم يُدرك خالي، فهل يُدرك المحامي ما لم يشهدهُ إلا من منظار صديقه؟

نالَنا المزيدُ من الإحباط في صندوق الإعانة؛ مبنى صغير لا يعدو بيتًا متوسط الحجم في منطقة الصليبخات، على النقيض من مبنى السفارة الهندية الكبير، المُطِلّ على الخليج. تردَّد الموظفون في استحضار الكشوف، فهمنا أن التردُّد ليس إلا خوفًا من اقتراب نهاية الدوام، وعدناهم أن نُراجِع الكشوف بسرعة. منحونا جهازَي كمبيوتر، فتقاسمنا كشف الأسماء الأولى التي تبدأ بحرف الـ"K"، لم يكُن بإمكاننا أن نعتمد على محرّك البحث في مراجعة قاعدة البيانات، حيث أكَّد المحامي أن كتابة الأسماء بالإنجليزية تحتمل طرقًا متعدِّدة للإملاء؛ لن نكون أبدًا واثقين من استنفاد الطرق المُحتملة. راجعنا كشوف الكاف بأعيننا، ما يتجاوز الأربعين ألف اسمٍ يبدأ بالكاف، أربعون اسمًا هم قوام الصفحة الإلكترونيَّة الواحدة، سيحتاج كل منا أن يُراجِع نحو خمسمائة اسم!

كنتُ أُدقِّق جيدًا في البداية، لا أترك الصفحة إلا وقد وثقتُ من خلوِّها من اسم كريشنا موكيش جاني، لكنني ومع تعاقُب الصفحات فقدتُ حِدَّتي، صارَت عيناي تطفوان فوق السطور دون اصطياد الهدف، ألمحُ المحامي وقد عقَدَ حاجبيْه وشحذ انتباهه، فأزداد

ارتباكًا. أي مأزق؟ لا بد أن يتوه كريشنا بين الآلاف المؤلَّفة! فإذا ما تاه، فكيف نتوصَّل لبيته.

"وجدتُ اثنين مُحتمَليْن حتى الآن: كريشنا موكيش جاني وكريشنا موكيش نوت.. الأول عمره 34 عامًا، الثاني في السبعين. لن أقطَع برأي. سأسجِّل البيانات على كل حال".

لم أقع على اسم أو اثنين كما فعل المحامي، لم يخدمني الحظ، ربما لم يخدمه أيضًا. ذهبنا بحصيلة اسمين فقط، وحصيلة شكٍّ لا بأس بها أرَّقتني طوال اليوم، فقد أكون مررتُ على كريشنا المقصود دون أن ألحظ. لم أُصارح المحامي بما كان يُساورني، فقط شككتُ في قدرتي على التوصُّل لهذا المخلوق العجيب، كريشنا، الذي لا يحفَل سوانا بوجوده في عالمنا المتخم بالبشر. كنتُ قد أُرهقتُ كثيرًا، فاعتذرتُ عن دعوة المحامي على الغداء، لكنْ وعدتُهُ بزيارة مسائية، حين يلتقي مع أصدقائه في الديوانية، قال إن من بين المدعوّين صديقًا حميمًا لأبي، جاورَه في أدق اللحظات. "مرض؟"، سألتُه، فقال: "لا.. يريد الرجل أن يلتقيكَ ويحكي لكَ بنفسه".

13

نبّهني الهاتف لرابع مرة، قمتُ بصداع سائل يُطوِّف بدماغي ويُرغمني على التحرك ببطء، كأني أخشى سقوطه. كانت السابعة مساءً إلا الثلث، سيمرُّ سائق المحامي بعد عشرين دقيقة، ويُقلُّني لبيته. تحمَّمتُ بسرعة، ووضعتُ ملابسي بمزاج سيئ، لم تجلُهُ زخّات الماء ولا العطر المسائيّ، نزلتُ لبهو الفندق، مُلقيًا نظرة أملٍ باهت نحو الكاونتر، إذ ربما تكون الشامية الحسناء قد ظهرت أخيرًا. وجدتُ زميلها الآسيوي يُثرثر مع النزلاء، فمضيتُ رأسًا نحو باب الخروج.

هناك لمحتُ طيفها، وكانت خطوةٌ وحيدة تفصلني عن الخارج. لم تكن في مجال رؤيتي، هذا مؤكد، لكن بريقًا ما نبّهني لحضورها الشفيف. ربما تكون أضواء البهو قد عكسَت بريقَ ماستها، أو مرَّ بأثيري وميضُ عينَيها المرِحتَين، استشعرتُ وجودها بطريقة ما، فإذا بي مدفوع للتراجع نحوها واختلاق سبب للحديث.

"مساء الخير".

نظرَت نحوي باهتمام، بابتسامة حرصَت ألا تجعلها صريحة، قلت: "كنت أرغب في شكركِ على اقتراح الأمس"، بدَت غير مُتذكّرة

لشيء، "القناة الإخبارية، ستقبلين لقناة عبر الإنترنت.. أنت النزيل الجديد في الفندق".

"نعم، تذكّرت.. على الرحب والسعة".

"ألا تنصحينني بمطعم جيد للمأكولات الشامية، في محيط الفندق، فالبوفيهات الأوروبية والآسيوية تضجر معدتي حين أكثر منها".

بدَت في عجلةٍ من أمرها، تفقّدَت حقيبتها وقالت: "عذرًا، عليّ أن أسرع إلى الفستير، فنوبتي تبدأ بعد ربع ساعة".

"أيمكننا التحدث قليلاً حين تنتهين؟ أو خلال نوبتك، أيهما يناسبكِ".

"أرجو معذرتك، وقوفي معك هنا سيجرّ عليّ المتاعب مع مديرتي".

"إذًا، أطمع أن تُرسلي لي موقع المطعم على الواتساب".

قالت فيما تُبادر بالذهاب: "أوكي، سأُرسله".

تبعتُها مادًّا يدي بهاتفي المحمول: "مهلًا، أستميحكِ أن تُسجلي رقم الواتساب هنا.. لو تكرّمت".

تابعتُها حتى توارت خلف الكونسيرج. تمالكتُ نفسي كي لا يظهر انفعالي، كدت أصيح كلاعبٍ أحرز هدفًا لحصولي على الرقم. سجّلته

بأصابع غير ثابتة، وكتبتُ أمامه ليال، اسمها الذي لمحتُه بالأمس أعلى صدرها البديع. ما كنتُ لأفرح لهذا الحد لو توصَّلتُ لكريشنا نفسه! خجِلتُ من شغف المراهقين الذي انتابني، حتى أنساني السائق المُنتَظِر بالخارج. خرجتُ بعجالة أبحث عنه، واعتذرتُ بحاجتي للتحدّث مع إدارة الفندق (لم أكن مُضطرًّا لاختلاق عُذر، هو مجرد سائق!). فتحتُ الواتساب، وجدتُ رسائل عديدة من ياسر، من أمي، من تايا؛ ياسر يرغب في الثرثرة، أمي تبحث عن سكينة قلبها، بينما تحاول تايا افتعالَ مشكلة، تسعى للإيقاع بي. أرجأتُ الاستماع للرسائل، وبحثتُ عن حساب الفتاة، كان آخر دخول لها على الواتساب منذ دقيقتين، راسلتُها دون حساب للنتائج.

تقول أحدث أبحاث علم النفس، إن ماسة الأسنان دليل قاطع على ثقة المرأة، وضعف الرجل..

انتظرتُ حتى تلوّنت العلامتان الصغيرتان باللون الأزرق، الآن تُطالع رسالتي! احتبس نفَسي حتى ظهر الوجه الضاحك، ضربَتني موجة سعادة عاتية، حتى خشيتُ أن آتي بحركة لا شعورية تُنبِّه السائق.. أي مراهَقة يسحبكَ تيارها يا دكتور هاني؟! بصعوبةٍ أوقفتُ نفسي عن إرسال المزيد. فلتكتفِ بهذا التحرُّك، وتُفسِح لها مجال الصد أو الرد، لا تفرض نفسَك، لا تُلِق بطعومكَ دفعةً واحدة.. أمليتُ على نفسي نصائح المراهقين تلك، وتلهَّيتُ بتتبُّع لافتات المرور الزرقاء كي أتناسى الفتاة مؤقتًا.

تركنا الطريق السريع، عند لافتة تشيُر لمنطقة تُدعى "الشويخ"، شوارع فسيحة، تصطفُ على جانبيها نخلاتٌ مُضاءة بحبال الضوء الملون، وفضاء مُضبَّب بفعل الرطوبة. أبطأت الكابريس البيضاء، أطلقَت تنبيهًا خاطفًا قبل ارتقائها الرصيف، هبطتُ منها مدفوعًا لاستطلاع المنزل؛ بيت بديع من طابقَين، حداثيّ الطراز، تسطع الإضاءة بنعومة حول أفاريز شبابيكه، ومن داخل فجوات مُنتظمة في واجهته المكسوة بالرخام. تحدّث السائق عبر الإنتركوم، فانفتحَت بوابةُ الأفراد واقتادني شخصٌ آسيوي نحو الجزء البارز من المبنى؛ كانت هذه الديوانيّة التي أشار إليها المحامي في الأمس، حيث يقضي ساعات الصفاء مع أصدقائه؛ لها مدخل خاص، وتُشارف مسبحًا طويلًا مُضاءً من الداخل.

"أهلًا أهلًا دكتور هاني".

صافحني المحامي بودِّه المعتاد (صرتُ أشك في اصطناعه كل هذا الود)، ودعاني للدخول. كنتُ أطالع رأسه المكشوف لأول مرة، وشعره الداكن المصفّف بإتقان إلى الوراء، كما لفتَني ارتداؤه قميصًا وبنطالًا، فيما يلبس جلبابًا في وقت العمل! كان أصدقاؤه مُجتمعين بالفعل، بعضهم مُتحلِّقون حول عازف عود، وآخرون يتسامرون وهم يُطالعون هواتفهم. عرّفني إليهم، ثم وجّهني صوب رجل مُسِن ينتحي ركنًا في القاعة الفسيحة ذات الوسائد الأرضية، قدّمه إليّ قائلًا: "صاحب المعالي دكتور حمَد الكندري، كان صديقًا حميمًا لوالدك".

"بل أخًا"، قاطعهُ الشيخ، ثم أردف يُخاطبني: "أنا عمُّك".

أوجلَتني هيبةُ الرجل وعيناه الذابلتان؛ فيهما وميضٌ كاشفٌ أربكَني. سرعان ما تراجعَت عيناه، كأنما انتهَت من فحص سريرَتي، ثم أومأ إلى المحامي بإشارة فهِم منها الرغبة في الانفراد بنا بعيدًا عن الآخرين. أنهضهُ المحامي، ومدَّ إليه ذراعه كي يتسنّد عليها، لكن الشيخ استدار نحوي واتّكأ على رسغي، وسحَبني لخارج القاعة.

لحقَ بنا الفتى الآسيويُّ بمشروبات باردة وأطباق مُشهِّيات. صمتَ الرجل طويلًا، ثم مال فوق الطاولة والتقط حبة فستق، فتحها فأحدث فرقعة كانت بدايةً لحديث لم يقطعهُ أيٌّ منا، حتى في تلك اللحظات التي توقَّف خلالها لالتقاط أنفاسه.

14

رحِم الله الجميع يا بنيّ..

كان أبوكَ في مثل عمركَ حين تعرَّفتْ إليه، كأني أراه الآن لأول مرة وأنت جالسٌ أمامي؛ نفس الجلسة، النظرة، نفس بروز الوجنتَين والتماعة العينَين النهِمتَين لالتقاط التفاصيل؛ كأنك هو، لذلك أحببتُكَ كما أحببتُ أباك حين التقيتُه.

كان قد أمضى في الكويت سنةً وزيادة، فصار يعرفها كخطوط كفّيه؛ لا يكفُّ عن التنقُّل هنا وهناك؛ من المسيلة لشاطئ السالمية، من سوق واجف لدوّار شيراتون، من مركز سلطان لشَبرة السمك.. هل تحب السمك كأبيك؟ أكيد تُحبُّه. كان سكندريًّا لا يستطعم طعامًا مثل السمك، حُرًّا لا يُذعن لقَيد. يكون أمامكَ الآن، فترِدكَ مكالمةٌ أو تُطالع مقالًا، فإذا به قد تبخَّر من مُحيطك.. هل ترضخ لقَيد يا هاني؟ لا بد أنك تفعل، فالزمن غير الزمن يا وليدي.

عرّفني إليه عمُّك دكتور ناجي، أستاذي الذي تتلمذتُ عليه في جراحة العظام، يكبُرني الدكتور ناجي بسبع سنوات، بينما يكبُرني أبوك بيومَين، رحِم الله الجميع.. كان عمُّك نائبًا زائرًا في قصر العيني،

حين كنتُ طبيب امتياز حديث التخرُّج في قسم العظام بالمستشفى الجامعي، كنتُ آنذاك أعيش مُغتربًا في القاهرة، أُقاسي مع أهلها عناء النكسة وطأطأة الرأس. التقَيتُه عدة مرات، وعاونتُه في جراحات دقيقة إبان حرب الاستنزاف، منها مرة ذكَّرني بها أبوك بعد أن صِرنا أصدقاء، حيث حضر إلى المستشفى برفقة زميل له أُصيب بخلع في مفصل ركبته، أثناء إنزال بالمظلات، كان مُصِرًّا ألا يُجري له الجراحة طبيبٌ آخر غير عمك. لم أنتبِه يومها لأبيك، هو من تنبَّه إليَّ كوني غيرَ مصري وأعمل في مشفًى حكومي.. عُدتُ بعد عام إلى الكويت وقد صرتُ طبيبًا مُمارسًا، وحصلتُ على التعيين الأول في المستشفى الأميريّ، فإذ بي ألتقي الدكتور ناجي هناك.. كانت مفاجأة، أسعدني كثيرًا كونه تعرَّف إليَّ من أول وهلة، لم يكن قد رآني بالغطرة والدشداشة من قبل، قال جملته التي اشتُهِر بها فيما بعد: "الدنيا غرفة وصالة"، واضطر لشرح قصده حين لم يفهمه المحيطون، أدركتُ كم يفتقد للصُّحبة فلازمتُه منذ ذلك اللقاء، حتى صرنا رَبعًا لا نفترق؛ أمنحه الونس ويمدُّني بالمعرفة، حتى انضم إلينا أبوك في أواخر السبعينيات.

كان أبوك نموذجًا مُغايِرًا لأكثر المصريين العاملين في الكويت؛ يقود سيارة حديثة وثمينة، يتأنَّق حتى للذهاب إلى المسجد، يُنفق بسخاء كأنه لا ينوي ادِّخار فلس، لا يتملَّق أحدًا ولا يريد الإطاحة بأحد، يُعامِل الجميع بنديَّة تُثير الدهشة. كان يألف البرَّ كأنه من وحوشه خشنة الجلد، يواجه الشمس بلا غطاء رأس، ويُنافس أهل الصحراء في

اصطياد الضِّباب الأكبر حجمًا، بل إنه ذات يوم سلَخَ ضبًّا حيًّا ونهَشَ من لحمه أمامنا، كي لا يُفكِّر أحد في منافسته مُجدَّدًا. سرعان ما استلب إعجابي، وأذهلتني علاقاته الآخذة في التشعُّب خلال زمن قياسيّ، حتى صرتُ أصطدم باسمه في دوائر أبعد ما تكون عن التصوُّر، أغربها حين فوجئتُ بترشيحي طبيبًا للبعثة الأوليمبية الكويتية ورئيسًا للجنتها الطبية، وكان حدثًا فارقًا في مسيرتي المهنية، طُلِبتُ للقاء رئيس اللجنة الأوليمبية الكويتية آنذاك، الشيخ فهد الأحمد الصباح- رحم الله شهيد دسمان- سألتُه كيف سمعتم بي طال عمرُكم، فأجاب بأن صديقًا له يُدعى رأفت عبد الصمد هو من قام بتزكيتي، وتقديم بيان بخبرتي في معالجة إصابات العظام! يومها طلبتُ لقاءه مع دكتور ناجي، وكنتُ قد اشتكيتُه لأخيه قبل أسابيع لكثرة ما يُفاجئني اسمه على غير توقُّع، بادرتُ أباك بقولي: "تراك مصَّختها يا مصري!"، فانفجر ضاحكًا على الفور، فيما علَّق الدكتور: "الدنيا غرفة وصالة".

قصَّ عليَّ كيف جرَت الأمور بسرعة. كانت الكويت تتأهَّب لاستضافة كأس آسيا لكرة القدم، وكان الشيخ فهد طيَّب الله ثراه يجمع بين رئاسة الاتحاد الكويتي لكرة القدم واللجنة الأوليمبية الكويتية في ذات الوقت. رأَسَ اجتماع اللجنة الأمنية المشرفة على تأمين البطولة، ودعا إليه مديري أمن الفنادق التي ستستضيف البعثات، من بينهم أبوك. كان الوحيد الذي لم يتلقَّ بصمتٍ خطة تأمين البعثات، بل إنه أبدى ملاحظاته حول أوجُه القصور، مُشيرًا للتوتُّرات السياسية التي

تشهدها المنطقة، والتي تُلقي بظلالٍ مشوبة بالاضطراب على البعثتين الإيرانيـة والعراقية. اختلف مع الشـيخ الشـهيد، وأثـار حفيظة البعض وقلق البعض، لكن الشـيخ دعاه لحديث جانبي أثناء الاستراحة، علِما خلاله باشـتراكهما معًا في حرب 1967، التي تطوَّع الشـيخ للقتال فيها حيـن كان عسـكريًّا.. بـدأت البطولة، وغـزَت أثناءها العـراق جارتها إيـران، وتوتَّرَت الأجواء تمامًا بداخل معسـكر الإيرانيين حاملي لقب الدورة السـابقة، خاصة حين بلغهم نبأُ مقتل شقيق أحد نجومهم جراء الغزو، انهارَت معنوياتهم وتأثَّر أداؤهم بشدة، عندها اتصل الشيخ فهد بأبيك، وأسـند إليه مهمـة تأمين البعثة الإيرانية، وأمَـر بانتقالها للفندق الـذي يعمل فيه. كانـت بداية لصداقة حقيقية وثقـة عميقة لم تتزعزع، أول ما أسـفرَت عنه كان ترشـيحي أنا الطبيب الكويتي لرئاسـة اللجنة الطبية الأوليمبية، بإيعاز من أبيك.

دعاه الشـيخ الشـهيد للعمل بجواره مستشـارًا لملـف الأمن، لكن أباكَ آثر الاستمرار في العمل مديرًا لأمن سلسلة من أهم الفنادق. فسَّر لي ذلك بأمرين؛ أولهما أنه كان مُستمتعًا بعمله حيث يُتيح له التواصل مع بشر من كل شكل ولون، وهو أكثر ما برَع فيه أبوك، ثانيهما أنه كان راغبًا عن العمل مع الحكومات، أو ما كان يُسـميه بالسُّـلطة الوضعية، كان مُتمـرِّدًا بطبعـه، مُعارِضًا عالـي الصوت، وهو ما صـبَّ بغرابة في صالحه في بلاد لا تُرحِّب عادةً بالمعارضين السياسـيين. فقد شـهِدَت تلك الفترة مُناوشـات ما بعد السـلام مع إسرائيل، وكان أبوك مُعارِضًا

حقيقيًّا لكامب ديفيد، ليس زائفًا ككثير من المتملِّقين، ما أكسبه الكثير من القبول في دوائر العرب والخليجيين. كثيرًا ما سمعته يقول إنه ترك الجيش حين صار أداةً في يد السلطة، لا جيشًا حقيقيًّا يخوض الصحاري ويستعيد الأرض.

لم يُخامرني شكٌّ في تمسُّكه الشديد بمبادئه، وإن كنتُ أحتفظ ببعض التحفُّظات حيال طريقته في إدارة العمل، كان يضحك مليًّا حين أُبديها له، ويقول إني لا أتفهَّم طبيعة البشر ولا أعرف مقتضيات استمرارهم في الحياة، فأنا في رأيه "طبيب"، لا يفوِّر دمي مرأى جسد عارٍ، ولا تدفعني احتياجاتي البيولوجية بعيدًا عن خزانة الأدوية.. كنتُ أتقبّل منه دون غيره سخريته اللاذعة، فقد كان رقيقًا رغم كل شيء. ألم تكن لتستغرب مثلي يا بنيّ، حين تجدهُ يمنع بصرامة حديدية أعمال الدعارة في الفنادق التي تقع تحت سلطته، ثم يُشرف بنفسه على انتقالها لأماكن أكثر ملاءمة؟! كان يُكرّر مقولة عمكَ أن الدنيا غرفة وصالة، وما لا يُفعَل في الصالة لا بد أن يُمارَس في الغرفة، ثم يضحك عاليًا ويقول مُفسِّرًا إن البشر بحاجة لتنفيس رغباتهم المُلِحّة، وإلا صاروا أشد إفسادًا لعالمهم الفاسد ابتداءً.. أتوافقه الرأي يا هاني؟ أرى في عينيكَ إيماءة موافقة، كذِّبني يا بنيَّ لو أردتَ، فغالبًا سأتقبّل منكَ كما تقبّلتُ دومًا من أبيك.

15

اتصل المحامي صباح اليوم التالي، قال إنه توصل لخيط جديد يقربنا من كريشنا، وإنه سيمرُّ عليّ بعد ساعة ليصحبني في مشوار قد يكون الأخير. ثم اعتذر عما بدر من معالي وزير الصحة الأسبق، دكتور حمد الكندري، في حق أبي. دعوته للمزيد من التوضيح، ففهمتُ أنه يقصد حديث الرجل المُسن عن تسهيل أبي لدعارة الفنادق. لم ألتفِت لكون الأمر مُشينًا لهذه الدرجة حتى اعتذر المحامي. كنتُ مهمومًا بمحاولة الحصول على موعد من الحسناء الشامية ليال؛ أُقلِّب في مجموعة واتساب تجمعني بزملائي القدامى عن مواقف طريفة أقصُّها، أو نِكات موحِية أرسلها إليها، إذ ربما تستحسن إحداها فتكون بداية لحديث مثير. وجدتُني أتساءل: أيندرج ما أقوم به تحت مفهوم دعارة الفنادق كما يفهمهُ معالي الدكتور القابع في مغارة التاريخ؟!

تثاءبت. فكّرتُ في محاولة إنجاز ما أهملتُه بالأمس؛ مطالعة أوراق الملف. لم أكن في حالة مثالية للقراءة، خاصة وأن أكثر الأوراق مكتوب بلغة عربية فظَّة. لكنني دفعًا لشعورٍ بالذنب ساورني طوال الليل، قررتُ استخراج رزمةٍ صغيرة عشوائية وتصفُّحها على عجل.

وجدتُ بينها حوارًا لأبي نشرتهُ ذي أوبزيرفر سنة 1994، موضوعه حملة عنوانها: "لا تنسوا أسرانا"، كان أبي فيما يبدو متحدّثها الرسمي. بدا أبي في صورة الجريدة مهمًّا على نحو مثير للدهشة والسخرية معًا، كأنه لوحةٌ لفنان تشكيلي مُضطرب، أو قطعة مُتحفِيَّة لا معنى من احتفاظهم بها إلا التهكّم بالزمن. تصفّحتُ أيضًا بوليصة شحن جوي يعود تاريخها لسنة 2001، من ميناء الكويت إلى ڤينر نودورف في النمسا، تضم قائمة طويلة لا تنتهي من الأغراض الشخصية، لفتَني من بينها مجموعةُ أسطواناتٍ هائلة وجهاز تشغيل ماركة فيرجسون. الظاهر أن أبي قرّر وقتها الانتقال للنمسا بصفة نهائية سعيًا وراء السيدة النمساوية التي نقلَت لي خبرَها ابنةُ عمي.

قلّبتُ في الأوراق، وقع بصري على صورة رسالة مخطوطةٍ باليد. المُرسَل إليها: سلوى علي ياسين (أمي)، والتاريخ المدوَّن أسفل إمضاء أبي: 17-7-1985. كان أبي ذا خط رشيق، يده تعرف يقينًا أين تذهب بالحروف، وأيّ شعور ستحمله الكلمات المرسومة بمهارة فنان، غلّف عبارات الرسالة بصرامة مشوبة بحميمية خافتة، تشتُّها بين كلماته ولا تُمسكها بيقين راسخ. كان يسألها عني، عن تقدُّمي في الكلام وزوال أعراض الخرس الطوعيّ، يُعاتبها على امتناعها عن إجابة مُكالماته، يُذكّرها بالعِشرة الهانئة التي جمعَتهما لسنوات (هنا على الأرجح أحسستُ بالحميمية الخفية)، يقول إنه لن يتراجع عن قراره بالاستمرار في الكويت، هنا وجَد نفسه، واستشعَر قيمة ما يقوم

بـه، وإمكانيـة دفع مصيـره في طريقٍ يختاره بنفسـه، عِلمًـا بأنه لا يزال يُريدهـا بجواره، "أنتِ وهانـي"، كرّرها مرتين، أما الأوهام التي ذهبَت بسـببها وأحرقَت من خلفها السفن فلن يعتذر عنها، فهي محض افتراء والله شهيد على ما يقول.

أمسكتُ بالخطاب خشـية إفلاته من يدي، به تكتمل الصورة نسبيًّا ويُرتَـق جـزء من النسـيج الناقص، أحتـاج لتوضيح حول هـذه النقاط أكثـر من حاجتي للاحتفاء بإنجازات أبـي. فيمَ يعنيني إن كان فالِحًا أو طالحًـا، ورِعًـا أم زنديقًا، يعنيني أن أعرف لماذا أفسـد حياتي وأشـعل الحرائـق في مملكة أمي، لماذا اختار الغياب حين باغتَني البلوغ لأول مـرة، حيـن انحنيتُ مُرتبكًا فوق الفراش ورُحتُ أتشـمّمُ آثار احتلامي خشـية افتضاحـي أمـام جدّتـي، لماذا لـم يكن موجـودًا حيـن تلقّيتُ أول صـدٍّ من فتـاة مغرورة أحببتُها، حينما انتفخَـت قدمي كثمرة بطيخ جـرّاء تمـزُّقٍ فاتكٍ فـي العضلات، أو حتـى حين مثَّلتُ الـدور الأول على مسـرح المدرسـة، ونِلتُ شـهادة تقدير.. لماذا كتَب عليّ خَوضَ التجارب وحدي، دون أب جـذّابٍ مفتول العضلات يُداعب الكاميرا ويحتضن وحيدَه؟ كان عليه أن يعنيه وجودي كاعتنائه بنزواته.

أعدتُ الأوراق وخلَّيتُ الخطاب، هممتُ بالاستحمام والاستعداد للقاء المحامي، حين اسـتوقفني رنين الواتسـاب. رنين تكراري يُشيع الملـل، لكنـه اكتسـب حيويـةً أخّاذة منـذ احتفظـتُ برقم ليـال، فتاتي الشـامية. وجـدتُ رسـالتين جديدتيـن، إحداهمـا منها، أمـا الأخرى

فرسالة صوتية من تايا. لم أكن بحاجة لفتح رسالة ليال، فما هي إلا وجه يطفر بالدموع من شدة الضحك (على النكتة الأخيرة بالطبع)، رغم ذلك فتحتها حتى يظهر لديها أني طالعتُها فتشعُر بالاهتمام. اخترتُ وجهًا مقلوبًا يضحك بهزلية، وتردّدتُ في ضغط علامة إرسال، قبل أن ينفلت إبهامي باندفاع زائد فتطير الرسالة. خجلتُ من نفسي؛ من تلك الصِّبيانية التي أُبديها حيالها. انتابني ارتباكٌ زكّتهُ كثيرًا رسالةُ تايا الصوتية؛ كانت تتّهمني بانعدام المسؤولية، باللا مبالاة التامة، ساندي تُصِر على السفر مع صديقها الملوَّن لحضور حفله الغنائي، بينما يتسكَّع والدُها هنا وهناك بحثًا عن "لا تعرف ماذا!"، ستُدينكِ هذه الرسالة قريبًا يا تايا؛ انفعال هيستيري، اتهام غير منطقي، عنصرية تجاه الملوّنين.. إلى آخر قائمة رذائلك.

ماذا تنتظر مني هذه المضطربة! أأنا السبب في طَيش البنت، حتى أثناء غيابي؟! أكان عليّ أن أتفرّغ تمامًا لأقتفي أثر فتاتي المراهقة، التي دلّلتها أمها حد الإفساد؟ سحقًا لهما معًا!

سئمتُ كل شيء. وضعتُ رأسي أسفل صنبور المياه، لكنها لم تنهمر. صنبور سخيف يعمل بحساس غبيّ، لا يستجيب لغير حركة اليد! أصَبتُ رأسي من الوراء بينما أرفعُها بعصبيّة من داخل الحوض، تحسَّستُ الجرح، صبَبتُ غضبي على المنشفة الأرضية البيضاء، ركلتُها صوب المرحاض، استدرتُ نحو المرآة، وتفرَّستُ في وجهي المنفوخ بالغضب، ثم جلستُ على المرحاض وأغمضتُ عينيّ، وأخذتُ أُتابع

بتركيز نَفَسي المضطرب حتى انتظم إيقاعُه.. بدأَتْ دفقاتٌ مُتقطِّعة من البول تنساب مني، فتُثير فيّ شعورًا بالإشفاق والاستسلام. لا بد من استعادة الهدوء، كي لا يُفلِت زمام اليوم. عليّ التوصُّل اليوم لشيء ذي بال، لأُباهي به تايا الليلة، ستكون قد نامَت قليلًا وصارَت في حال أكثر ملاءمةً لتفهُّم الأمور.

وضعتُ الكثير من رغوة الاستحمام، وتوقّفتُ عن التفكير في أي شيء إلا الرائحة الزكية. تحمّمتُ بهدوء وتجفّفتُ ببطء. الحياة بحاجة لشيء من البطء، في الصغر نعشق السرعة، نطوي الأيام برعونة بلهاء ثم لا نجد الوقت لنندم عليها. وضعتُ ملابسي بنفس الطريقة الهادئة، أتشمّم الملابس وأتحسس الأزرار. طمأنتُ نفسي بينما أهبط بالمصعد بأن الأمور ستسير نحو الأفضل، لو منحناها بعض الهدوء، والتركيز، ربما الشغف. ثم قطعتُ ردهة الفندق نحو باب الخروج، دون النظر لكاونتر الاستقبال.

16

كان المحامي وحيدًا في انتظاري. لمحتُه بصعوبةٍ في تويوتا برادو ذات سطح فضيّ وهّاج، ينظر في المرآة الخلفية من مقعد السائق، يسوّي انحناءات غُطرته البيضاء بطريقة تمنحها (في نظره) تموُّجًا أنيقًا. يبدو أني لاقيتُه بوجه مُغتمّ، فقد طالعني بقلق وسألني إن كان في الأمر مكروه. أجبتُ بأني في أفضل حال، فلم يبتلع إجابتي. الأرجح أنه حسِبني مُستاءً من دكتور كندري، لذلك عرَج بحديثه صوب الرجل، وراح يصف كيف كانا هو وأبي صديقَين حميمَين، وما مرّا به سويًّا من أفراح وأتراح. لم أُبدِ اهتمامًا بالغًا بكلامه، فآثر الصمت.

سألتُه إن كان قد منح السائق إجازةً اليوم، فقال: "لا، بل أرسلتُه إلى الحساوي ليُرتِّب تحركاتنا هناك. ستُشاهد كويتًا أخرى، فلا تندهش". أخذ يفسِّر كلامه؛ الحساوي منطقة شعبية كثيفة السكان، قاطنوها يتحاشون الغرباء خشية أن يكونوا تابعين لجهات أمنية، لذلك نحتاج لوسيط يُرافقنا عبر دروبها ويمهِّد لنا الطريق، ولهذا سبقَنا السائق. سألته: "أهي منطقة مرصودة من قِبل الأمن؟".

"بالطبع، يسمّونها شيكاغو الكويت، لا يقصدون شيكاغو ناطحات السحاب بالطبع، ولكن شيكاغو العصابات والخارجين عن القانون".

"وما حاجتنا إلى الذهاب هناك؟!".

"لأنها قِبلة أولئك الذين لا يظهرون في الأوراق الرسمية. سأشرح لك؛ لكل شخص في الكويت، مواطنًا كان أو مقيمًا أو بدون، بيانات محفوظة لدى السلطات، بعضها في ملفات رسميَّة، والبعض الآخر، لنقُل محفوظٌ أسفل الملفّات، متروكٌ لحين الحاجة إليه. عمالة بلا كفيل رسميّ، وأخرى مكثَت أثناء الغزو ثم توارَت عن أعين السلطات، خادمات هربن من عنف ربّات البيوت لقسوة الخربوطة، وغيرهم كثيرون".

"الخربوطة؟".

"نعم، الدعارة وما يرتبط بها.. يحيا هؤلاء حياة كاملة غير مُعترَف بها رسميًّا؛ يركبون مواصلات عامة، يشترون مواد غذائية، يتلقَّون رعاية طبية، يمدّون بيوتهم بكابلات الكهرباء والستلايت والإنترنت، كل هذا معروف، لكنه مدوَّنٌ فقط في أوراق محفوظة أسفل الملفّات، لا بداخلها".

طالع الهاتف أثناء وقوفنا في إشارة مرورية، ثم أردف: "الواضح أن المدعو كريشنا من غير الرسميّين، رغم أنه عاش طوال عمره في

الكويت. لـديَّ أمل أن نجدهُ هناك، فالمعلومـات الجديدة تُفيد بذلك الاحتمال".

"معلومـات، جديـدة.. سـيدي المحامـي، لمـاذا لا تُطلِعني على الصورة كاملة ولو لمرة!".

"علـى العكـس عزيزي، يُسـعِدني ذلك جـدًّا، لكـن مهمَّتي طبقًا لوصيـة الوالـد هـي إطلاعـكَ فقـط علـى مـا تُبـدي اهتمامًـا صريحًا بمعرفتـه. أنـت تسـأل، وأنا أُجيـب. هكـذا تصير أنت مـن يبحث عن كريشنا، بينما أقوم أنا بتيسير مهمَّتك".

صدمَتنـي إجابتـه.. إذًا ليـس الهدف مـن هذه المأموريـة منح بيتٍ لذلك الكريشـنا غير الرسـمي، بل أن أشـقى أنا في البحث عنه! خطَر لذهني طلبٌ مفاجئ: "أريد الاطلاع على وصية الوالد".

تفكّر لبرهة ثم قال: "ربما لم أُحسِن التعبير، ليست وصية بالمعنى، يُمكنكَ أن تعتبرها أمرَ شُـغل، أي شأن داخلي بينه وبين مُحاميه، أما ما يُمكنني إطلاعكَ عليه فهو الصيغة التعاقدية التي سـتحصل بمقتضاها على الأرصدة، وقد عرَضتُها عليك بالفعل".

لم يتركني فريسة للصمت، أخذ يُشوشِر عليّ بما عناهُ بالمعلومات الجديدة، شارحًا ما نحن بصدده اليوم. كان بالأمس يتباحثُ مع معالي الوزير الأسبق قبل وصولي بقليل، أطلعَهُ على ما قمنا به في السفارة وصندوق الإعانة بحثًا عن هندي يُدعى كريشنا، فقال الوزير إنه يعرف

الشخص المقصود وأنه التقاه عدة مرات بعد الغزو، كان يعمل خيّاطًا ويُعاني آلامًا في العظام، وكان أبي يهتمُّ لأمره ولا يجد غضاضةً في الذهاب به لبيت وزير الصحة شخصيًّا، طالما كان صديقه. "كانت لأبيك طريقة مُذهلة في نَيل ما يُريد ببساطة شديدة، مهما بدا لسواه صعبًا". لن تجدا كريشنا في الأوراق الرسمية، هكذا قال الوزير، فقد عمِل طوال عمره بغير كفيل، لكنه اليوم، إذا ما كان حيًّا لا يزال، كهل مُتقدّم في العمر، يُعاني أوجاعًا مُزمنة، لا بد أن يتلقّى علاجًا ما في مكان ما، وهناك من يملكون مفاتيح السراديب غير الرسمية التي تُفضي لمستودعات الدواء في وزارة الصحة.

أجرى الوزير الأسبق اتصالًا صباح اليوم بأحد موظفيه القدامى، ممن لهم علاقة مباشرة مع مندوبي صندوق الإعانة الصحية، حصل من خلاله على عناوين مكاتب عقارية تتعاون مع الصندوق، فتكون حلقة الوصل بينه وبين المُستفيدين غير المسجَّلين في الملفات، أغلبهم من كبار السن والمعوزين ممن تخطوا سن المعاش، وهؤلاء قليلون، فأكثر مَن يتجاوز السن من الآسيويين يغادر عائدًا إلى بلاده. "لن نعجز عن التوصُّل لعجوز هندي يُدعى كريشنا، يعمل خياطًا ويصرف دواءً دوريًا لآلام مزمنة.. أنا متفائل".

تبدّدت أسباب التفاؤل تدريجيًّا، كلما أوغلنا في الحساوي. شوارع ضيقة، أمواج بشرية لا آخر لها، بنايات قديمة شائهة، يكسوها حجرٌ في لون الصحراء وكآبة لا تُخطئها عين، تسبح فوق أسطحها أسلاك

كهرباء لا تعرف كيف تمتدُّ ولا أين تنتهي. لا يقطع لون الكآبة الذي يُغلِّف المكان إلا لافتات بالية ذات أحرف آسيوية مُكوَّرة، وأقفاص مُتراصة بمحاذاة الأرصفة تعلوها البضائع والخضروات.

كنا قد تركنا البرادو في ساحة انتظار على مشارف الحساوي، وركبنا الكابريس مع فيديا (السائق) وشخص آخر آسيويّ، فهمتُ أنه الوسيط. صرنا نمرُّ تباعًا بمكاتب عقارية دون توقُّف، سألتُ المحامي: "هل تعرف المكتب المعنيّ؟"، فقال: "فيديا يعرف.. أرجو ذلك!"، مازَح السائق ثم أكمل: "يقرأ اللافتات، ويبحث عن مفتاح أرشدَنا إليه مندوب الصندوق؛ عبارة مكتوبة بالبنغالية، تُفيد بتقديم خدمات تُريح من المعاناة، هي كلمة السر التي تستقطب الوافدين حديثًا إلى المنطقة، أما الكلمات العربية على اللافتة فمجرد اسم نمطي لا يُفيد بشيء".

أشرتُ إلى الوسيط: "أليس بإمكان الشخص الآخر قراءة اللافتات أيضًا؟".

"أعتقد ذلك، لكن لا يُمكنكَ الاعتماد عليه، فهو ينتمي لجماعات تفرض حمايتها على القاطنين مقابل إتاوات شهرية، لا تعرف أين يُمكن أن يذهبوا بكَ، ولا كيف يستغلونك"، ثم أكمل مازحًا: "المهم ألا تكون اللافتات مكتوبة بالهندية، فعندها سيحتار فيديا في تفسيرها!".

سألتُه مُستغربًا: "أليس فيديا هنديًّا؟".

"لا، إنه بنغاليّ".

وقبل أن أستوعب مقولة المحامي، أشار فيديا صوب لافتة تكاد تهوي فوق رؤوس العابرين، قائلًا: "المكتب سيدي!".

17

يقبع المكتب العقاري أسفل بناية بالية، لا يتكرّر في واجهتها شباكٌ واحد، بل تصنع الشبابيك كولاجًا من خامات وألوان شتى. تفصل المكتب عن الشارع واجهةٌ زجاجية مغبَّشة، تكسوها مُلصقاتٌ كانت يومًا أوراقًا بيضاء مطبوعة بإعلانات الغرف والسكن الجماعيّ. بالداخل ردهةٌ واسعة، تُطوِّقها شِلَت أرضية مصبوغةٌ بخرائط العرَق، تركَت الرؤوس عليها بُقعًا كآثار العابرين.

تحدّث الوسيط مع موظف المكتب، وقاطع فيديا الحديث عدة مرات، بينما انشغلتُ أنا باستطلاع المكان، وبمحاولة التنفّس دون استنشاق عميق للهواء المفعم بعَبق آسيوي. تركَنا الموظف وعبَر بابًا وحيدًا يتوسّط الردهة، بجواره ستارة قصيرة باهتة مرقَت خلالها فتاةٌ قصيرة ذات ملامح هندية لطيفة. مكث الرجل طويلًا داخل الغرفة، فصرتُ أرمق المحامي بنظرةٍ متسائلة، فيومئ لي بابتسامة أيقنتُ منها بأنه مثلي تمامًا، لا يفهم شيئًا مما يجري. عاد الرجل وقال شيئًا تحمَّس له فيديا، فأومأ إلينا لكي نتبعه.

الداخل شأن آخر؛ غرفة عطنة ضيقة، يُهيمن عليها مكيِّف قديم بضجيجه وصقيعه المؤلم. نهض مدير المكتب (هكذا بدا من موضعه)

وصافح المحامي بتوقير كبير، ثم جلس ثانيةً كأنه لا يراني، دار حوار بينه وبين فيديا، أطلَّ على إثره في شاشة لابتوب أثريّ قذر، ووضع نظارة قراءة غاب معها تمامًا في تركيزه. اقترب فيديا من الشاشة وراح يُطالعها معه، ويُشير بسبابته طلوعًا ونزولًا. أخذ المدير بين لحظة وأخرى يدوِّن شيئًا على قصاصة ورق ممزوعة الحواف، فيُثير لدى فيديا غريزة التساؤل دون أن يُريحه.

بعد قليل دخلَت الفتاة الهندية لطيفة الملامح، يتبعها رجل أكرش ذو بشرة في لون القهوة المفلترة. أخذَت تُحادث المدير، فتزداد حدة نبرتها كلما التقطَت نفَسًا خاطفًا، قاطعَها الرجل حين بدا حديثها بلا نهاية، لكنها استمرَّت ترغي بمزيد من التوتُّر والارتعاش، وتُبارِز وحدها ضجيج المكيِّف. تحرَّك الأكرش وحال بينها وبين المدير، أخذ يصيح بغضب حارق ويُحدِّق فيها بعينين مكوَّرتين، بينما ظل المدير ثابتًا في جلسته، يُشير إليهما طوال الوقت ليغادرا المكتب فلا يستجيبان. ندَّت عن الفتاة حركةٌ مُفاجئة، توجَّهَت بهياج صوب الخارج، لحِق بها الأكرش، جذب جديلتها التي تُلامس ذؤابتُها عجيزتَها الملفوفة بساري رقيق، صرخَت الفتاة بينما يلفُّ الأكرش الثائر جديلتها حول معصمه، تعرَّقتُ خوفًا رغم الصقيع، شعرتُ بحركة مضطربة تندُّ عن المحامي، فيما هرع المدير سريعًا نحو الفتاة، حتى ظننتُه يتلهَّف لتخليصها، فإذا به يأخذ بخناقها ويلصقها بحائط الغرفة بارتطام يخلع القلب. دعا المحامي فيديا للتدخُّل فقال شيئًا

للمديـر، تلفَّت الأخير على إثـره وأمره بألا يُقحِم نفسـه فيما لا يعنيه. أخيرًا أفلت الفتاة، فتداعَت على الأرض وانفرجَت ساقاها عن فضيحة صادمة.

طلـبَ منا المدير عبر فيديا أن نغـادر في الحال، وأن نأتيه في وقتٍ لاحق ليرى ما نريد، شرح فيديا لاحقًا كيف قال للمدير إن الأمر عاجل، وإننـا لا نرغب في إزعاجه مجـدَّدًا، فالأفضل أن نحصل على البيانات التـي كتبها بالفعل قبل دخـول الفتاة. بدا أن مقولة فيديـا ذكَّرَتهُ بما كنا بصـدده قبل احتدام الموقف، فالتقط الورقة وأضاف اسـمًا جديدًا في ذيل القائمة، ثم ناولها لفيديا وقد حوَت ثلاثة أسماء.

ركبتُ السيارة بجوار المحامي، وكان فيديا قد تأخّر في اللحاق بنا، هو والوسيط. لفَّنا الصمت بغلاف سميك، وكل منا يُساجِل نفسه دون صـوت؛ من تكون الفتاة؟ عاهر تحترف الخربوطة، أم خادمة فرّت من مخدومهـا؟ أكان على أحدنا التدخل لتخليصهـا، أم تَركها لتنال عقابًا لا مفر منه؟ استمرَّ المحامي يرمق الشـارع عبر زجاج السيارة المُعتم، حاولـتُ إزاحة كتلـة الصمت، قلـت: "المنطقة أفظع ممـا تصوّرت". ظننتُـه لم يسـمعني حتى عاد يقول: "لو امتهنـتَ مهنتي لأطلعَتكَ على الفظائع كل يوم".

ترددتُ قليلًا، لكنني سألتُه: "أكان بإمكاننا الذَّودُ عنها؟".

أطرق قائلًا: "تبدو مُحِبًّا للبطولة كأبيك. لو كان معنا لانتصر للفتاة، ولكُنّا لاقينا مصيرًا يعلمهُ الله".

"ألهذه الدرجة؟".

"نعم بالطبع، عصابات كهذه لن تتوانى عن حماية وجودها بأية وسيلة".

عاد لوجومه. بعد قليل ظهر فيديا، وحده هذه المرة. قال إن الوسيط ذهب ليتناول الغداء، وترك لنا أرقام الهاتف إذا ما واجهتنا أية متاعب.

"ألا يصبر قليلًا على الغداء! ألم ننقدهُ المال ليرافقنا حتى نهاية الجولة؟! أعطِني أرقام الهاتف فيديا".

بدا الغضب جليًّا في نبرته، ما أربَك فيديا وجعله يُسارع بالتوضيح.. الوسيط سائق أجرة يجلب الفتيات؛ يلتقط من يقِفن وحيداتٍ في الشوارع الأكثر رُقيًّا، يسحبهن عبر ممرات البَوح ودهاليز الفضفضة، يُوجِّه الهاربات من قسوة المخدومين نحو العمل بالخربوطة، ويُقنِع بعدم العودة من لم يُقرِّرن الهرب بعد، ستجدن المأوى الآمن والطعام الساخن المُعَدَّ ثلاث مرات كل يوم، لا حاجة لملابسكن فستستلمن ملابس جديدة فور وصولكن، كل ذلك مقابل نصف ما تحصُلن عليه، وستتمتَّعن أثناء الحيض بعطلة مدفوعة الأجر، نصف الدخل المعتاد. هل يوجد أفضل من ذلك؟ يروِّض من لا تستجيب سريعًا، مُجاوِزًا بها حواجز التردُّد والادعاء. ألا تتعرَّضين لأكثر من هذا في بيت مخدوميكِ، دون مقابل إلا التهديد بالطرد؟ ألا تنامين مفتوحة العينين خشية اقتراب أحدهم؟ يُلقي بكلمات كاشفة بين السطور، تُجبرهن

أن يخلعن أقنعة الفضيلة الزائفة، ويُسلِّمهن آخر المطاف في أحد المكاتب مقابل ثلاثمائة دينار للفتاة، قد تزيد لمن هي دون العشرين أو تفوق الأخريات ملاحة.

كانت فتاة المكتب ممن جلبهنَّ السائق المكروب؛ إحدى الحسناوات اللائي قبَض مقابلهن أربعمائة دينار كاملة. لا تنظر لهيئتها اليوم، فقد واقَعَها أحدهم من الخلف، ثبَّت جسدها بكفِّه الغليظة الثقيلة كحجر الرحى، وطوَّق عنقها بجديلتها الطويلة، كاد يخنقها، مُستمرئًا جَذب جديلتها فيما يدفع بداخلها شهوته العارمة.. أخذَت تصرخ، فاندفعَت زميلتاها عبر ستارة تُحيط بالفراش، نشبَت إحداهما أظافرها في الجسد الجاثم فوق الفتاة، وهوَت الأخرى تعضُّ ساعدَه الممسك بالجديلة، كان ناجا (القواد الأكرش) قد لحق سريعًا بفتاتَيه، انتزعهما انتزاعًا من فوق زبونه، وهوى على صدغَيهما لطمًا وصفعًا حتى ابتعدتا باكيتَين، فيما ربط المسكينة الممددة أسفل الجسد الثقيل من ساعدَيها في قائمتَي الفراش، وصاح في الزبون أن يُتمَّ ما بدأه، إرساءً لسطوته.

لم يستطع سائق الأجرة الإمساك طويلًا عن البكاء. بدأَت بوادر انهياره عند خروجه من المكتب، أقعى على الأرض، وأجهش في البكاء كمن فقدَ عزيزًا. صارح فيديا بما حدث، فاقترح عليه أن يُفاوض المدير لاستعادة الفتاة مقابل مئتي دينار.

أنهى فيديا حكايته، وشرع يبحث عن محلات الخياطة التي دوّنها المدير في الورقة، فيما تدثّر كل منا بصمته، خشية أن يجرحهُ الآخر بسؤال لا يملك إجابته.

18

معذورة ساندي في نوبات يأسها الملحاح، في اختيارها أشعارًا غنائية تنضح بالإحباط، حتى في إقبالها على ألحان رديئة ينضح بها صديقُها الملوَّن، يصُمُّ بها آذان الصِّبية اليائسين مثله، فللعالم وجه قبيح لا يمكن إغفاله.

عُدنا مُحبَطَين من الحساوي، يتوارى كل منا في سكوته، يخشى أن يفتضح وجودُه لو ندَّ عنه صوت. فكّرتُ عدة مرات في قول شيء؛ أُخبر المحامي مثلًا أني أُعفيه من التزامه بمساعدتي، أشكر فيديا وأطلب إليه العودة لحياته الأولى، لابتساماته البلهاء وإيماءاته التي بلا معنى إلا إخفاء سخطه على الحياة. فكَّرتُ حتى في إعفاء نفسي من استكمال رحلة العبث تلك، أن أعود لأميركا وألتفتُ لعملي، فهو ملاذي الأخير، أن أُداهِن تايا وأطارحها غرامًا ما عاد موجودًا، أن أعتذر من ساندي وأقيم لها في مَرأب السيارة مكانًا تُسجِّل فيه أغنياتها الحزينة. وددتُ لو أصنع شيئًا واحدًا دون انقياد لأحد، ملأني السأم من نفسي ومن حالي البائسة، ووجدتُني ألتمس أعذارًا لتايا، لساندي، لأمي طبعًا، حتى لأبي.. جميعنا تسوقه الحياة فيما يتصوّر في نفسه القُدرةَ على تحويل المسار.

كانت ظُلمةٌ صفراء قد غلَّفَت العالم حين عدتُ إلى الفندق، بغبار ثقيل عالق في شُعَبي الهوائية، لمجرد فتحي شباك السيارة طويلًا أثناء مرورنا بالحساوي. عاد السعال الربويُّ يدفع رئتيّ لداخل حلقي، وصرتُ في حاجة ماسَّة لكوب شراب دافئ. ذهبتُ إلى الكافيه، طلبتُ قهوة أميركية وانتحيتُ جانبًا عند البار، مانحًا نفسي أكبر مساحة خالية ممكنة.. اسعَل الآن كما تشاء، وانفض عن صدركَ غبار الخيبة. كنتُ قد اعتذرتُ للمحامي عن دعوة العشاء. لا طاقة بي لمجالسة أحد. حتى هو، لا طاقة به لمجاملتي، فلم يُبدِ إصرارًا من أي نوع. تركني أمام الفندق وانطلق بالبرادو الفضية مخترقًا حُجب الغبار الأصفر. أما فيديا، فقد فارقَنا منذ أعلن المحامي فشل مسعانا؛ "يبدو أن كريشنا يُقيم في مكان آخر"، هكذا قال، بعدما أمضينا ثلاث ساعات نجوب الشوارع الخانقة، نتفقَّد الخياطين المشار إليهم في القائمة، نشطُب عنوانًا تلو الآخر كلما تلقَّينا إجابةً مُحبِطة. لم يسمع أحدٌ بالرجل العجوز، أو ربما لا يرغب أحدٌ في الإفصاح عن معرفته. كنتُ مُمتلئًا عن آخري بالطاقة السالبة؛ الغبار، الإرهاق، الإحباط، صورة الفتاة الممزقة، لذا تعلَّقتُ باليأس سريعًا حين أعلن المحامي فشل العثور عليه، بنبرة حاول أن يجعلها اعتيادية. "لنذهب"، قلت، وكان ذلك كل ما نطقتُ به خلال ساعات.

"أنا يائس"، راسلتُ تايا بهاتين الكلمتين، ثم ندمتُ على الفور.. ماذا يجعلني أندفع أحيانًا، فيما أنا مِثال حيٌّ للتردُّد طوال الوقت!

لا بد أن تكون منهمكة الآن في تقاريرها المكتبية؛ لن تُطالع الرسالة قبل ساعات. لن أستطيع مسحها، لن تغفر تايا غلطة بهذا الحجم.. عليَّ التفكير في حجَّة أفسِّر بها الرسالة الخائبة؛ شيء يتعلق بالخوف على ساندي أو القلق من تقصير مارثا في مهام العمل.. فوجئتُ بها وقد طالعَت الرسالة سريعًا! سرعان ما راحَت تكتب ردًّا، ثم تتوقف، تكتب، تتوقَّف، لا شيء يصلني.. لا بد أنها متردِّدة مثلي؛ هل تَضرب الآن مُستغلَّةً يأسي، أم تُبدي تعاطفًا زائفًا نحوي؟ قررتُ إغلاق الهاتف وقَطع الطريق أمامها فلا تصل إليَّ، ضغطتُ ضغطةً طويلة على الزرِّ الجانبي، فقفز من الشاشة رقمٌ مجهول. تردَّدتُ قليلًا قبل الرد. "هالو"، قلت. تحدّث الشخص برَطانة هندية إنجليزية، سأل إن كان هذا رقم مستر هاني رافا صمد، قلت: "نعم أنا الدكتور هاني رأفت عبد الصمد، من المتحدِّث؟". فهمتُ أنه فيديا، وأنه جرّب مُهاتفة المحامي فلم يتلقَّ ردًّا على هاتفيْه. "ماذا تريد فيديا؟". بصعوبة فهمتُ طلبه؛ يحتاج لمعلومات تخص كريشنا؛ اسم عائلته، ديانته، طبيعة أوجاعه. "سبق أن ذكرَ المحامي اسمه الثلاثي، لكني لا أذكره الآن، كان اسمًا هندوسيًّا فيما يبدو، أليس كذلك؟"، قال إنه من الجائز أن يكون قد تحوَّل إلى الإسلام، حتى الهندوسيَّة تحوي عدة مذاهب، كل ذلك سيساعد في التوصُّل إليه. سألتُه: "لِمَ لم تسأل هذه الأسئلة طوال اليوم؟!"، رطن بكلام كثير لم أفهمه، كل ما استشفَّيتُه أن شخصًا آخر يسأل الآن عن هذه الأشياء؛ امرأة على الأرجح. وعَدتُه أن أُحاول التوصُّل للمحامي وأعود إليه سريعًا.

هاتفتُ المحامي عدة مرات، لا إجابة، إلا رسالة مسجَّلة تطرق سمعي بعد خمس رنّات، من فضلك أترك رسالة بعد سماع الصفارة، تركت رسالتين، إحداهما تدعوه لاتصال عاجل والأخرى تستفسر عن أسئلة فيديا. أفرغتُ القهوة في جوفي ومهَرتُ إمضائي أسفل رقم الغرفة، قمتُ أذرَع بهو الفندق بلا هدف. مرَّ الوقتُ بطيئًا ضاغطًا، ليس بي رغبة في طعام ولا شراب، تمدَّدتُ فوق مقعد جلديٍّ مُنزوٍ، تمنَّيتُ لو تظهر الفتاة الشامية، لا لشيء إلا لتخفيف توتُّري، لإلهائي عن التفكير في رسالة تايا وأسئلة فيديا. رنَّ الهاتف. كان المحامي.

"أريدكَ على وجه السرعة".

"ماذا هناك؟".

"لستُ واثقًا بعد، ربما اقتربنا من كريشنا، مجرد احتمال. الأهم أنك ستنتقل لشقة بالإيجار على مقربة مني، هل يوافقكَ ذلك؟".

"... لا مانع، كما تشاء. هل هناك سبب؟!".

"نعم، ستنتقل الفتاة للمبيت معك، حتى نوفِّق وضعها القانوني ونجد لها بيتًا تعمل فيه خادمة".

"أي فتاة؟".

"فتاة المكتب طبعًا، الهندية".

كان في عجلة كبيرة، أنهى المكالمة وتركني لأسئلتي؛ هل تم تخليص الفتاة؟ لماذا لا يستضيفها في بيته، أو يجعلها تعمل خادمة

لديه وينتهي الأمر؟ هل أترك الفندق دون التعرُّف إلى ليال؟ سريعًا هكذا!

وسريعًا أرسل المحامي موقعَ بيته على الواتساب، فركبتُ تاكسيًّا من أمام الفندق وذهبتُ إليه. ألفيتُه وقد عادَت لوجهه بسطةُ الترحيب، أخذني مباشرةً لتفقُّد الشقة. بسيطةً وجدتُها، وأنيقة، تامَّة التجهيز، أحببتُها أكثر من غرفة الفندق، لكنها تفتقد أُنسَ الوجه الجميل والبسمة البرّاقة؛ تفتقد ليال. حدَّثتُ نفسي بأن الأفضل ألا أنزلق لعلاقة مؤقتة، مهما تسبَّبَت في فتح شهيَّتي على الحياة. عندها أعلنتُ للمحامي موافقتي على الإقامة في الشقة، فأبدى امتنانًا لا أستحقُّه، وأشعَرَني برضا عميق عن قراري، تأكَّد حين استمعتُ لفيديا بعد عدة ساعات فيما يقصُّ علينا مغامرة تحرير الفتاة.

كان قد ترك الكابريس البيضاء في ساحة الانتظار حيث أوصلَنا للبرادو الفضية، وعاد من فوره لسائق التاكسي (الدليل)، عازمًا أن يُخلِّص الفتاة من أسرِها والرجلَ من شعوره بالذنب. ذهبا سويًّا للقوّاد الأكرش، فاوضاه (كذبًا) على جلب فتاة بنجالية بعد يومين، لم تتخطَّ العشرين بعد، فاتنة، بيضاء في لون الخبز، ذات بطن خفيف الاستدارة وعجيزة كالبدر عند اكتماله، طلبا خمسمائة دينار، قال إن هذا المبلغ مستحيل، صمَّما، رفض، نهضا مُعترضَين، قال إنه لا محلَّ للحديث عن مُقابلٍ قبل رؤية الفتاة. وافقاه تمامًا، قالوا: لن تراها فحسب، بل تجرِّبها بنفسك؛ ستُنسيكَ كل من عاشرتَ من النساء. حين استشعروا

جريـان ريقـه، قالوا إن بإمكانهـم أن يخفضوا المبلـغ لمائتين فقط، لو أعطاهم في المقابل فتاةً حلوة تصلح للعمل مكانها، فشـرطها الوحيد ألا تهرب من مَخدوميها، تخشى الشرطة والترحيل، وعدَت مخدومَها بالإتيـان بقريبتهـا كيـلا تُضيع فرصةً للعمـل بالتمريـض.. أعطِنا هذه، نُعطيـكَ الأخرى مقابل مائتي دينار. قال: ليـس عندي خادمات، فقال فيديـا: لكـن لديكَ فتـاة متمرِّدة، رأيناهـا صباح اليوم، تصـرخ صراخًا يجلب النحس ويجرُّ المشـاكل، قال: هاتوا الفتاة أولًا، فقال فيديا: بل ثانيًـا، فلن تحصلَ الفاتنةُ على راتبها حتى تأتي بقريبتها لتعمل مكانها. رفـض الأكـرش، فنهض فيديا قائـلًا: "صدَقَني الناس حيـن قالوا إنك شديد البأس، لكنك لا تُحسِن التفاوض.. كل ما أطلبه منك ألا تؤذيني لو عمِلَت الحسناء في بيت آخر، حسبي أن عرضتُها عليك أولا".

شـرعا في الذهـاب، وترك فيديا نظارة الشـمس كي يتـذرَّع بها في العـودة لاحقًـا. لكن الأكرش بادر بإرسـال صبيٍّ فـي إثرهما، دعاهما لاستكمال الحديـث. قـال إنه سـيقبل بالعرض، علـى أن يقبض ثمن فتاتـه مقدَّمًـا حتى يأتيا بالفتـاة الجديدة. قالا: كم؟ قـال أربعمائة، كما اشـتريتُها. قالا: ليس الجديد كالمسـتعمل، وليـس المبلغ في حوزتنا، لنقتصّ هذا من ذاك. تفاوضا مليًّا، ونجح فيديا نهاية الأمر في تخليص الفتاة مقابل ثلاثمائة دينار، سـاهم فيها بسـبعين فـوق مائة أولى كانت بحوزته من نقود المحامي، بينما سـاهم الدليل بثلاثين، وجمعا المائة الباقية من فتيات البيت صاحبات الفتاة. وهناك أيضًا، في نفس البيت، وجد من تُساعده على الوصول لكريشنا.

19

حين سألتُ المحامي: لماذا لا تأوي الفتاةَ في بيتك؟ ابتسم بارتباك حاول إخفاءه، ثم قال: لأنها عاهر. استأتُ ساعتها من ردِّه القاسي، لكنني اليوم إذ أرقب الموقف من مسافة مناسبة، أجدهُ مُحقًّا على نحو ما. رجل قانون، له بيت وزوجة وسُمعة طيبة، لن يُسيء لكل ذلك لأجل تعاطفٍ عابر.

أما فيديا، فقد صرتُ أتفاءل به وأؤمن بحدسه، منذ حدّثني بما كان بينه وبين العجوز الطيبة كبيرة العاهرات.. سألها فيما تجمع المبلغ المتبقّي لتخليص أنيشكا (الفتاة الهندية)، عن خياط هنديٍّ عجوز، ليس له أثر في محلات الخياطة، يعيش بلا أوراق، ومريض منذ زمن، سألها: "رجل في مثل ظروفه، أتعقِلين أن يقطن بعيدًا عن الحساوي؟"، قالت: "لا، ستجده هنا"، فعاجلها بقوله: "إذًا أين يكون؟".

سألَتْه عن اسم الرجل، طبيعة مرضه، ديانته، وراحَت تُعمِل تفكيرها لترصُد الشخص المقصود. حفَّزها فيديا بقوله: "لا بد أنكِ تعرفين جميع الخياطين، خاصة من يَقبلون بالفتات مقابل عملهم. ملابس الفتيات، ملاءات الأسِرَّة، الستائر الفاصلة.. تذكّري". أخبرَتهُ باثنين

مُحتملَين، يعملان بمفردهما بعيدًا عن محلات الخياطة. يستأجر الواحد منهما مساحةَ قفَصَين من أقفاص الخُضار فوق أحد الأرصفة الملأى بالعابرين، يضع ماكينة مُتهالكة، ويعمل طوال اليوم لا يستُره غير الشمس. لم يبقَ اليوم إلا واحد لا يتجاوز الخمسين، الآخر لا يظهر منذ مدَّة. قال فيديا: "ثمة احتمال أن يكون الآخر من نبحث عنه، كيف أتوصَّل إليه؟"، قالت: "باستطاعة الأول أن يدلُّنا عليه".

كانت تُقدِّر صنيعَه أن تعاطف مع أنيشكا وبادر بتخليصها، لذلك أصرَّت على اصطحابه، قالت: لن يُفيدكَ الوغد بشيء لو رُحتَ بمفردك.. "العاهر تملك الرقاب، إنها الحياة"، علَّق فيديا فيما يُكمِل الحكاية. أفاد الخياط ذو الخمسين عامًا بمكان الآخر العجوز، قال إنه يُدعى كريشنا أو كريشاف، ليس متأكِّدًا، ووعد بأن يصحبَ فيديا لبيته صباح اليوم التالي، ما جعله يعود لبيت الخربوطة بتفاؤل أكبر. تفاجأ بما صارَت إليه أنيشكا، فلم يكن فيديا قد رآها منذ تركنا المكتب العقاريّ، لذا ألحَّ على العجوز كبيرة العاهرات كي ترافقها يومًا أو يومين، حتى تُعيدها سريعًا للوقوف على قدميها.

كدتُ لا أعرف أنيشكا حين دخل بها فيديا مع انتصاف الليل. أحالها التورُّم مسخًا مُثيرًا للشفقة والتقزُّز. عينان ليستا لنفس الوجه، شفاه مشقوقة يشطرُها تجلُّط دموي بارز، وكُرة زرقاء تنتأ من باطن الجبهة، فتشوِّه استدارتها الملساء. حضرَت برفقَتها العجوز الهندية، بطيّات بطنها التي تَبرُز من فراغات الساري البنفسجيّ. حمَّمَتها،

وأرقدَتها فوق فرشةٍ رقيقة في ركن المطبخ، ثم وقفَت تطهو شيئًا على الموقد الكهربائيّ. طلبتُ منها أن تنقلها لغرفة النوم الوحيدة في الشقة، لكنها لم تستجِب، حاولتُ بالكلمات والإشارات حتى اضطُرِرتُ للاستعانة بفيديا، الذي ظل منتظرًا أسفل البناية لربما تحتاج أنيشكا لدواء إضافي. ترجم كلامي للعجوز الهندية، فردَّت بأن رقاد أنيشكا فوق الأرض ضروريٌّ لشفائها. تركتُهم يهنؤون بخُرافاتهم وعدتُ للفندق لأبيت فيه آخر ليلة. لم أجد ليال، فصعدتُ رأسًا لغرفتي ووضَّبتُ حقائبي، ثم جلستُ إلى المكتب أُطالع الهاتف.

كانت تايا قد ردَّت أخيرًا على رسالتي اليائسة، بعد أربعين دقيقة من وقت إرسالها! تخيَّلتُها وقد مكثَت طوال أربعين دقيقة كاملة، تكتب وتمسح بلا نهاية، حتى استقرَّ تفكيرها على الرد المناسب: "هل ثمَّة متاعب؟" لم تُكبِّد نفسها عناء تكرار السؤال طيلة ساعات. "سأضطر للانتقال لشقة قريبة من بيت المحامي، لتسهيل تحركاتنا هنا، الكويت ليست صغيرة كما تبدو". ضغطتُ زرَّ الإرسال، ثم أتبعتُ الرسالة بأخرى: "قد لا يمكنني متابعة قناتك الإخبارية بدءًا من الليلة، أرجو المعذرة".

بدأ شعورٌ طازج بالتحرُّر يسري بداخلي؛ من تايا، من أبي، حتى من ليال. ما عاد ملف أبي يغريني بالقراءة، ولم يكن بي شغفٌ للبحث عن فكاهة جديدة أُرسلها لليال. فقط نمت، نومًا مثاليًّا لا تجود به الحياة إلا نادرًا. في الصباح هاتفتُ المحامي، قال إن فيديا في الطريق

إليّ، سنلتقي ثلاثتنا خلال ساعة، سألتُه: "هل أنقل حقائبي للشقة أولًا؟"، قال: "الأفضل أن تتركها في حقيبة السيارة، فعلينا أن نُسرع بالذهاب".

ثرثر فيديا طوال الطريق، صرتُ أفهم كلامه بشكلٍ أفضل، هو أيضًا صار يفهمني بيُسر، ظل يُحرِّك رأسه فيما أُبدي إعجابي بصنيعه ويُقول: "ثانك يو سير"، حتى أشفقتُ على رقبته. انضمَّ إلينا المحامي، بدا مهمومًا بدرجةٍ ما، وإن بقِي باشًّا كعادته. مضَينا بحرص كبير عبر شارع ضيق خلف سوق الخضَر، بين المارَّة الكثيرين والبضائع المرصوصة، توقَّفنا عند بنايةٍ ذات طابقين أسودين من أثر حريق قديم، وعبَر فيديا نحو الجهة المقابلة، حيث لمحتُ ماكينة خياطة في لون الرَّماد، كلما ظهرَت أخفاها المارَّة. عاد فيديا بعد قليل، قال إن علينا انتظار الرجل حتى يفرغ مما يخيطه. "حاوِل معه، سنُعوِّضه"، قال المحامي، فعبَر فيديا مُجدَّدًا للجهة المُقابلة. دقائق وكان الخياط قد انضمَّ إلينا في المقعد الأمامي، ناشرًا رائحة نفّاذة في فضاء السيارة. قادنا بعشوائية تامَّة، كأننا نُلاحق هدفًا متحرِّكًا، نمشي مسافة قاطعين شوارع متعرِّجة، ثم نعود أدراجنا مُلتفّين حول نفس البنايات. كدنا نفقد صبرنا حين أشار بإصبع مقطوعة نحو بناية من طابقين، لونها أسمنتيّ، تقبع تحت صهريجَي مياه مكوَّرَين. "هنا"، قال الخياط، فاندفع المحامي قائلًا: "مررنا هنا ثلاث مرات من قبل!"، فعاد يؤكِّد: "هنا، هنا".

هبط الخياط وطرق بابًا معدنيًّا، نادى امرأةً تنشر الغسيل فوق السطح، تصايَحا لبرهة، سأل المحامي فيديا عما يقولان، فقال: "لا أفهم أكثر الكلام، يتحدَّثان البنجابية". عاد الخياط بعد برهة وأفاد بما لديه، فيما أخذ فيديا يُترجم؛ الرجل المطلوب يُعرف بكريشنا أناغ، عمره سبعون عامًا، لديهم ماكينةُ خياطة تخصُّه يحتفظون بها فوق هذا السطح ويسعون لبيعها، فقد أخذوها منه سدادًا لديونه، نقلوه منذ أشهر لمصحَّة الآنيت في جليب الشيوخ. علِمنا فيما بعد أن هذه المصحَّة تتلقّى دعمًا غير مُعلَن من سفارة الهند، لإيواء العجزة والمرضى المُزمنين حتى تتيسَّر عودتهم لبلادهم. "الاسم غير مطابق"، علَّق المحامي عبر فيديا، فقال الخياط: "أناغ تعني الخالي من الذنوب؛ قد يكون لقبًا ألصقوه بالرجل".

20

لـم تكن جليب الشـيوخ أفضل حالًا من الحسـاوي، بـل ربما زاد الأمـر سـوءًا كونهـا أكبر بأضعـاف. عانينـا الكثيـر حتى وصلنـا مبنى المصحَّة، مرورًا بتلك الأسـواق الهائلة التي تحتـل الميادين. الأدهى أننـا ما كنـا لنهتدي لوجود المصحَّة بداخل المبنـى لولا تأكيد مندوب الوزارة الذي أرسـله الوزير الأسـبق في إثرنا، فالمبنى لسينما مهجورة ونائية تُدعى سـينما الجليب، مغلق، يتحمَّم وحيدًا تحت الشـمس في فضاءٍ رمليٍّ شاسع.

تركنا السيارة في ساحة رمليَّة تُقابل المبنى، وعبرنا الطريق قاصدين المدخل. وجدناه مغلقًا فهاتفْنا المندوب، قال إن علينا الالتفاف حول المبنى، وسـنجده بانتظارنا أمام بابٍ خلفيّ. مشينا نصف ميل أو يزيد، شعُرتُ كمن يقطع صحراء بلا نهاية، الصهد ينبعث من باطن الأرض، وتبُخُّه السـماء بلا رحمـة، أخيرًا وجدنا المندوب يُلـوِّح نحونا، مررنا خلفـه عبر بهـو ثقيل الهواء، كأنه بيت زجاجيّ، فـي نهايته باب معدني طَرَقه المندوب عدَّة مرات، حتى استجابَت ممرضةٌ قصيرة القامة تضع رداءً أبيض بلا غطاء رأس. أفهمَها فيديا ما جئنا من أجله، فجلسَت إلى

مكتب معدنيٍّ مقشـور الطلاء، ومرَّت بقلمها فوق قائمة أسماء. تحدَّثا مجـدَّدًا، واسـتمرَّت تبحث حتى عثرَت على الاسـم الثلاثي: كريشـنا موكيش جاني. موجود!

تسارع نبضي من طول ما ترقَّبتُ اللحظة.. مضينا خلفَها صوب قاعة كتيمة؛ بدَت قاعةَ عرضٍ سينمائي منزوعة المقاعد، تحوي بعض الأسرَّة على الجانبين، وعلى الأرض عدد لا نهائي من الأبسطة الزرقاء يرقد فوقها عجائز كالمومياوات. أشارَت من بينهم لعجوز ضامر عاري الجذع، يلفُّ نصفَه السفليَّ بقماش بالٍ، ويضع تحت رأسه بطانيةً مطويَّة. "أبي كريشنا"، هكذا ترجم فيديا قولها، قبل أن يقعي بجوار العجوز يتحدَّث إليه.

رنـوتُ إليه غيرَ مصدِّقٍ أنه كريشـنا المقصود؛ أن مسـعانا لعدَّة أيام ينتهي عند هذا البسـاط، أمام هذا الجسـد اليابـس كتمثال صدِئ. ظل ساكنًا لا تطرُف أجفانه لحديث فيديا. عيناه مطموسـتان أسفل سحابة بيضـاء؛ الأحرى أنها عيـن واحدة، فالأخرى كانت شـبه مخفيَّةٍ تحت عدسة ضبابيَّة وحيدة في نظارته.

أشـار إلـيّ فيديا كي أقتـرب من العجـوز. حاول أن يلفتـهُ نحوي، سألني عن اسـم والدي، وذكَـرَه للعجوز عدة مرات، لـم يبدُ عليه أي اهتمـام، تدخَّـل المحامـي سـائلًا فيديـا أن يترجـم كلامه بدقَّـة، قائلًا للعجـوز: "نحـن هنا لخدمتـك، بتكليف مـن صديقـكَ القديم رأفت عبد الصمد رشدي، هو مَن طلب إلينا قبل وفاته أن نبحث عنك، حتى

ننقلكَ لمسكن مناسب حسَن التهوية، تقضي فيه ما شئت من الوقت دون مقابل. هذا ابنه الوحيد، الدكتور هاني رأفت، قدِم خصّيصًا من أميركا ليُنفِّذ وصيَّة أبيه، هل يوافقكَ ذلك؟".

مكث العجوز يرنو نحو السقف المرتفع، وحين طال الصمت كرَّر فيديا عليه السؤال، حتى ندَّ عنه صوتٌ خفيض محشرَج. مال فيديا نحوه، ترجم كلامه الذي أثار اندهاشنا: "الأفق يقترب. سأذوب فيه غير بعيد. فَرشتي مسكني. لا حاجة بي لآخر".

يبدو أن الحيرة أصابَتنا جميعًا، فقد تدخّلَت الممرضة طالبةً منا إنهاء الحديث عند هذا الحد، فـ"أبوها كريشنا" يحتاج الراحة والسكون كباقي النزلاء. حاول المحامي مواصلة الحديث، لكنها ظلَّت ترجونا بإيماءات كثيرة، قادتنا لمكتبها وقدَّمَت إلينا مشروبًا دافئًا حمضيَّ الرائحة، تعوم على وجهه بذورٌ تُثير الغثيان، ما منعني من تذوُّقه. قالت إن أباها كريشنا يُعاني آلامًا شتى، وينتظر انتهاءها بوداعةٍ وصبر، وأن جهودنا مُثمَّنةٌ تمامًا لكنها قد لا تُوافقه. ردَّ المحامي بأن ثمة أبعادًا أخرى للمسألة، فهي تمس أشخاصًا آخرين وليس العم كريشنا وحده. استوقفَتني لفظة "العم" حين ترجمها فيديا، جعلتني ألتفتُ نحو المحامي لأبدي إعجابي بدبلوماسيَّته، لكنه بدا مُنشغِلًا بحديثه مع الممرضة. لفتَتني أيضًا شجاعته الواضحة، فقد أقدَم على ارتشاف حسوتَين من المشروب المقرف، أظنها على سبيل المجاملة. قطع الحديث جرسٌ صدح خلف مكتب الممرضة، فإذ بها

تنهض وتدلف إلى القاعة مجدَّدًا، تاركةً أعيننا لمباراة صامتة في الكرِّ والفرّ. عادَت بعد برهةٍ لتخبرنا (بكثير من التسامح) أن أباها كريشنا يرغب في الحديث إلينا. عُدنا متلهفين، كأن الداعي أبونا نحن أيضًا. رمقني العجوز هذه المرة من خلف عينيه الضبابيَّتين، مثيرًا في باطني رجفةً خافتة. تفوَّه بجُملٍ قصيرة مُتقطِّعة، ترجمها فيديا في صيغة أسئلة قصيرة؛ هل أنت ابن المقاتل؟ أومأتُ موافقًا، ثم نافيًا، أربكني السؤال، من المقصود.. أنت ابن القائد رأفت؟ أومأتُ بثقةٍ هذه المرة، وقد أخذ قلبي يخفق بداخلي. أسبل الرجل عينه الغائمة بعد برهة، توتَّرتُ من طول ما نظر إليّ.. قال: "هل ذهب القائد قبلي؟"، ثم عاد لإطراقته الوادعة صوب سقف القاعة.

قادَتنا الممرضة نحو الخارج، طلبَت إلينا أن نعود بعد ساعتين، إذ ربما يكون أبوها كريشنا قد نال قسطًا من الراحة واستعاد قدرته على التواصل معنا، بعدما يحين موعد علاجه المخفِّف للآلام. اقترح المحامي أن نذهب لتناول الغداء ثم نعاود المجيء، وارتحتُ كثيرًا للخروج من هذا المكان الكئيب. لبرهة شعرتُ بعدم الرغبة في المواصلة؛ ألا أخوض مزيدًا في أرواث العالم، ألا أبحث في جوفها عن أي مكسب.. حالةَ اشمئزاز قد تكون، أو يأس، ما أدركتُه بوضوح هو حاجتي للابتعاد عن هذا المحيط.

بعد مسافة قصيرة عاد للطريق بريقه المعتاد؛ توارَت البناياتُ الكئيبة والأسواق المكتظة خلف عمائر زجاجية شاهقة، تلمع تحت الشمس

كنِصال مغروزة في بطن السماء. عادت الإشارات تنتظم، والكاميرات ترقب السيارات كعيون لا نهائية، كما عدتُ أشتمُّ رائحة العطر الأنيق التي يفوح بها المحامي طوال الوقت، كأنما يُفرزها من جلده. تراخى وجيب قلبي بالتدريج، مُستجيبًا لتبدُّل الحال، وشعرتُ بالجوع ينفذ لمعدتي واخزًا ودون مقدّمات.. قد تكون وخزةَ الجوع تلك ما جعلني أتساءل في صومعة الصمت: لماذا كتبَ الله علينا الألم، ألم يكن ثمَّة خيارٌ آخر؟

21

بضعة أيام كانت كفيلةً بتغيير الكثير. تعافَت أنيشكا بدرجةٍ ملحوظة؛ تواءمَت عيناها المرِحتان واستعادَت جبهتُها استدارتها الملساء، كما كشفَت عن موهبةٍ أصيلة في صناعة البهجة، خبِرتُها في قهقهات العاهر العجوز، وفي حماسة فيديا لترجمة قفشاتها أثناء مروره اليومي، ثم تأكّدتُ منها حين انتقل العم كريشنا لشقتنا الجديدة، تمهيدًا لانتقاله مع أنيشكا والعجوز للمُلحق ذي الحوش المفتوح، والصبّارات الصبورة المُزهِرة.

لا زلتُ أستغرب صيرورة الأحوال كلما استعدتُها؛ كيف تحوَّل العم كريشنا من تمثال صدئ يرمق الفراغ، لإنسان ذي قلبٍ نابض وعينَين شغوفتَين بمراقبة الحياة. الأغرب كان تحوُّل موقفه من الرفض القاطع لفكرة انتقاله لبيت جديد، إلى الحماس التام. أذكر كيف حاول فيديا إقناعه وطمأنته، كيف ترجم له كلام المحامي حول إمكانية علاجه في مكان أفضل تجهيزًا، ومنحِه الحياة الكريمة التي يستحقها. لم يعبأ حينها بأيٍّ من ذلك، لم يُبدِ ولو لفتة عابرة تشي باستماعه، حتى حوَّل المحامي دفَّة الحوار بأن سأل العجوز: "ألا تُريد استعادة ماكينة

الخياطة؟"، هنا بدا عليه الاهتمام، فالتقط فيديا الخيط وراح يجذبه: "الماكينة موجودة، رأيناها بالأمس!"، فأضاف المحامي ما ترجمهُ فيديا: "تكاد تهلك في عراء السطح".

بمجرد أن وعدَ المحامي كريشنا العجوز بسداد ديونه واستعادة ماكينته، انبسطَت أساريره المتيبّسة، كأنما تلقّى وعدًا باستعادة ابنةٍ فقدَها أو معشوقةٍ هجرَته. بدت محبّته لقطعة الحديد هذه أكثر من الحياة. أخذ يُسِرُّ بأسئلة عديدة لأذن فيديا؛ كيف وجدنا الماكينة، هل ثمة بكرة خيط تعلوها، هل نحن واثقون من إمكانية استعادتها. طمأنه المحامي من هذه الناحية، وطمأن الممرضة لوجود سيدة ذات معرفة كبيرة بالتمريض، تنتظره في مكان حسن التهوية. "سنُوفِّر له ما توصين به"، أكّد عليها بابتسامةٍ واثقة، فطلبَت منا إمهالها ليومين حتى تُبلِغ رؤساءها. نقلناه بعد يومين للشقة الجديدة، عاد لعينيه بعض الألَق حين وجد العاهر العجوز، ثم استعادتا تدريجيًّا كامل البريق، فيما يُتابع أنيشكا تسترد عافيتها بسرعة مذهلة.

أنفَذ المحامي وعدَه وأحضر ماكينة الخياطة، وضعناها بحذاء أريكة كريشنا العجوز، التي لا يُفارقها إلا لدخول الحمّام، وحين أفاق من نومه رنا إليها بعينَين جامدتَين، سرعان ما افترَّت شفتاه عن بسمةٍ حانية، كانت أنيشكا قد أزالت عنها التراب والصدأ قدر ما استطاعَت، فبدَت الماكينة كأنما تحمَّمَت واستعدَّت للقاء. مدَّ العجوز يده وملَّس بأصابع جافَّة على العجلة الجانبية، وأدارَ عمود البكرة بين إبهامه

وسبّابته، ثم نظر لأنيشكا وقال ما فسَّره فيديا: "يسألها إن كان لديها ما تريد رتقه".

في هذه اللحظة بالتحديد، خطَر لذهني ولذهن المحامي فكرةُ استبقاء أنيشكا مع العم كريشنا في بيته الجديد، لا أذكر بدقة من بادر الآخر بطرح الفكرة، لكنها بدَت حين طرحناها كأنما نبتَت في عقلَينا في لحظة تخاطُر نادرة. دبَّت الحياة بصخَب في أرجاء الشقة الصغيرة، بعنفوان مدعوم بضيق المساحة، فباستطاعة الضيق أن يصنع الألفة قدر ما يُجيد صناعة البغضاء. لم يكن بمقدور أحدِنا أن يُصدِر صوتًا دون أن يسمعه الآخرون، والمرأتان لا تكُفّان عن التعليق والضحِك. شعرتُ بالضيق أول الأمر كوني لا أفهم ما يدور، ثم صرتُ أُضاحِكهم مع الوقت.

هيمنَت لغة الإشارة بيني وبين المرأتين، أما العم كريشنا فكان يملك عينَين مطموستَين أفصح من أي لسان. جمعَتني به عدَّة أمسيات، استطعتُ خلالها بمعونة فيديا أن أستدرجهُ لتلك الفترة من ماضيه، التي جمعتهُ بأبي. ومع توالي الأمسيات، صار هو من يشرع في الحكي دون استدراج، وإذا بأبي يتجسَّد في مخيلتي على نحو غير متوقع، ما جعلني أدوِّن ترجمة فيديا في نوتة صغيرة لأقصُّها على ياسر لاحقًا، منذ ظهر من جديد على الواتساب.. راسلني يومًا يعتذر عن غيبته الطويلة، ويُبدي في الوقت المناسب اهتمامه بمعرفة التطوُّرات، فصرتُ شغوفًا بتسجيل الحكايات عبر رسائل واتساب صوتية أبعثها

إليه. كنتُ ألجأ لفيديا أحيانًا ليُعيد تفصيلةً نسيتُها أو يشرح أبعادًا أثارَتها ردود ياسر، وفي أحيان أخرى أضع الترجمة جانبًا، وأسجِّل بطريقتي ما استشفَّيته من عيني كريشنا القلِقتَين.

انضم المحامي لمجلسنا عدة مرات، خاصة حين استقررنا بعد بحثٍ جهيد على البيت الأنسب للعم كريشنا؛ مُلحق الفروانية. حصرنا اختيارنا أول الأمر في منطقة الفروانية، التي لا تبتعد كثيرًا عن جليب الشيوخ، ثم راقَني أحد الملاحق (هكذا يسمّون البيوت الشعبية) بتصميمه الفريد، حين راح المحامي يشرحه باعتزاز.. فِناؤه الداخلي غير المسقوف، الممرُّ المحيط بالفناء، الذي يُفضي لغرف صغيرة من جهة، ومن جهة أخرى للمطبخ والحمّام، جميع النوافذ تَفتح على الممرِّ والفناء الداخلي، فتمنح سكان البيت خصوصيةً تامة. أكثر ما لفت انتباهي كان الصّيري؛ السلم المُفضي لسطح البيت من رُكن الفناء المفتوح. دعاني خشبُه العتيق لارتقائه، وهناك فوق السطح وجدتُ أسِرَّةً خفيفة من جريد النخل، ذات أحجام مُتفاوتة، كأنها عائلةٌ صغيرة في لحظة احتضانٍ حميميّ. تبِعني المحامي، وشرَح لي كيف يُفضِّل سكان البيوت الشعبية النومَ فوق الأسطح خلال أشهُر الصيف اللاهِبة.

نصَبْنا سريرًا حديديًّا للعم كريشنا في قلب الفناء، تعلوه "عمّارية" من الجريد والحصير تقيه الشمس الحارقة، صار يرقد فوقه طوال اليوم، وعليه يجلس إلى ماكينة الخياطة يخيط ملابس هنديَّة بسيطة من أقمشة

الساري القديمة، فيُدخل البهجة على قلبَي أنيشكا ورانهيتا (العاهر العجوز). كانتا تُسارعان لغرفتهما فتُبدِّلان ملابسهما دون انتباه لغلق الباب، ما أثار استغرابي وبهجة العم كريشنا. سرعان ما أحبَّت العمة رانهيتا سُكنى البيت، وقطعَت الطريق على القوّاد الأكرش باستبدال خط الهاتف. استقرت نهائيًا بجوار العم كريشنا وابنتها أنيشكا (هكذا صارت تُناديها). فرِح ياسر فرحًا غامرًا بهذه التطوُّرات، فازددتُ يقينًا بأنا على الطريق الصحيح، لذلك لم أُمانع في اقتصاص المزيد من أرصدة أبي لتيسير معيشة العم كريشنا.

قبل سفري بيومين، أمضيتُ الليل بطوله فوق سطح المُلحق، أُفرِّغ الرسائل وأدوِّن ما أخبرني به العم كريشنا بخصوص أبي. مرَّت لحظاتٌ تمنَّيتُ فيها لو كان أبي من يقصُّ الحكايات بنفسه، لو أنه يُجالسني على السرير المُتقفِّص فوق السطح، يحذف جملةً ويستبدل بها أخرى، يُضيف معلومةً أو يُصحِّح رقمًا، صار أبي حاضرًا لدرجة فاقَت حضوره في عام الكرب، ذاك العام الذي أمضاه معنا في بيت هليوبولس. عدتُ أتصفَّح أوراق ملفِّه، أصِلُ أطراف الحكاية من هنا وهناك في حبكة منسجمة، جرَّبتُ سردها لأول مرة ليلة سفري، حين اصطحبتُ ليال لتناول العشاء.

22

كأنني تفاجأتُ بانقضاء مهمتي في الكويت. أربكَتني كثيرًا كلمة المحامي حين صافحني مُغادرًا مُلحق الفروانية؛ "سنفتقدك"، قالها بإحساس بدا صادقًا، وأخبرني بترتيبه سفري للنمسا بعد يومين. أبديتُ امتناني لما قام به طوال إقامتي، وأوصلتُه حتى باب السيارة، عندها داخَلني بعدها شعورٌ عجيب بأني سأفتقِد الكويت؛ المُلحق على الأخص، العم كريشنا، أنيشكا، رانهيتا، المحامي اللبق، حتى فيديا، ثمة رابطٌ صار يربطني بهؤلاء، بدا مُبهمًا حين حاولتُ تحديدَه، فقد كان الخيط الواهن الوحيد الذي يضمُّ الجميع هو أبي غير الموجود.

نحيَّتُهم مؤقتًا حين تذكّرتُ ليال، ندمتُ أن أرجأتُ التعرف إليها لأكثر من أسبوع، راسلتُها أرجوها في اللقاء؛ "لن أسافر قبل أن آكل أكلة شامية لا تُنسى"، جاءني ردُّها: "متى تُغادر؟"، فأجبت: "بعد غد".. "غدًا نلتقي في السابعة".

هكذا رشقَني الحظ بقُبلة أخيرة، فانشغلتُ أُعِدُّ للقائها. ابتَعتُ قميصًا أبيض جديدًا من مول قريب، فقد كان يُساورني قلقٌ مُزمن من اصفرار ياقاتي البيضاء. فكَّرتُ في حمل باقة ورود، ثم فطِنتُ لكونها

فكرة مبتذلة، فأخذتُ أذرَع المول الهائل بحثًا عن هدية، حتى مررتُ بفاترينة سواروفسكي ووقع بصري على جراب أبيض مُرصَّع بألماس دقيق، تتوسَّطه البجعة الماسيَّة الرائعة. أبدَت إعجابها البالغ به على العشاء، فيما تدفِس هاتفها بداخله.

مضَت الأمور لطيفةً بيننا، فقط لطيفة، ليست متوهِّجة كما أملت، حتى نفد رصيد الكلام المزوَّق وسرحتُ أبحث عن طرف جديد للحديث، فإذا بها تقول: "لماذا تركتَ الفندق سريعًا؟ ظننتُكَ سافرت".

شرعتُ أقصُّ الحكاية من أولها؛ تِركة أبي، شرطةُ المبهم، رحلة البحث في الكويت، وما أفضَت إليه من معرفة كريشنا، وأنيشكا، ورانهيتا.. وأبي! وجدتُني أقول ذلك، ولم أكن أُدركه حتى هذه اللحظة. أخبرتُها عن أهم اكتشافٍ خلال هذه الرحلة: حقيقة أبي، كيف فاجأني كونه لم يترك الكويت بعد أيام من الغزو كما أخبرَنا، بل إنه مكث هنا وشارك في المقاومة، بعدما خسِر صديقه شهيد دسمان في اليوم الأول. تألَّم كثيرًا حين باغتَه خبره، فقد تحدّث إليه عبر الهاتف قبل استشهاده، طالبًا إليه أن يظل مُحتمِيًا بداخل القصر حتى يلحق به. لكن الموتَ سبقه إليه.

أقسم أبي على الثأر، جنَّد أصدقاءه ورجاله من أفراد الأمن، جمع السلاح من مخازن الشرطة وبيوت الأثرياء، راقب كتائب الجنود، تابع تحركاتها، معسكراتها، طُرقَ تزويدها بالطعام والذخيرة، ثم

رسَم العمليات، إحداها كانت عملية اختطاف كريشنا بعد أسبوع من الغزو.

قصّ عليّ كريشنا هذا الفصل من حكاية أبي، فقد عمِل في معسكرٍ أقامه الغُزاة في نادٍ رياضي، حاله كحال العديد من الأسرى الكويتيين والمقيمين. أوكلوا إليه مهام الإعاشة؛ التغذية ورتق الملابس على الأخصّ. استعان أبي برجاله لمراقبة من حذوا حذو كريشنا، اعتبروهم خونةً يُناصرون الغُزاة، فيما وصَف كريشنا نفسه بالمسكين الباحث عن عمل يقتات منه مع أمه المُسِنَّة، فأمثاله لا موقع لهم على خريطة التزويد بالغذاء والأموال أثناء فترة العصيان المدني.

خطَّط أبي لاختطافه عند خروجه لجَلب الطعام من جمعية تعاونية قريبة. نثروا كمية من الزجاج المهشَّم في طريق عودته، وانقضّوا عليه حين أوقَف السيارة، ساقوه لمخبأهم، قيّدوه، هدَّدوه بالقتل لو لم يستجِب لمطلبهم، مُتَّهمينه بخيانة الوطن الذي عاش في خيره. كان مطلبهم أبعد من خياله؛ أن يعود بالسيارة لداخل المعسكر، بعد أن يقوموا بتفخيخها. صار يرجف، فيضربونه، يصرخ، فينتابهم هلعٌ أكبر من هلعه. تراجعوا نهاية الأمر حين أخبرهم أن بداخل المعسكر أسرى كثيرين، أغلبهم كويتيون، من بينهم فتياتٌ يتعرَّضن لشتى صنوف الإهانة، حتى الجنود بالداخل مساكين، جَوعى طيلة الوقت، مهانون ممن يفوقونهم رتبة، في حاجة لمن يواسي وحدتهم ويُطمْئن نفوسهم.

لـم يتركوه حتى تعهَّد بألا يعود للمعسـكر، أوصلوه لبيته، وأخذوا السيارة لتفخيخهـا فـي موقع آخر. فـي المقابـل تعهَّد أبي بـأن يُدرج كريشـنا وأمه المُسِنَّة في قائمة الإمداد بالمؤن والأموال، دون أن يمنعهُ ذلك من البصق في وجهه قبل مفارقته.

احتفـظ أبي بقائمة الإمدادات تلك، ومنها شـكّل بعد التحرير أول جمعية أهلية تدعم أُسر الأسرى الكويتيين، ومن خلالها عاود الاتصال بكريشنا، ليبدأ الفصل الثاني من حكايتهما.

اتّسـعَت عينا ليال عدة مرات، شـردَت عن طعامهـا وراحَت تُدوِّر الشـوكة حول محورها في طبق الشـاكريَّة، فيما تعلَّق بصرها بعينيّ في تناغم أشـبه برقصة لاتينية. صرتُ مدينًا لأبي أن خطف كريشنا وبصق في وجهه، تاركًا لي حكاية مثيرة تُزَجّي الوقت وتُدهش ليال. عاودَتني ذكرى مُجسَّـم روكـي مقاتل الكومانـدوز، ألهمتني بعـض الإضافات ألهبـتُ بها القصة، حتى توقفتُ مُحتارًا أمام عتبة الفصل المأسـاويّ.. هنـا قفزتُ لمشـهد من صنـع خيالي، فيه يتسـلُّل أبي لخـارج الحدود حاملًا هويَّة عمي الطبيب، البعيد عن دوائر السلطة.

ختمْنـا العشـاء بتمـاري الكعك المحشـوة بمـوز مُسـكّر، تناولتُ شـيئًا يسـيرًا منها وأزحتُ الطبق مُقرّبًا منفضة السـجائر، سألَتني ليال: "ألا يُعجبـك؟"، فقلـت: "إنه رائع، لكني امتـلأتُ كثيرًا، ولا أريد أن أُفسد السهرة".

حدجَتني بنظرة ذات مغزى، فتبسّمتُ مُلاطِفًا. هذه فتاةٌ خبِرَت الكثير من المبادرات الخفية، تلتقطها بيُسر مهما توارَت بين الكلمات. قالت عيناها: "الآن يبدأ اللعب على المكشوف"، شعرتُ بارتباك حيال هذا التعرّي، استدعيتُ النادل وطلبتُ الحساب هاربًا من عينَيها الكاشِفتَين. شكرَتني بعبارة مقتضبة، فقلتُ إنني من عليه الشكر، وقمتُ لأجذب كرسيِّها وأساعدها على النهوض، منحَتني ابتسامتها التي سلبَت لُبّي عدة مرات من قبل، لكنها في تلك اللحظة فقدَت مفعولها، بل إنها ذكّرتني بتايا.. اندهشتُ لكوني لم أُحدِّثها منذ أيام، غمرني شعور ثقيل بالخِزي، بالتعرّي المأساوي! انطفأَت جذوة المغامرة فجأة، واستلبني شرودٌ جعلني بالكاد أُحاذي خطواتها فيما نتمشى صوب الساحة الخارجية.

توقفَت أمام سيارة هوندا وردية اللون، فتحَت بابها قائلة: "إلى أين؟"، تبخّرَت من ذهني كل الخيارات، بقِي خيار وحيد: "إلى البيت". مرَّت برهة قبل أن تقول: "إذًا سأوصلك".

لكني عاجلتُها بقولي: "سأستقل تاكسي، الفروانية لا تليق بأناقتك".

23

570 شـهيدًا..512 أسـيرًا.. 93 مفقودًا.. 64 حالـة اغتصاب موثَّقة من إجمالي يتجاوز السـتمائة حالة وِفق تقديرات غير رسمية، وخسائر تعـدَّت السـتين مليـار دولار.. هكـذا سـيُلخِّص التاريخ وقائـع الغزو العراقـيّ قصيـر الأمـد لدولة الكويـت، وقديمًا قالـوا إن الكذب ثلاثة أنواع: كذب أبيض، وآخر أسود، وأرقام.

كـم هـي كاذبة هذه الأرقـام، الحقيقيـة الموثَّقة، كم هـي مُخادعة، مُزيِّفـة، تُحيـل الإنسـان لرقـم أُحـاديٍّ لا يُضيف ولا يُنقِـص. هل كان حزنكـم ليـزداد لو أضفـتُ واحدًا لحصيلـة الـ 570 شـهيدًا؟ هل كان سـيُهوِّن عليكم ولو قليلًا لو صار الرقـم 569؟ الفقيد في كتب التاريخ رقم لا يعني الكثير، لا أبناء له نهشَـتهم الحياة من بعده، لا أم له تُضرِم النـار فـي قلبها كل مسـاء أمـام صورته، كـي تُنضِج الحزن في نفسـها وتُحيله صمتًا أبديًّا.

سـأذكر لكم واقعةً تكشف هذه الأرقام المخادعة، والعادلة في آن، فلا شيء يساوي بين البشر مثل رقم إجماليٍّ في مرجع تاريخيّ، لكنني أحذِّركـم؛ فواقعةٌ مـن هذا النوع ربمـا تحرمكم من لذَّة تناول العشـاء

بعد انتهاء المحاضرة، فمَن كان منكم حريصًا كل الحرص على التلذُّذ بعشائه، فعليه أن ينزِع سمّاعة الترجمة الفورية حالًا.

ولمَـن قـرَّر أن يواصل السَّـماع أقـول: كان يمكن لهـؤلاء الـ 570 شـهيدًا أن يكونـوا 563 فقط، لولا أمر عاجل صدر عن ديوان الرئاسـة العراقـيّ إلـى وزارة الصناعـة والتصنيـع العسـكريّ، "بسـحب جميع المكائـن والمعـدّات الضروريـة والثمينـة مـن محافظـة الكويت إلى المحافظات الأخرى"، هنا سـارعَت قوات عراقيَّة باقتحام مؤسسـات حكوميـة وتعليمية وعلاجية وتفريغها مـن محتوياتها الثمينة، من بينها حضّانـة أطفال رُضَّع مُبتسـرين، حُمِلَت سـرائرُها النظيفة الحديثة إلى المحافظـات الشـقيقة فـي العـراق. وبطبيعة الحـال، لم يجـد الجنود المقتحمون هذه السرائر فارغة، بل إنهم أفرغوها من محتواها البشريّ الدقيق؛ سبعة رُضَّع مُبتسرين ماتوا على الفور، دفنهم الجنود في مقابر منطقة الرقَّة، وتم إدراجهم في عداد الشهداء.

ثمَّـة رقم آخـر أقل قيمة بكثير، فليـس إلا رقمًا مُفردًا لا يُمثِّل شـيئًا يُذكـر، لـو أضفنـاه أو خصمنـاه من رقـم إجمالـيّ. هذا الرقـم يُدعى: نـوّاف جاسـم الحويل. هذا النوّاف ضابط شـرطة، تـم اعتقاله في أيام الغزو الأولى، اقتَحم بيتَه ذات يوم عسـاكر مُدجَّجون، سألَت أمُّه: ماذا تريدون؟ قالوا: السـلاح، بكَت، توسَّلَت إليهم لكي يكفّوا عن تحطيم البيت، قالت: ليس لدينا سلاح، ولا لدينا حتى من يأتينا بطعام، أعيدوا إلينا ولدنا أرجوكم. فقال الضابط المسـؤول: على أمركِ، حالًا سنأتي

به. وبالفعل، في السادسة من نفس اليوم أتوا بنوّاف، مُهلهلًا جاء، زائغ البصر، لم يتعرّف أمه ولا أخواته.. حسبهم أنه جاء. طلب ماءً، فهرعت أمّه لسقايته، وكل الجندي الكوب فأسقطه على الأرض، بكت الأم وقالت: ليش يا وليدي حرام، كلنا أولادم! فزجرها بقوله: قولي له أن يعترف. قام نوّاف من محاولةٍ يائسة لجمع الماء، فصوَّب الجندي رشاشه لرقبته، وأرداه قتيلًا كما الكوب المسكوب، فصار رقمًا إضافيًّا لا يمثّل الكثير.

هناك واقعة أخرى، ليس لها أي وزن في ميزان الأرقام، فلا يجوز إدراجها في عداد القتلى ولا الأسرى ولا المفقودين، غير أنها تزن في قلبي حزنًا أثقل من الرصاص، ما لن تُعيرُه مراجع التاريخ ولا تقارير المنظمات أهميّةً أبدًا؛ تلك واقعة اغتصاب سيدة نمساوية، جميلة كزهرة، ملساء كوجنة رضيع، خرجَت ثالث أيام الغزو ضمن مظاهرة نسويّة، تحمل شعارًا كتبتهُ أناملها الدقيقة مناهضًا للعدوان، مشَت طريقًا طويلًا بين الرميثية والجابرية، وقريبًا من مخفر الجابرية سمعَت إطلاق نار، تفرَّقت من حولها النسوة، ووجدَت نفسها بين مجموعة صغيرة، سرعان ما سقطَت إحدى المتظاهرات، فتقدَّم منها جنديٌّ أفرَغ في جسدها خزينة رشّاشه، انتابها الرعب الخالص، ركضَت صوب حديقة على حافَّة الطريق، واستدارَت حول نخلة تحاول الاختباء، أمسكَت بها قبضةٌ في صلابة كلّابةٍ حديدية، كانت لجنديٍّ عراقي يبول في الحديقة، لم يكد يفرغ من بولَته، أمسك بها فيما يمسح

عضوَه في لحاء النخلة ليستبرئ من البول، اقتادها نحو مدرعةٍ وربط عصابةً حول عينَيها الخضراوَين.

عاشَت ساعاتٍ كمن قُبِرَ حيًّا، ثم وجدَت نفسها حبيسة فصلٍ مدرسيّ، يغتصبها الضباط والجنود تباعًا صبيحة كل يوم وقبل خلودهم للنوم، بدافعٍ أقرب للعادة وتنفيذ الأوامر، فبعضهم يبذل مجهودًا بالغًا كي يبلغ أدنى هامش انتصاب، أحدهم كان ضابطًا بزبيبة صلاة في حجم حبة القراسيا، يُدرِج آيات القرآن ومختارات الحديث في كلامه، يسأله الجنود في مسائل شرعية فيُجيب بطلاقة، شدَّ ما عذَّبَتها معرفتُها باللغة العربية، فقد جعلتها تترقَّب مصيرها مع كل جملة، كان يفرغ من مسألةٍ جدليَّة طويلة، ثم يأمر جنوده بأن يأتوه بالسبيَّة، فيُجرجِرونها إليه ويُمدِّدونها أمامه فوق طاولة المكتب، يوثقون أطرافها، فتشرع في الارتجاف والأنين المذبذب المستمر، سرعان ما يأمرهم بغضِّ أبصارهم، فيكشف نصفه السفليّ ويرشق خنجره السميك في أحشائها المُتهتِّكة، انفجر صراخها ذات مرَّة أعلى من المعتاد، شقَّ سقف الفصل وأرجف ضوء النيون الكابي، ما أثار فضول المحيطين، وجدوه يُزرِّر بنطاله ويمضي، فمضوا خلفه تاركين السيِّدة تتأمَّل بفزع بطنها المصبوغ بالدماء، كان الضابط قد حفر أسفل سُرَّتها بسنِّ الموسّي لفظة "الله أكبر"، تتوسط ثلاث نجمات كما في العلَم العراقيّ.

هذه السيدة تجلس الآن بينكم، رقمًا ستُسجِّله سجلّات الحضور، لن يدعم نجاحَ المحاضرة أن يُضاف رقمٌ مُفرد لإجمالي الحاضرين، لكن وجودها يُمدُّني بشجاعةٍ لم أعرف يومًا مثيلها، أنا من خضتُ ثلاثة حروب كمقاتل كوماندوز. أرجو من السيدة الشجاعة لاريسا متيس أن ترتقي المسرح.

كلمة معالي السفير/ رأفت عبد الصمد

أمام اللجنة الفنية الفرعية التابعة للجنة الصليب الأحمر الثلاثية

الكويت، 1998

24

على مقربة من سرير العم كريشنا، وعلى ضوء مصباح كيروسين يستخدمه الكويتيون في رحلات البر، جلستُ ليلة السفر أُقلّب في أوراق أبي، بحثًا عن ماهية السيدة الشجاعة لاريسا ماتيياس. قد يكون الفضول ما دفعني للتأكد من كونها نفس السيدة التي تزوّجها أبي مع بداية الألفية. شيء ما حدّثني بأنها غريمة أمي، تلك التي طعنَت كبرياءها الأنثوي، وأحالَتها من زوجة غاضبة لأنثى مغدورة. لم أجد أية ورقة تُشير إليها بخلاف الكلمة التي ألقاها أبي أمام لجنة الصليب الأحمر. لملمتُ الأوراق وأعدتُها للملف، استوقفني العنوان مجددًا؛ السفير رأفت عبد الصمد. هل ألقى أبي الكلمة بوصفه شاهدًا على الحرب، أم بوصفه سفيرًا؟ متى صار سفيرًا، وكيف؟!

كان الجو خانقًا، والرطوبة تحجب عني النعاس. رقدتُ أُطالع الهاتف وأستجدي النوم، استوقفَتني أيقونة جوجل الزرقاء، تساءلت: لماذا لا أجرب البحث في أرشيف البشرية الإلكتروني، الذي أهدَتهُ أميركا للعالم؟ كتبتُ لاريسا ماتيياس بطُرقٍ مختلفة، إحداها بالعربية. لم يظهر شيء ذو بال؛ نساء وفتيات من عرقيّات شتى؛ رومانية،

برازيلية، يونانية، ألمانية، إحداهن عالِمة، والأخرى عارضة إيروتيكية حسناء لها عدة فيديوهات على اليوتيوب. فتحتُ الفيديو تلو الآخر، بدَت مفتعلةً وساذجة.

فكّرتُ في الصعود لسطح المُلحق، إذ ربما تعبر نسمةٌ مغامِرة. هناك انطرحتُ فوق أكبر سرير مُقفَّص، وأخذتُ أُقلّب مرة أخرى في اليوتيوب. ضغطتُ أيقونة الاشتراكات، ورحتُ أُطالع القنوات التي انضممتُ إليها على مدار عشرين سنة، فارتسمَت أمامي خريطةُ اهتماماتي الآخذة في التحوُّل، كأنني عدة أشخاص تناوبوا ارتداء نفس الجسد. لاحَت قناةٌ أسفل الصفحة، لم أتبيَّن صورتها أول الأمر؛ فتاة مغمضة العينين، مُضيئةٌ كالقمر، ترتدي فستانًا أسود على خلفيَّة سوداء، وتُمسك بمايك أسود، فلا يبقى مرئيًّا غير بَشرتها الوضّاءة وشَعرها الذي في لون الشامبانيا. كانت ساندي! تبدو في الصورة أكبر عمرًا بكثير، أذهلني صوتها كذلك حين شغّلتُ عدة فيديوهات، ربما ضايقني الصخَب، واستفزتني ملامسات صديقها الملوّن، لكن صوتها ظل يلمع كقطعة الماس. كم كبرَت هذه البنت! شعرها المصفّف بعناية، مكياجها اللافت، رقبتُها الممدودة صوب السماء، استدارة نهديها، انحناءة خصرها الذي ينافس خصر التشيلو في ميوعته. بدا وجودها (كما التشيلو الذي تمسك به) شاذًّا عن محيطها الصاخب، رغم ذلك كانت مندمجة تمامًا. صرتُ أؤكد لنفسي أنها ساندي فتاتي الصغيرة، فأجد القلق يُناوشني ويُفسد عليّ المشاهدة،

ثم يشدهني صوتها كأنه معجزة تتحقق أمامي، فأقول: لعلّي لا أفهمها جيدًا. اندهشتُ لكوني أتأملها كشخصٍ التقيه لأول مرة، ثم انتبهتُ لكوني قابلتُ ماضيَّ بنفس الدهشة قبل لحظات. وجدتُني أضغط زر الإعجاب على فيديوهاتها تباعًا، دون حساب للنتائج، فهذه السندي التي أشاهدها الآن، والتي استحالت لمعجزةٍ مدهشة في غفلةٍ من أبيها، تستحق الإعجاب.

لم يعُد أمامي وقتٌ كافٍ للنوم، قررتُ أن أبقى مُستيقظًا حتى موعد الذهاب للمطار؛ سأُعِدُّ الحقائب بتؤدة، وأحضر إفطارًا لنفسي لأول مرة منذ غادرتُ أميركا، كل ذلك على خلفية غناء ساندي، التي ظلّت صيحاتها تبزغ كألعاب نارية.

خفَتَ الصوت بغتة، وكنت قد تركتُ الهاتف فوق منضدة تتوسط المطبخ، استدرتُ أستجلي الأمر، فإذا بالعمة رانهيتا تُقرِّب الهاتف من أذنها وتُنصِت لساندي بتقطيبة اندهاش. تبسَّمَت حين وجدَتني أرمقها، تمتمَت بكلمات غير مفهومة، قلت: "هذه ابنتي"، بالعربية، بالإنجليزية، بالفرنسية، بإشارات تصف شيئًا صغيرًا، مولودًا، شيئًا يخصُّني، لم يبِن عليها الفهم قط، حتى فقدتُ الرغبة في إفهامها وعدتُ لطبق البيض المخفوق، سحبَت مني الطبق بصرامة لم أقوَ على ردِّها، أشارَت إليَّ بالجلوس، وأخذَت تُكمل خَفق البيض.

هاتفني فيديا ليُخبرني بوصوله أمام باب الملحق، في حين وضعَت رانهيتا البيض أمامي وطبق الخبز الساخن، غابَت لبرهة وعادَت

تسحب فيديا من يده، أجلسَته أمامي على الكرسي المقابل. حاول الاعتذار منها لكنها أصرَّت، أشرتُ إليه بالجلوس وقرَّبتُ منه طبق الخبز، وطلبتُ من رانهيتا طبقًا آخر لأتقاسم معه البيض. فإذا به يقترب، وتسحب طبق البيض لمسافة بينيَّة تتوسَّط المنضدة. وتومئ نحونا أن: كُلا معًا.. لوهلةٍ توقَّفتُ عن الأكل، لكنَّ سرعان ما شرعتُ من جديد في التقاط البيض بالشوكة، أما فيديا، فأخذ يُغمِّس الخبز في البيض بطريقة مزرية!

قلت لفيديا: "قُل لرانهيتا إن الفتاة التي شاهدَتها على الهاتف ابنتي".

"أي فتاة؟".

"المغنية".

"ابنتكَ مغنية؟! أيمكنني المشاهدة؟".

ناولتُه الهاتف وأعدتُ تشغيل الفيديو، بدا مذهولًا فيما يُشاهد ساندي، ينظر إليَّ بين لحظة وأخرى، يقول: "حقًّا ابنتك؟"، ثم يواصل المشاهدة دون انتظار الإجابة. أخبر رانهيتا بالأمر، فاختطفَت الهاتف وذهبَت به لخارج المطبخ، ارتفع الصخب في حوش الملحق، سرعان ما انضمَّت أنيشكا. "هذه لأميرتكَ الحسناء"، قالت أنيشكا فيما تناولني كوفية حريرية في لون الفيروز، ذات حوافٍ موشّاة بزخارف هندية. "ما اسمها؟"، سألَت أنيشكا، فقلت: "ساندي". جذبَت العمة رانهيتا الكوفية من يدي، وقالت: "لا، ليس الآن!".

عجبتُ لأمر العاهر الهجوز، فيما نبَّهني فيديا لمداهمة الوقت، فأسرعتُ لغرفتي كي أستعدَّ للذهاب.

قبل مغادرتي الملحق، وقفتُ خلف الباب أُلوِّح للجميع، وطلبتُ من فيديا أن يُترجم كلمةَ وداعي، التي ذيَّلتُها بقولي: لقد أحببتكم جميعًا.. بدَت العمة رانهيتا، التي كانت متَّكئةً على سرير العم كريشنا، منصرفةً عني، حتى فرغتُ من كلمتي واستدرتُ لأعبر الباب، فوجدتُها تهرول ناحيتي وتمدُّ يدها بالكوفية الحريرية، تناولتُها، أومأتُ أشكر أنيشكا، ثم انتبهتُ لوجود كلمة هندية على حاشية الكوفية، عندها قالت رانهيتا: "هذه حروف كلمة ساندي، خاطَها أبي كريشنا بحرير التوت، فقط لأجل فتاتك".

25

جلستُ بصُحبة المحامي الكويتي في مقهى ستاربكس في مطار الكويت الدولي. ساعتان كانتا تفصلانني عن موعد الطائرة، أصر المحامي أن يبقى معي بعض الوقت، قال فيما نجلس معًا: "سيظهر التحويل في رصيدكَ خلال ثلاثة أيام"، أومأتُ ممتنًّا فقال: "ستُمضي قرابة الخمس ساعات ترانزيت في إسطنبول، الأفضل أن تُغادر المطار وتأخذ جولة. ستجد مطعم شازلي قريبًا منك، سيروقكَ كثيرًا".

سألتُه دون تقديم: "هل تزوج أبي من السيدة لاريسا ماتيياس؟".

طأطأ المحامي وأخذ يُسوّي مُقدِّمة غُطرته (حركته العفوية إذا ما شرد يفكر)، ثم قال: "ستجدها في انتظاركَ هناك في النمسا، دعها تُخبركَ بنفسها".

"أُفضّل أن أعرف الآن".

صمت لبرهة قبل أن يقول: "نعم تزوجها، زواجًا مدنيًّا أتمّاه بالنمسا، بعد علاقة دامَت لنحو سبع سنوات".

"علاقة؟ تقصد علاقة غير شرعية؟!".

تهلّل وجهه وقال ساخرًا: "لو كان في بلد غير الكويت لكان فعلها"، ثم أكمل: "أظنه تزوجها زواجًا إسلاميًّا أول الأمر.. لم أشهد ذلك بنفسي فلم أكن قريبًا منه آنذاك. شهِدتُ فقط ما وقع قبل سفره للنمسا مع اقتراب حلول الألفية الجديدة، فقد استشارني أبوك آنذاك في إمكانية إجراء زواج مدني هناك".

"أتعني أنه تزوجها قبل ذلك؟".

"هذا مؤكد".

حسوتُ قهوتي وقلت: "وقبل زواجه، أكانت له علاقات نسائية؟".

قال وقد انبسطَت ملامحُه: "لم يكن دون جوانًا كما تظن.. لنُفطر أولًا، ثم نحكي بروقان".

أخذ يقصُّ عليّ الحكاية التي حملتُها مع ملف أبي لمطار أتاتورك، ومنه لمطار فيينا، أجمع قصاصاتها كلما خطرَت ذكرى أو كشفَت أوراق أبي عن معلومة إضافية. تبدأ القصة بذهاب أمي وراء أبي بعد أشهر من سفره للكويت، وهناك يعيشان حياتَين متوازيتَين، لا رابط بينهما غير دبلتَي الزواج، فبينما كانت أمي تمرُّ بظروف نفسية مُعقَّدة، كان للحَمل دورٌ أساسي في تأزُّمها، كان أبي يتيهُ وسامةً وذكاءً انعكسا على سرعة اندماجه مع عالمه الجديد. ارتسمَت صورةٌ في خيالي لهيئة أمي في تلك الفترة؛ حُبلى مُكعبرة، تُتابع يوميًّا وبحسرة ورعب

مؤشر الوزن، تُراقب أنفها الآخذ في النمو، تُخفي ثدييها الهلاميين كيلا تظهر سُمرتهما المفزِعة، كما خطوط الكلَف الآخذة في التمدُّد أسفل بطنها وفي محيط صدرها، فيما ترمق أبي يُسامر أصدقاءه الجدد ويُلاطف الجيران ذكورًا وإناثًا.

مضَت الأمور بينهما على هذا النحو لعدة سنوات؛ أبي يزداد انخراطًا كل يوم، فيما أمي تغوص بوليدها في رمال صحراوية متحركة، لا تسعى لصداقة أحد ولا مسامرة أحد، كانت تعتذر عن النزهة الأسبوعية الوحيدة الممكنة في تلك الآونة؛ الخروج إما إلى الشاطئ أو إلى "البر"، وقضاء الوقت في اللعب والشيِّ مع مجموعة من أصدقاء أبي وعائلة عمي.

لا بد وأن يكون أبي (سريع الملل والانفعال) قد أهمل سريعًا محاولة استمالتها لحياته الجديدة؛ رمى طوبتَها كما يفعل الرجال، وهرول خلف سعادةٍ واتَتهُ أخيرًا وبعد طول الانتظار، فضلًا عن كونه لم يمهلْها الفرصة للتأقلم مع أي مكان، فلم يمرّ عامٌ دون قرار بالانتقال من منزل لآخر، كلما ارتفع طموحه وتشبّثت قدماه بالإقامة في الكويت. شهِدتُ بنفسي آخر تنقُّلاته، أثناء بحث أبي عن مدرسة ابتدائية تناسبني. فقد اتّخذ قرارًا مُنفردًا بانتقالنا من حولِّي إلى السالميَّة، لكي نكون قريبين من بيت عمي فيُقِلّني بصحبة أبنائه إلى المدرسة الإنجليزية كل يوم. كان أكثر سكان البناية الجديدة من الشوام المقيمين، من بينهم جارة فلسطينية كثيرة الأبناء تشاجرَت مع

أمي عدة مرات، كما راقبَت بقلقٍ جارةً لبنانية غندورة، كانت تعيش بمفردها في الطابق الأول، وتُنافس أبي في التأنُّق والتعطُّر.

حتى حدث ذات يوم مطير أن عادَت تلك الجارة بصحبة أبي.. لامتهُ أمي لومًا شديدًا أن أركبَ الجارة الحسناء في سيارته، ثم اشتاطَت عليه بعدها بأيام حين لمحَته يُحدِّثها في مدخل البناية، ربما وقع ذلك عدة مرات، فخيالات عديدة تراودني كلما أمعنتُ في التذكُّر، حتى كان اليوم الذي رأتهُ فيه يدلف لداخل البناية ويغيب طويلًا دون أن يطرق باب الشقة؛ دفعَتها الظنون صوب بسطة الجارة الغندورة، وهناك امتلأ يقينها بعطر أبي.. بهدوء عادَت أدراجها، تقاوم ارتعاشَ ساقَيها وتُكابد وجلًا يندفع تجاهها كما الإعصار.. هل تستطيع مواجهته؟ أعليها أن تُبلغ أمها بهذه الكارثة؟ هل تؤازرها، أم تشمَت فيها كونها تركَت لأجله كل شيء؟ لأجل خائن! هل خانها حقًّا؟ أيمكن أن يكون قد فعلَها؟!

بعد برهة طالت أو قصرَت، سيدلف أبي لداخل الشقة بثباته المعتاد، سيَلقى أمي جالسةً في مواجهته، تدفِن صدمتها في راحتَيها، وتنتظر حتى يُبادرها بالحديث.. سيقول: "مساء الخير"، لن يتلقى ردًّا. لو كان قد فعلها سينتابه القلق، لو لم يفعلها سيستغرب الأمر، في الحالتَين: سيَهدر بزعيقه المرعب حين تُحدِّق فيه بجمرتَيها الحمراوين، وتقول: "حقير!!"، يقينًا ستُلقي اتهامها (أعرف أمي جيدًا)، يقينًا سيرميها بالجنون. سيدّعي شيئًا عن إصلاح الهوائيّ في بيت الجارة، عن دعوته لشرب الشاي، عن جنون أمي الذي رسّختهُ العُزلة، عن غيرتها من

سعادته، عن أكاذيبها التي تستهدف إفساد حياته، عن وعن وعن.. وسيُكتَب عليّ منذ هذه اللحظة التخفّي تحت أغطية السرير.. ادعاء النوم.. الغوص في أعماق الصمت.

ذهبَت مصاريف المدرسة الإنجليزية التي سددها أبي أدراج الريح، فقد احتبس صوتي قبل بدء الدراسة بأسبوع، وساد الرعب بيتَنا. وخلال أيام كان القرار القاطع بعودتي مع أمي قد صدر من بيت هليوبولس، فارتضى الجميع تنفيذَه درءًا لمزيدٍ من التعقيدات.

26

كان مفترضًا أن أجد بانتظاري سيدةً نمساوية هذه المرة (منَّيتُ نفسي أن تكون محاميةً شقراء في ريعان شبابها)، لكن طائرتي التركية تأخرَت لأكثر من ساعتين، ما جعل قلبي ينبض بعنف حين سألني موظف الجوازات عن فندق إقامتي. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بعدة أمتار، ولا أعرف إن كانت المحامية قد صمدَت أمام الملل، أما أنها يئسَت من وصولي وراحَت لحال سبيلها. أجبتُ الرجل: "سأقيم في إنسبروك"، وأطلعتُه على قسيمة حجز الفندق، فختم أوراقي وتمنى لي رحلة مريحة.

بالفعل، لم أجد أحدًا بانتظاري؛ لا لافتة مرفوعة ولا عيون خضراء تتلفّت يمنة ويسرة. كان الجو باردًا بعض الشيء خارج المطار (ربما عايشتُ الدفء أطول مما يجب)، اتّكأتُ جالسًا فوق حقيبتي الصلبة، أشعلتُ سيجارة أتحرّق لدخانها، ومعها شردتُ أحسب الخطوة التالية؛ لا معنى للبقاء في انتظار المجهول، ولا ثمة مغزى من الذهاب بحثًا عن اللا شيء.. فكّرتُ أن أشغل نفسي بتصفُّح الرسائل، أو أي شيء آخر يمتص الوقت لربما تظهر الصغيرة الحسناء، لكنني تفاجأتُ أن شبكة الواي فاي الخاصة بالمطار لم تعُد مرئيةً لهاتفي المحمول.

مشيتُ أجرُّ حقيبتي فوق الرصيف المبلَّط، مُشيعًا صخَب عجلاتها المُدوّي، حتى وصلتُ موقف التاكسي، قصدتُ أول سيارة في الطابور، كان السائق الأسمر يُطالع هاتفه باندماج تام، "أقربَ فندق من فضلك"، قلت.

ردَّ بإنجليزية ركيكة: "أي فندق؟".

"أي فندق.. لا فرق".

بدا عليه عدم الفهم، شرعتُ أشرح بصبر: "لم أحجز إقامتي في فيينا، حيث سأقيم ما بين إنسبروك وقرية جوتزينس، لكن طائرتي تأخّرَت ولا يمكنني استكمال رحلتي الآن.. أحتاج للمبيت ليلة واحدة في أقرب فندق".

ربما قرر اختبار صبري لأبعد حد، فعاد يسأل: "أي فندق؟!"، لمحتُ بجواره خريطةً سياحية، التقطتُها ورحتُ أطالعها بحثًا عن فندق قريب، عندها سألني: "من أين؟".

"أميركا".

"لا تبدو أميركيًا.".

"وكيف يبدو الأميركيون؟ بجباهٍ زرقاء وخدود مطلية بالأحمر والأبيض؟!".

"بالطبع لا، لكن.. تبدو عربيًا".

"أنا من أصول مصرية".

"أما أنا فسوداني"، قال جملته الأخيرة بالعربية. شعرتُ بألفة مفاجئة نحوه؛ كلانا غريب، يرى بيتَه الذي يعترف به بعيدًا. قررتُ التحدُّث إليه بعربية تُشبه لهجة طلاب الأزهر: "هل وصلتَ حديثًا لهذه البلاد؟".

"منذ أكثر من عام، لكني لا زلتُ سودانيًّا، جدًّا".

"أتتحدّث الألمانية؟".

"نعم، بدرجة معقولة".

"إذًا فكّر بها، هكذا فعلتُ كي أصير أميركيًّا. اعتدتُ التفكير بالإنجليزية، فصرتُ مع الوقت أفكِّر كأميركي، أشعر كأميركي".

استعاد الخريطة، وأشار لعدد من الفنادق ذات الأربع والخمس نجوم، متحدّثًا بالألمانية. قلت: "سيحدّثني الألمان بالإنجليزية، حتى أفهمهم"، ضحك، وهزَّ رأسُه باقتناع، فقلت: "تكفيني ثلاث نجمات. فندق نظيف، سرير مريح، هذا كل شيء".

أومأ بتفهُّم، وتحرك بي مُلتفًّا حول المطار. تابعتُ الشوارع فيما تضيق وتغوص في ضوء أصفر كابٍ لا يُبرِز معالم المدينة، وإن لم يخفَ عليّ ما تأكّد لاحقًا من أنها تُشبه وسط القاهرة، خاصة حين تغتسل عمائرُها وشوارعها بماء المطر. تابعتُ أيضًا عداد الأجرة

الرقميّ، حتى توقّف أمام بناية قديمة لا توحي بصفة، وإن كان ثمة لافتة طولية تُشير لوجود فندق. عددتُ اليوروهات ونقدتُه الأجرة الباهظة، وبالعربية شكرتُ له صنيعه.

الآن ماذا؟ وجدتُني أتساءل، أحتاج إنترنت، ودُشًّا ساخنًا ونومةً طويلة.. لحسن حظي كان بالفندق واي فاي مجاني، أمكنني الدخول عليه حتى قبل ولوج الغرفة، فهممْتُ باستطلاع الرسائل التي تراكمَت في جميع التطبيقات.

تايا غاضبة، لحد التلويح بحاجتها للذهاب بمفردها لمستشار الشؤون الزوجية. طالما ستضطر لحل جميع المشاكل بدوني، فلا حاجة بها للقب "مِسِز".

ماما قِلقة، عيناها ترفّان منذ يومين، وأذنها اليسرى تطن كلما حاولَت النوم.

ياسر يسأل عن آخر التطورات؛ هل ثمة جديد؟

رددتُ على ماما: "اطمئِنّي، أنا بخير"، وبعثتُ لياسر رسالة صوتية طويلة أخبره بوصولي فيينا، وبأني لم أجد من كان مفترضًا أن يستقبلني. طالع الرسالة على الفور، وهمَّ بتسجيل الرد، وأثناء ذلك شرعتُ في قراءة رسائل تايا على الفايبر.

كيف أتركها في ظروف حرجة كهذه، وألهث خلف "لا تعرف ماذا"، بينما تمر ابنتنا بأدق مراحل حياتها، وتُصِرُّ على السفر مع

صديقها الملوَّن في رحلة غنائية، ستعود منها حتمًا وقد أدمنَت نوعين من المخدّرات، وربما فقدَت عذريَّتها في سنها المبكرة.

نظّمتُ نفَسي قبل الرد عليها، أخبرتُها بأني أُدرك معاناتها وما تكابده من قلق مبرَّر، لكني أرى ضرورة احتواء الفتاة كيلا يُفلِت عيارها أكثر من ذلك. "لندعها تجرّب، ساندي فنانة حقيقية، لقد استمعتُ لفيديوهاتها منذ يومين، لم أكَد أُصدّق أنها فتاتي الصلِفة الحمقاء! حين تُغنّي، تتلبّسها روح الفن الخالصة، روح تجلو صوتها وتوقِد نورًا خفيًّا في عينَيها، أُجزم بأني رأيته. أخبريها بأني أثق بها، واطلبي منها أن تنتبِه لنفسها، ودعيها تذهب".

عجِبتُ لنفسي؛ لم أدرك قبل هذه اللحظة أني معجب بساندي، أني مستعدٌّ لمؤازرتها وتحمُّل عبء المخاطرة لأجلها. مسكينة ساندي؛ تُعاني مما لا يمكنها الإفصاح عنه، لوالديها على الأقل، لذلك تهفو لصديقاتها كلما اشتدّت وطأة ما تُعانيه. ولأول مرة، قررتُ كتابة تعليقات تشجيعية أسفل فيديوهاتها، وهكذا استمررتُ حتى اختلسني النوم.

27

أيقظني طنين الهاتف. نهضتُ دائخًا ورددْت بصوت مُخرفَش: "هالو..".

"السيد آبد صمد؟"، هامَسني صوتٌ مُخمليّ.

"نعم، أنا دكتور هاني عبد الصمد".

"هذه نينا ڤاجنر. ذهبتُ لاستقبالكَ أمس في المطار، لكني انصرفتُ لموعد هام، آسفة".

"لا عليكِ أبدًا، أنا المخطئ... أعني، تأخَّرَت الطائرة، هكذا يحدث أحيانًا".

"إذًا، أين أنت الآن؟".

"في فندق موكّا، تعرفينه؟".

"موكّا... أليس في حي ماريا هيلف؟".

"حقيقةً لا أعلم".

"أظنه هو. هل يمكنكَ إرسال موقعكَ على الواتساب؟".

"نعم، فكرة صائبة".

"أمامي ساعتان حتى أنهي بعض الأشغال، أيمكنكَ الانتظار؟".

"نعم بالطبع!".

"أوكي، أعتذر مرة أخرى".

"لا عليكِ بالمرة"، انقطعَت المكالمة، دون سلامٍ ختامي، رغم ذلك ابتهجتُ لسماع صوت الشقراء الموعودة. سجَّلتُ رقمها وبعثتُ موقعي على الفور، ثم فتحتُ صورة الواتساب لأستكشف هيئتها.. صورة سيلويت، على خلفية غروبٍ بديع، ترتدي ثوبًا قصيرًا منفوشًا، وتقفز في الهواء بحركة استعراضية مبهرة. رغم غموضها انفتحَت شهيتي. كان أمامي ساعتان، حرًّا من أي التزام، سأقضيهما دون شك في الفُرجة على فيينا. طلبتُ خدمة الغرف، جاءني شاب بشوش الوجه ربع القامة، سألتُه عن مكان يبيع الخطوط المحلية، فأشار لعدة محلات على امتداد الشارع المفضي للحي الأول.. تأهّبتُ للخروج، وجلستُ أسجل الأولويات في مفكرة الهاتف:

(1) الحصول على خط محلي (جيجا بايتس كثيرة).

(2) تناول القهوة/ الفطور.

(3) شراء هدية لساندي؛ وأخرى لياسر (معضلة هدايا الرجال!)؛ هدية لتايا (احتمال).

انطلقتُ خارجًا ومشيتُ أتأمل وجه فيينا الصباحي؛ شمسها الناعمة تُضفي البهجة على التفاصيل الصغيرة، تُرقِّق الزوايا وتُحيل الألوان أكثر نضارة، سُكانها الغادون والرائحون في صمت مهيب، كأنما يخشون تلطيخ اللوحة بضربة فرشاة غير محسوبة.

حاكيتُ إيقاعهم، حتى استوقفني محل للوازم الهاتف المحمول، ابتعتُ الخط من كهل تركي يحشر لفظة "صديقي" بين الجملة والأخرى، سألتُه عن أفضل إفطار تقدّمه المدينة، أشار لعدة أكشاك تبيع مأكولات سريعة؛ نقانق كبيرة وردية اللون، خليط دجاج مع لا أعرف ماذا، بطاطس محمّرة فاقعة الصفار، مررتُ بمحاذاتها تباعًا؛ أُطالع قوائم الطعام وأستنشق روائح الخلْطات. اقترب شاب يرتدي ملابس تنكرية مدهشة، عرَض عليَّ تذاكر لعروض موسيقية كلاسيكية. اعتذرتُ منه، لكوني أتضوّر جوعًا ولا يمكنني تدليل الروح فيما يتلوى الجسد.

تمشّيتُ لنحو نصف ساعة في شارع فسيح مخصَّص للمشاة، أبحث عن مقهى أكثر أُبَّهة من أكشاك الطعام، وهناك لمحتُ مظلات بيضاء عملاقة تُظلِّل الطاولات كما أشجار باسقة، ومن ورائها اسم موتزارت يتوسط الواجهة. دلفتُ لداخل المقهى العتيق، مارًّا بجوار فاترينة عرضٍ للشوكولا؛ عبوات حمراء وذهبية من كل حجم ولون، تتوسطها صورة الرجل الذي استلب طيفُه روحَ المدينة؛ موتزارت.

لفتَني علبة حمراء على هيئة كمان؛ قد تكون الهدية الأنسب لساندي، فهي تعزف التشيللو وتعشق الشوكولا، ستُعجبها هذه.

جلستُ إلى طاولة قريبة من الفاترينة، طالعتُ سريعًا قائمة الطعام، وطلبتُ ڤينر تريبو مع لاتيه ماكياتو، ورحتُ أتأمل الأناقة الباذخة المحيطة بي. لِمَ لا تمضي الحياة رغدةً هكذا، ولماذا تتطلّب السعادة كل هذا الإنفاق؟ صرتُ أشتمُّ رائحة الماكياتو وألعق الرغوة الغنَية مع كل رشفة، أسوأ ما في السعادة أنها تجركَ للتفكير في المستقبل؛ كيف تحتفظ بها أطول وقت ممكن.

اتصلَت نينا، قالت إنها في الطريق، فقلت: "أتناول إفطاري في مقهى موتزارت، أخشى أن أجعلكِ تنتظرين، لِمَ لا تنضمين إليّ؟".

"أفطرتُ مبكرًا، شكرًا لك".

"إذًا تشربين شيئًا، لديهم ماكياتو مذهل".

"أوكي، سآتي.. كيف أتعرَّف عليك؟".

"ستجدينني بجوار فاترينة الشوكولا، وحيدًا".

"سأكون هناك".

انتقلتُ إلى الكرسي المقابل لأتابع القادمين من الخارج. حسنًا فعلتُ، فسرعان ما عبرَت بطولها الفارع مدخل المقهى. عرفتها من أول وهلة، رغم أنها غايرَت تمامًا صورتها المرسومة في خيالي؛

لا شقراء كانت ولا عيناها خضراوَين، لكنها جميلة، بشعرها الكستنائي الكثيف وعينَيها اللتين في لون الزيتون، وأصغر سنًّا مما تصوّرت. شكرتُها على المجيء، وألححتُ عليها أن تجرّب الڤينر تريبو، ثم حدّثتُها في شأن هدية ساندي. سألَت: "كم عمرها؟"، فقلتُ إنها في الثالثة عشرة، وإنها عازفة موهوبة وذات صوت مدهش. قالت إنها تعتبر "شوكولاده موتزارت" هدية قيمة، لكنْ يُمكنني شراؤها أرخص كثيرًا من أماكن أخرى. شكرتُها على الإفادة، ووجدتُها فرصة لولوج موضوعنا الأساسي، قلت: "تبدين محاميةً ماهرة، سأكون محظوظًا إن صرتُ أحدَ موكِّليكِ".

"محامية! لا يمكنني تخيُّل نفسي في مهنة كهذه".

"إذًا لستِ محامية؟".

"بالقطع لا.. لا زلتُ أدرس، وأعمل مصوّرة محترفة".

شعرتُ بإحراج كبير، قلت: "هل ثمة علاقة بينكِ وبين الموضوع الذي أتيتُ من أجله؟".

"أعرف القليل عنه، من السيدة التي أتيتَ للقائها، لاريسا ماتيياس، أنا ابنتُها".

"أنتِ ابنة لاريسا ماتيياس؟!".

"نعم بالفعل".

"ممن؟".

"ماذا تعني ممن؟".

"أعني الأب، من أبوكِ؟".

"هو نفس أبيك، رافت آبد صمد، نحن إخوة غير أشقاء".

28

صِف شعورَكَ حين يظهر في حياتكَ أخٌ غير شقيق؟ سؤال لن تُسأله عادةً في مقابلات الوظائف الشاغرة، ولا في التحليلات النفسية البلهاء المنتشرة على الإنترنت، فليس ثمة إجابة نموذجية له.

أربكتني تمامًا جملة نينا الأخيرة، أحجمَتْني عن حَسْو آخر رشفة ماكياتو، وفتحَت أمامي أبواب الأسئلة بلا رادع؛ هل تنوي مُشاركتي الميراث؟ أيُمكنها إعاقة مهمتي؟ هل ثمة إخوة آخرون؟! ورغم ذلك ارتحتُ إليها بسرعة تفوق المعتاد، لو عرِف بها خالي لقال بيقين: الدم يحنُّ يا بني، ولكنتُ استسخفتُ مقولتَه. لكنها الكيميا الجيدة، التي تُقرّب سريعًا بين الغرباء.

تصغرني نينا بنحو عشرين عامًا، ومثلي وُلِدت في الكويت، أنجبها أبي بعد زواجه من لاريسا بخمسة أعوام، أي بعد الغزو بتسعة أعوام. مازحتُها قائلًا: "حين تزوَّج أمي، أنجب منها بعد تسعة أشهر وأسبوع!"، ويبدو أنني فتحتُ عليها طاقة حزن، فقد تكدّر وجهها فيما تحكي كيف عانَت أمها حتى عادَت لما يشبه الحياة الطبيعية، بعدما حطّمَتها جرائم الغزاة. قلتُ مهوِّنًا عليها: "سمعتُ جزءًا من

حكايتها، وأراها مقاتلةً من طراز فريد"، فأطرقَت تقول: "لا أظن، فهي شخص مسالم لأبعد حد، لكني أظنُّها حكيمة.. ربما قديسة".

"صرتُ أكثر شوقًا للقائها"، قلتُ مجامِلًا، فقالت: "ليكُن، هيا بنا".

كانت قد حجزَت تذكرتَي قطار إلى إنسبروك، وأمامنا ساعتان حتى يحين موعده. قالت: "لا بد أن نتحرك فورًا كي نكون في المحطة قبل موعد القطار بوقت كافٍ". كنتُ بحاجة لدفع حساب الفندق، فيما تحتاج هي للمرور بمكتب تأجيرٍ للسيارات. حين وصلنا ساحة الانتظار، وبينما تُحيط رأسها الجميل بخوذةٍ ذهبية برّاقة، سألتُها: "ستُعيدين هذه لمكتب تأجير السيارات؟!"، قالت: "أعشق السكوترات".

كانت تجربة ركوب السكوتر خلف فتاة جديدة عليّ تمامًا، وكانت تستحق، فأي متعة أن تخالف كُليَّةً جميع التوقعات، حتى توقعاتكَ أنت، ألا تعمل حسابًا لأي اعتبار. لحسن حظي وجدتُ مقبضًا معدنيًّا أُمسك به، فلم أضطر للتعلُّق بخصرها طوال الطريق.

وصلنا محطة السكة الحديد قبل الرحلة بنصف ساعة. لم أحب المحطة، بطرازها المعدني المناقض لروح المدينة، لكني رغم ذلك أحببتُ الرحلة، وتلك الطبيعة الفاتنة التي أخذَت تنبسط أمامنا كلما توغّلنا بعيدًا عن فيينا. أحببتُ أيضًا حديث نينا؛ في غرابة لكنتها وفي

انخفاض صوتها حسٌّ طفولي أعجبني، وبِتُّ أدفعها للمزيد من الكلام كلما توقفَت، فلم أمهِلها الفرصة لتغفو أثناء الرحلة، كان الإرهاق قد نال منها مع عبورنا سالزبورغ، حيث أخذَت السهول في الاختباء قليلًا بقليل خلف نتوءات جبلية، راحَت تُعلن بخشونةٍ عن حضورها وتُغلق أمامنا الأفق، كأنما تدعونا لغفوة قصيرة. سألتُ نينا إن كانت قد زارت سالزبورغ، فقالت: "بالطبع، مرات عديدة"، شرعَت تصف رحلاتها وتُريني نماذج صور فنية التقطَتها هناك، في صفحة الفيسبوك الخاصة بعملها كمُصوِّرة محترفة.

"جلسة التصوير هذه بداخل منزل موتزارت"، قالت بينما تُقلِّب الصور. "فعلًا؟!"، قُلت، فأومأَت بحماس.

"أهذه مقتنياتُه الأصلية؟"، سألتُها فيما أنظر لهاتفها من مسافةٍ أقرب، فقالت: "بعضها نسخٌ مُطابِقة، مع ذلك منحَتنا نتيجة رائعة في التصوير"، ثم أكملَت بغبطة: "كانت لحساب بيت أزياء إيطاليّ.. أنا من اقترحتُ عليهم منزل موتزارت، ونلتُ الكثير من الإشادة".

"عظيم"، قلت، "من الجيد أن تُحبّي عملكِ بهذا الشكل".

"بالفعل، أستمتع كثيرًا بما أقوم به".

"ماذا عن السيدة لاريسا، هل تعمل؟".

"تعمل الآن في تجارة العائلة، بالأحرى في نشاطهم السياحيّ".

"سياحيّ!"، قلتُ باستغراب، "هل تروج السياحة في تلك البلدة الصغيرة؟".

"لو أتيتَ بعد شهرين من الآن لرأيتَ بنفسك، فالنشاط يصل لذروته في موسم الشتاء، وإن كان مستمرًّا طوال العام".

"أمر مثير للاهتمام".

شيئًا فشيئًا تعاظَم الجبل، حتى ابتلع المشهد بأكمله، بل ابتلع القطار ذاته حين مررنا بغتةً بعدَّة أنفاق، تتلوّى في بطن الجبل كأمعاء. "جبال الألب"، قالت نينا بابتسامة ودود لا تُناسِب هيبة المشهد، كأنما ترحِّب بي في بيت جدِّها. شعرتُ بضآلتي تزداد كلما تجلّى الجبل، حتى تخطَّت قمَّتُه الغيوم الخفيضة فبدا كعرشٍ سماويّ، تفصلنا عنهُ سهوب خضراء كأنها الحياة.. "مشهد خلّاب!"، قلت لنينا، فغمرَت السعادة وجهها، وربَّتَت على ذراعي تشكرني على الإطراء. بعد برهةٍ قالت: "هنا وُلِد شغفي بالتصوير"، ففهمتُ سبب امتنانها.

توقَّف القطار في إنسبروك، أصرَّت نينا على أن تعاونني في حمل الحقائب، كان ضوء النهار يغمر المحطة الصغيرة لا يزال، فتساءلت: متى تغيب الشمس عن هذه البقعة من العالم، ومضيتُ مع نينا نحو الخارج مُستغرِبًا رطوبة الجو، استوقفَتني قائلةً: "دعني أصوِّرك"، وصوَّبَت عدسة الكاميرا دون انتظار موافقتي، كنتُ بحاجة لتسوية شعري، لكنني استسلمتُ لتلقائيتها، بل ربما ابتهجْت.

قالت إن بإمكاننا أن نركب الباص، لكن سنستغرق بعض الوقت؛ "الأفضل أن نركب تاكسي"، وهكذا فعلنا. مضينا نخترق السجادة الخضراء المنبسطة في كل اتجاه، تتخلَّلها بيوتٌ خشبية متفرِّقة تحفُّ الزهور بشرفاتها الصغيرة، فيما يُطِلُّ عليها الجبل من عليائه يمنحها الأمان.

ركبَت نينا بجوار السائق، وبين برهة وأخرى كانا يتحدَّثان بالألمانية، حتى توقَّف على جانب الطريق، فأومأَت نينا تستأذنني قبل مغادرة التاكسي، وهبطَت فوق السجادة الخضراء محاذرةً بعض الصخور. كاد رأسها أن يختفي خلف السفح، رغم ذلك استمررتُ أتابعها فيما تلتقط كادرات عشوائية، أو هكذا بدَت.

عادَت سريعًا، واستدارَت صوبي تُريني الصور التي التقطتها للتو، "واو!"، علَّقتُ بعفوية تامة، فقد كانت الصور ذات طابع فني لم أتخيَّل تحقيقه دون استخدام برامج المعالجة. أخذتُ أقلِّب الصور على شاشة الكاميرا، حتى تنبَّهتُ لوقوف السيارة أمام "بيت العائلة"، كما أسمتْهُ نينا، وكانت المرة الأولى التي يختفي فيها الجبل، وراء البيت العملاق.

29

صعدَت نينا درَجًا يُفضي لباب البيت، خلعَت حذاءها فيما تعبر إلى الداخل، ووضعتهُ فوق أرفف الأحذية. فعلتُ مثلها، فكافأتني بخفٍّ ناعم أنقذني من المشي حافيًا. استقبلَتنا سيدةٌ خمسينية، أنيقة فوق ما يحتمله الظرف، تتحدَّث الإنجليزية بلكنة تُخفي بعض الأحرف؛ قدَّمَتها نينا بوصفها خالتها الصغرى، أخت لاريسا. "جميلة خالتكِ"، قلتُ لنينا حين غادرَتنا السيدة.

"رائعة.. تعمل مصمِّمة أزياء، وتملك الأتيليه الوحيد في جوتزنس".

"هي أنيقة بالفعل".

"ومتمردة، كانت كذلك في شبابها.. أُحبُّ تمرُّدها، هي الوحيدة التي حذَت في شبابها حذو أمي وتركَت نشاط العائلة، بالإضافة لخالي مغني الأوبرا، لكنهم عادوا جميعًا مع الوقت، خالي ينضم إليهم في أوقات الذروة"، فكَّرت: تبدو عائلة كبيرة! ثم قلت: "إذًا أين لاريسا؟".

كانت لاريسا تُصلّي في كنيسة سانت بيتر وبول (أذهلتني حين رأيتُها فيما بعد)، ما سمح لي بتمضية بعض الوقت في التراس الخلفي المُطِل على الجبل. جلبَت نينا أربعة أكواب من الماء البارد، وضعتها أمامنا على المنضدة، وراحَت تصِف كيف يمتلئ التراس الفسيح بالسياح والمتنزِّهين في موسم الشتاء، بالإضافة لصالة الطعام الملحقة بالبيت؛ يتوقَّفون للراحة والطعام بعد رحلة تنزُّه على الأقدام عبر الدروب الجبليَّة، أو لتناول الإفطار قبل يوم حافل بالتزلُّج وألعاب الجليد. استوقفني طعم الماء، شممتُه، "ما هذا؟"، سألتُ نينا، "هل يُعجبكَ؟ هكذا نشرب الماء دائمًا، نُضيف القليل من شراب الهولاندر".

"أهذه زهرة؟".

"نعم، زهرة جبلية تيرولية".

كان طعم الماء حلوًا مُعطَّرًا، ما جعلني أحمِل كوبًا آخر فيما أجول مع نينا في أرجاء البيت، الذي راقني كثيرًا؛ حوائطه المكسوّة بخشب عتيق، والمأهولة بأيقونات كثيرة تنشر الونَس، حتى الأرضية الخشبية التي تصدر صريرًا خافتًا في مواضع عدة، أنبأَت بقدرة البيت على مجابهة الزمن، كما أوحَت بسؤال شغَلني طوال إقامتي في جوتزنس؛ لماذا لا تحكُم الأشجار العالم؟ بقوّتها الهائلة تلك، وبعطائها الأزليّ.. قد تفوقُها الجبال قوةً، لكنها تحكُم العالم بالفعل، فلا يمكنني تصوُّر عكس ذلك!

ابتلعتُ سؤالي حين عادَت لاريسا، إذ وجدتُها أقوى الجميع. هذه المرأة المُسنّة ذات الشعر المُفضّض، تستطيع هزيمة أي شيء؛ طولها الفارع، ابتسامتها الحانية، وجهها المنحوت من صخور الجبل، وذراعاها الشديدتان عند الاحتضان؛ هذه امرأة لا يمكن اغتصابُها، تستطيع التصدّي لجيش بأكمله.

عُدنا للتراس المفتوح، تخِفُّ نحونا نسائم الجبل الرطبة، فتهفُّ خصلات من شعر نينا ولا تحرِّك شعرة في رأس لاريسا. فوجئتُ بها تقول: "شكلكَ لم يتغيَّر يا دكتور".

"هل رأيتِني في السابق، سيدة لاريسا؟".

"نعم.. في الصورة مع أبيك".

"هل لي صورة مع أبي؟!".

"نعم بالطبع".

"عجيب.. لم أرَها أبدًا".

رنَت نحو الجبل، كما لو كان حافظةً لذكرياتها، وقالت: "إنها صورة جميلة، ليتني احتفظتُ بنسخةٍ منها. كان رافت شابًّا يافعًا حين التُقِطت لكما، وكنتَ أنت طفلًا جميلًا بغُرّة طويلة سوداء".

صمتَت لاريسا، فوجدتُني أتساءل: هل أُشبِه أبي؟ لم أدرك أني طرحتُ السؤال بصوتٍ مسموع، حتى قالت: "لا، ليس كثيرًا.. ربما الحاجبان، والذقن البارزة قليلا".

شعرتُ بإحباطٍ غير مفهوم؛ لماذا لا تلاحظ لاريسا الشبه كما فعل الدكتور كندري؟ الأغرب، لماذا أهتمّ؟! سألتُها إن كان ثمة محامٍ نمساوي سيتولّى إجراءات تسلُّم التركة، فقالت: "لا.. لا حاجة لوجود محام، فلا توجد تركة".

ألجمَتني الصدمة! ماذا تعني لا توجد تركة؟ هل تسعى لإقصائي؟! فكّرتُ في سؤالها بشكل مباشر: كيف يمكن ألا توجد تركة؟ أبي ترك شيئًا في كل مكان كي يرهقني بملاحقته، أو لأي سبب آخر لا فرق، المؤكد أنه ترك شيئًا وأرسلني في إثره.. أحجمتُ عن السؤال صونًا لكرامتي، أو ربما تجنُّبًا لإفساد الجلسة الرائقة.. عادَت تقول: "لم يعمل رافت هنا منذ مجيئنا، بل تفرّغ لمداواتي ولمَنحي المزيد من عطيّة الحياة".

تفقّدَت أثر كلامها على ملامحي، وأردفَت تقول: "كان يُنفِق من مدّخراته في حدود ضيقة، حيث شملَتنا عائلتي برعايتها الكاملة، وحين قرّر العودة لوطنه أودع مبلغًا كبيرًا باسم نينا، وحوّل جل مدّخراته لمصر حتى يبدأ مشروعًا خطّط إليه طويلًا، لكنه استمر يشعر بأنه مدينٌ لعائلتي، لذلك أرسل توكيلًا موثقًا باسمي يمنحني حق التصرُّف في نصف أسهم مشروعه الجديد.. رفضتُ الفكرة تمامًا، فلستُ بحاجة لماله، لكنه أصرّ. وبعد جدال طويل قال: لو استمررتِ لا تحتاجين المال حتى يجيئكِ هاني، أعطِهِ التوكيل".

قلتُ فيما أُحاول استيعاب كلامها: "عجيب!"، فقالت نينا: "ما العجيب؟"، فكّرتُ لبرهةٍ ثم قلت: "أن يدفعني للمجيء هنا دون سببٍ حقيقي، لمجرد استلام ورقة. وألا ينتظر شيئًا في المقابل".

"هناك شيء وحيد"، قالت لاريسا، وكان حرصي قد تبدّد تمامًا فقلت: "شيء؟".

"شيء كان رافت يرغب في تنفيذه، أظنه سيُسعد لو أتممتَه، لكنكَ لستَ مُلزمًا على أي حال".

باضطرابٍ سألتُها: "ما هو؟".

أجابَت بابتسامة مشفِقة: "أن تعاون أختكَ في صنع فيلم تسجيلي، يُوثّق ما مررنا به أنا وأبوك".

"فيلم!"، هنا استنجدتُ بعيني نينا، فلم أجد فيهما غير الحماس.

30

انتبِـه جيـدًا حين تبحث عن تحرُّرك، فأقصى ما سـتحصل عليه هو المزيد من حتميَّة الاختيار، وسـرعان ما سـتُدرك ميزة القيد؛ سعادة أن تكون مُرغمًا على الفعل، لا مُطلق الحرية.

خصَّصَت لي لاريسـا إحدى غرف النزلاء الصغيرة التي تعلو قاعة الطعام. غرفة دفيئة تسكنها الرطوبة والأيقونات، وإنجيل أحمر مجاور للسرير، وُضِعَت بجواره ورقةٌ مغلَّفة بغلاف بلاستيكي؛ ورقة التوكيل، نسـخة بالعربية وأخـرى بالإنجليزية، موثقتان بأختام شـتّى.. لاريسـا تقولها بوضوح: بإمكانكَ الذهاب متى شئت، خذ الورقة التي تخصُّكَ وامضِ بها لحال سـبيلك، حائزًا النصف الأسهل من ممتلكات أبيك، وسنُصلّي من أجلكَ كي تحصل على النصف الآخر بنفس السهولة.

فكّـرت؛ مـا الضرر في الذهـاب الآن؟ لي حق أصيـل فيما أحصل عليـه، ليس هبةً ولا مكافأة من أحد، ولديَّ عذرٌ واضح ومُقنِع؛ وظيفة معلَّقة، زوجة غاضبة تصرخ على الواتسـاب، ابنة منفلتة سـافرَت دون إذن، بيت يوشـك علـى التصدُّع لو لم أسـرع بالعـودة، وليس لي دور

مؤثر في صناعة الفيلم المأمول؛ لاريسا تملك المحتوى، ونينا مهارة التصوير والمونتاج، فما شأني أنا! طرقَت نينا الباب فيما أُقلِّبُ الأمر ذات اليمين وذات الشمال. "ألا ترغب في التمشية قليلًا؟"، سألَت، وكنتُ أشعر بإرهاق شديد، لكني أعلم أن النوم سيتعذّر كثيرًا قبل أن أصل لقرار نهائي.

"لا بأس"، أجبتُها فيما أفصِل الهاتف عن مقبس الكهرباء، وأغلق محادثة تايا على الواتساب. حملتُ حذائي كي أرتديه بالخارج. الليل بيت المؤرَّقين؛ ظلامه الدامس يستر الجفون المنتفخة، ويمنح الصمت والآذان المُصغِية. عجبتُ كيف يخوض أهل المنطقة دروبَها الجبلية في حُلكة الظلام هذه، لا شكَّ أن لأهل كل مكان قدرات خاصة، يتناقلونها كسِرٍّ موروث يحفظ تميُّزهم عن الغرباء.. تعلَّقتُ بذراع نينا خشية السقوط، فنالني منها حميميَّة كنتُ أفتقدها. ربما أحسَّت مثلي فشرعَت تُحدِّثني كما أُحِب. قالت إن لاريسا سعيدة بوجودي، وإنه لمن العجيب أن تتحمَّس اليوم لفكرة الفيلم، بعدما ألحَّ عليها أبي طويلًا دون فائدة، لم ترَ أبدًا أية جدوى من تسجيل قصَّتها، كانت تقول إن البشر لا يتعلَّمون من تجارب الآخرين؛ لا بد أن تخوض التجربة بنفسكَ كي تتركَ فيك أثرًا باقيًا، وإلا فلماذا يرتكب البشر نفس الحماقات، ينحازون لذات الطغاة، ويخوضون في سبيلهم حروبًا تتكرَّر ببشاعة أكبر في كل مرة. لماذا الآن؟ سألَتها نينا، فقالت

لاريسا إن قناعتها تحوَّلت بدرجة ما بسبب مجيئي. "لم يجئ هاني بحثًا عن الثروة فحسب"، قالت لاريسا، "بل عن صورة أبيه.. عن ماضٍ لم يُحِط به، يسعى لتعلُّم دروسه".

هكذا رأتني ذات الشعر المفضَّض، لاريسا ماتييّاس، ولم أكن لأخذلها بعدما نالَت نصيبها من الخذلان مضاعفًا آلاف المرات. مع ذلك قلتُ لنينا باستحياء: "لا أرى لنفسي دورًا في صناعة الفيلم"، قالت بدهشة لم يُخفِها الظلام: "صدقًا؟!"، وحين توقّفنا عن السير أكملَت نينا: "أتصوّر العكس تمامًا".

"أتظنين مجيئي سببًا كافيًا لتحويل قناعتها؟".

"لِمَ لا.. وثمة احتمال آخر، أن تكون قد صارَت أحرص على إرضاء أبي بعد رحيله".

ظللتُ صامتًا، فقالت: "لنرتَح قليلًا هنا".

أشارَت نحو دكَّة خشبية لم أرَها مُطلقًا، تحسّستُ مكاني بينما أجلس عليها.. هبط الصمت ثقيلًا، كأنما يُمهلني الوقت لاتخاذ القرار؛ هل أُكمل معهما المسير، أم أتوقف عند هذه النقطة. لاحَت في الظلام صورةُ أبي، بابتسامته الواثقة من خطوته التالية، تبزغ عن يمينه صورةُ لاريسا، بشعرها المفضَّض كما نجمة تبرق، تخبو وتظهر من جديد، على يساره هذه المرة، ثم من فوقه وأسفل منه، وقد راح شعرها يمتصُّ رويدًا دُكنَة الليل، حتى استحال أسود تمامًا، كما اكتسبَت

قسماتها جمال نينا الهادئ المطَمْئن. صارت نينا بشبابها النَّضر، رغم ذلك كانت لاريسا؛ عرفتُها من سحرها الكتيم.

"كم تستغرقنا صناعة الفيلم؟"، سألتُ نينا، فعاد لصوتها حيويته: "ثلاثة أيام، ربما أربعة". شرحَت لي المطلوب.. في الصباح نستأجر المعدات؛ كاميرا محمولة، بطاريات إضافية، عواكس توجيه الضوء، معدَّة الزوم، أجهزة الصوت. أما السيناريو، فقد فكّرَت فيه عدة مرات من قبل، مع كل محاولة لأبي لإقناع لاريسا بجدوى الفيلم، ولديها تصوُّران يمكننا تبادل الآراء بشأنهما. الأماكن؟ سنصوِّر في كنيسة سانت بيتر وبول، رائعة، ستُعجبني، وفي الآجام الجبلية المأهولة بالطيور، وفي بيت العائلة بالطبع. كل مرحلة من حياة لاريسا لها مكانها الأكثر ملاءمة. "سيكون رائعًا لو قمتَ بذلك لأجلها"، قالت نينا بحماسةٍ تسطع كذكرى الغائبين، فوجَدتُني وقد أُسقِط في يدي وعُدتُ مُسيَّرًا مُرتاحًا كما كنت.

في الصباح، وبعد إفطار مغموس في أشعة الشمس، ذهبنا أنا ونينا لإنسبروك في سيارة فولكس واجن تملكها العائلة، لم تستغرقنا طريقها المحفوفة بشجر سامق أكثر من عشر دقائق، مرَقنا بعدها ببطء لقلب المدينة الوادعة ذات العمائر المنخفضة والشوارع المُفسِحة، حتى وصلنا حانوت التصوير. استغرقَت نينا في انتقاء المُعدّات اللازمة للتصوير، بينما رحتُ أتأمَّل كاميرا التصوير تحت الماء. بعد قليل كانت قد جمعَت المطلوب، فانشغلتُ أراجع الحساب؛ سيُكلِّفني

اليوم الواحد قرابة الستمائة يورو، "لِمَ لا نشتريها إذًا؟"، مازحتُ نينا، وشردتُ أحسب تكاليف الأيام الثلاثة.. كان باستطاعة لاريسا أن تُمزِّق الورقة ولا تضطرني للمجيء، هكذا خطرَ لذهني، لكني بالنظر لعينَي نينا فيما نعاود ركوب السيارة، ولانفتاح شهيَّتها وهي ترفع النظام الصوتي، وتضع حقيبة الكاميرا والمعدّات فوق حِجرها طوال الطريق، عرِفتُ أن الأمر يستحق.

مررنا في طريقنا بكنيسة سانت بيتر وبول، أول أماكن التصوير طبقًا لخطَّة نينا. معمارها فريد ومُبهِج من الخارج، لكنَّ الداخل شأنٌ آخر. أذهلَتني التفاصيل والألوان، الطبقات المتراكِبة من الزخارف والمنحوتات، التماثيل التي تُحلِّق فوق الهامات في كل اتجاه، والذهب البرّاق الذي طُليت به الأسقف والجدران، كأن من بنوها قد أسالوا الشمس من أجلها. "ما هذا البذخ!"، قلتُ لنينا بدهشة بادية، فقالت: "إنها من أهم الكنائس على طريق الحج"، "حج؟!"، لم أكن سمعتُ قبل هذه اللحظة عن حجٍّ كاثوليكي. هنا علمتُ كيف أن العالم كبير، صغير في ذات الوقت.

31

لاريسا ماتيياس؛ ابنة العالم الصغير، الكبير. عالم جوتزنس الصغيرة، حيث يفِد الناس من بقاع الأرض البعيدة للحج وللترفيه. في عالمها المحفوف بجبل شاهق وشجر باسق، وحيث تتلوَّن قشرةُ الأرض بأخضر زاهٍ وأبيض شاهق في توالٍ أبديّ، عرفَت لاريسا لون الحياة. كانت ابنة كل الناس؛ أهل القرية والغرباء على السواء، قد تجدها في أي بيت، أو في ساحة سان بيتر وبول مع مجموعة من الرواد. في هذه الكنيسة ذات السماء الشاهقة والملائكة المحلِّقة في الأرجاء، لامسَت لاريسا عالم الملكوت. شبّت كأمِّها كاثوليكية مخلصة، تسعى بمحبة لكل ما فيه سعادة الرب، تراه يبتسم إليها سرًّا بعد كل فعل، ويدير وجهه خجلًا عن زلّاتها الصغيرة النادرة. لم تكشف أبدًا سرَّها مع وجه الرب، ولم تتردد ولو قليلًا حين دعاها راعي الكنيسة لأن تمنح أربع ساعات كل أسبوع لرعاية المسنين، وكانت تلك أول مرة تسمع فيها بالصليب الأحمر، الذي ستعمل معه لسنوات فيما بعد.

كانت لاريسا تحكي نتفةً من هنا ونتفةً من هناك، كأن الزمن قد انضغط بين يديها وتوزَّع في بطاقات تذكيريَّة، تسحب منها كيف تشاء.

سبقَتنا نحو باحة الكنيسة، بخطوات لا تناسب عمرها على الإطلاق، كدتُ أتعثّر فيما أحمل عواكس الضوء التي جعلَت منها نينا مهمتي الثانية، بعد إلقاء الأسئلة وإدارة المقابلة. كانت فكرتها أن تبدو لاريسا وحدها في الجزء الأول من الفيلم، تحكي عن حياتها حيث جرَت أحداثها؛ تشرد، فتذهب معها الكاميرا حيث تغيب، وتسكت عن الكلام فيتوقّف التصوير؛ تقوم، فنجمع أغراضنا ونلحق بها حيث تذهب، ونُعيد ضبط مُعدّاتنا قبل الشروع ثانيةً في التصوير. جلسَت في بقعة غسلَتها أشعة شمس بيضاء في الباحة الأمامية، موليةً ظهرها لواجهة الكنيسة البديعة، ترنو نحو السُّهب المخضوضِر أسفل الجبل.

"كنا نتجمَّع في هذا المكان"، راحَت تقول، فاستمهلَتها نينا حتى تبدأ في التصوير. عادَت تحكي من البداية: "هنا تجمَّعنا في أول لقاء، فتيان وفتيات من طوائف شتى، بعضنا لا دينيون، غير أنهم مدفوعون بمحبة الإنسان، كان صورةً للرب أو لم يكن. هنا التقَيتُ إيثان للمرة الأولى، كان أكثر الفتيان حماسة ورغبة في العطاء، أميركيًّا ذا بشرة تميل بخجل نحو السُّمرة، ما زاده وسامةً في نظري، إلا أن سُمرته هذه حالَت دون اندماج الكثيرين معه، كانوا يشيرون إليه بالفتى الأسمر، مع أنهم يشيرون لغيره إما بأسمائهم أو بأسماء البلاد التي وفَدوا منها، سألني إخوتي، وكذلك أمي: لماذا تخصّينه باهتمام زائد؟ لمجرد أني عاملتُه كما أُعامل الآخرين، ما زادني تعاطفًا معه.

"قلتُ له يومًا: لو رآك يسوع لاستبدل بلونه سُمرتكَ اللطيفة هذه، فضحك كما يضحك الصغار، ثم قال: قد يتجاسر شخصٌ ذات يوم، ويرسم الرب بوجهٍ أسمر. ببساطة قلت: ولِمَ لا؟ رغم أن الفكرة لم تبدُ بسيطةً أبدًا في نظري، بل كانت بدايةً لأسئلة بلا سقف.. هل أعرفُ الرب من وصفهم فحسب، أم على حقيقته؟ بدا الأمر بديهيًّا جدًّا، مريبًا في ذات الوقت. انجرفتُ للحديث مع إيثان في أمور العقيدة، ما لم يكن مسموحًا به بين المتطوعين في أنشطة الصليب الأحمر. ينادون بالتقريب بين الطوائف، فيجمعوننا على الخدمة في سبيل الرب، ثم يحذِّروننا من الحديث عنه! لم أكن لأشتري هذا الهراء، ليس في هذه السن.

"حدَّثني إيثان عن طائفة السبتيّين التي نشأ فيها، لم يشغلني قبل هذا اليوم أمر الطوائف، لم يكن ثمة فارق أعيهِ بين الكاثوليكية والمسيحية والإيمان؛ كلها تعني نفس الشيء، كما يعني الآب والابن والروح القدس الشيء نفسه. لكن مع حديث إيثان، انفتحَت أمامي آفاق جديدة؛ انبهرتُ بكلامه عن المجيء الوشيك للمسيح، والذي يمكننا استنتاجه عبر حسابات رقمية من أسابيع وتواريخ مذكورة في أسفار الإنجيل، كان إيثان بانتظاره؛ سيجيئنا يومًا بوجهه الأبيض أو الأسمر، ليُجازي الأبرار ويُشيع العدل ألف سنة كاملة في أرجاء العالم، وعلى هذا الرجاء تركني حين حان موعد سفره، تاركًا لي أسئلة ظلت تؤرِّقني وتُقيم ليلي، صرتُ أتوسل إلى الرب أن يظهر لي كما يظهر للكثيرين ممن يدَّعون رؤيته، يُريني الحقيقة ويمنحني المعرفة".

"كبرَت لاريسا"، قالتها بينما تقوم فاردةً طولها الفارع، "وكبرَت معها علامات الاستفهام". صارَت أسئلتها صداعًا دائمًا في رأس أسرتها الريفية البسيطة؛ لماذا نقدِّس يوم الأحد، فيما تخبرنا الوصايا العشر بأن نقدِّس السبت؟ لماذا خلق الله الأرض، طالما صنع لأجلنا ملكوت السماء؟ لماذا يكلِّمنا الرب بكلام لا يمكننا فهمه بأنفسنا، دون كهنوت ولا أحلام باباوية؟ "أليست أسئلتي منطقية؟". سألَت لاريسا. فقلتُ بصوت سيظهر حتمًا في خلفيَّة الفيلم: "هكذا تبدو لي".

تبسَّمت لاريسا والتفتَت صوب طريق المدينة: "أنهيتُ دراستي في جامعة إنسبروك، ورغبتُ في السفر بعيدًا كي أكتشف أغوار العالم الرحب، كان غريبًا آنذاك أن تنحو فتاة هذا النحو. لكنهم لم يتصدّوا طويلًا لرغبتي، ربما لكثرة ما أحرجتُهم بأسئلتي. أكثر ما كان يُقلق أبي أن تكون بي رغبةٌ في الانضمام لجماعات الهيبيز، التي زار بعضها جبال الألب قبل سنوات، ومكثوا طويلًا في العراء. أقسمتُ له أن الأمر بعيد كل البعد عن مخاوفه تلك، وحصلتُ على مباركته وما يكفيني من المال حتى أجد عملًا.

كنتُ على اتصال دائم بإيثان منذ رحيله، عبر البريد كعادة شبان ذاك الزمان، وكنتُ أتابع أسفاره بشغف كبير، فيما يجوب العالم توقًا لظهور المسيح، كان قد صار مدرس رياضيّات يمكث في كل بلد عامًا أو عامين، ثم يقصد غيره. عاش في الهند، في تايوان، الفلبين، الكويت. ساعدني في الحصول على وظيفتي الأولى في الكويت؛

معلمـة رياض أطفال في مدرسـة دولية، وهناك رأيـتُ لأول مرة أرضًا مفروشـة بالأصفر الذهبي، وبحرًا مصبوغًا بالأزرق الداكن، سحرَتني الصحـراء المتاخمة للبحر، وأيقنتُ بما أخبرني به إيثان قبل سـنوات؛ من أن السـماء ليست للبشـر، أن الملكوت الموعود هو هذه الأرض، حالما يسودها العدل المطلق".

صمتَت لاريسـا لبرهة طالَت، فتوقفَـت نينا عن التصوير، ثم إذا بها تقـول: "هيا بنا" قلت: "إلى أين؟"، قالت: "سـنُفرغ ما صوَّرناه، ونعيد شحن البطاريات".

"ألـن نُكمل قليلًا؟"، سـألتُها، فأومأت بأن أتبعهـا، وحين ابتعدنا بمسـافةٍ كافية همسَـت تقول: "يبدو أن ماما ترغب في الانفراد بنفسها لبعض الوقت".

32

حين وصلتُ مع نينا بيت العائلة، كان المشهد كالتالي: الشمس في طواف وداعها، تُلوِّح للعالم جهة الغرب؛ التراس مأهولٌ بالطاولات، وقد صُفَّت حولها مقاعد خشبية ذات قلوب محفورة في منتصف الظهر؛ الفتيان والفتيات غادون رائحون، حاملين شراشف قطنية وآنية طعام، وقد تلوَّنَت وجناتهم بحرارة العمل؛ عائلة هنا وأخرى هناك، الأولى شرق آسيوية، والأخرى هندية على الأرجح.

"ماذا يحدث؟"، سألتُ نينا، فقالت: "إنه وقت العشاء. مطعمنا يستقبل الزبائن ساعتين في الصباح، وثلاث ساعات في المساء".

كان الرجل الآسيوي يثرثر باستمرار بين حسوات الشوربة، فيما تتناول العائلة الهندية طعامها بصمت، ناظرين نحو الجبل الشاهق بضراعة المُصلّين. ذكَّرتني ابنتهم بأنيشكا، بابتسامتها الشهية وحضورها المريح، فكَّرت: لِمَ لا أُعاود الاتصال بالمحامي والسؤال عن الجميع.

اقترب رجل يلبس صديريًّا أحمر وجاكيتًا مزدانًا بالنياشين، يضع على رأسه قبعة ذات ريشات ويحشر بنطاله في جورب طويل، قال شيئًا

بالألمانية فيما يحتضن نينا ويرفعها عن الأرض، ملَّسَت بدورها على ظهره قبل أن تُقدِّمه لي: "خالي لوكاس". صافحتُه بحرارة، فسار بيني وبين نينا يرشدنا لركنٍ قصيٍّ من التراس. "كان أبوكَ صديقًا مخلصًا"، قال بإنجليزية تستبدل بعض الأحرف، ثم استدار وغاب بداخل البيت. اختارَت نينا مقعدًا مواجهًا لمدخل التراس، فيما اخترتُ أفضل إطلالةٍ على الجبل. عاد خالها لوكاس، يتبعهُ فتى يرتدي زيًّا مُشابهًا ويحمل صينية خشبية، وضع أمامنا حساءً تعوم بداخله كرات الزلابية. "سيباستيان سيهتم بعشائكم"، قال الخال قبل مغادرته.

كان الجو لطيفًا مُحفِّزًا للشهية، والحساء لذيذًا لو استثنَينا كرات الزلابية، رغم ذلك لم نطلب العشاء، فقد اقترحَت نينا أن نكتفي بالحساء حتى تصل لاريسا. وصلَت فعلًا بعد قليل، لوَّحَت نحونا بابتسامة عذبة قبل أن تغيبَ بالداخل. عادَت بصحبة أخيها لوكاس، وقد ارتدَت فستانًا بأكمام بيضاء منفوشة، وقبعة عليها ريشة حمراء. "ماما ستُغنّي!"، هلَّلَت نينا بحماسة طفولية جعلتني أُدير مقعدي نحو المنصة الصغيرة، التي لم يلفِتني وجودها قبل هذه اللحظة. حمَل الخال لوكاس أكورديونًا ذهبيًّا وشرع يعزف ويغني لحنًا إيقاعيًّا، ومعه غنَّت لاريسا بصوت كاد يتلاشى بين موجات غنائه الصادح، لكنه حمَل البهجة للجميع بدفئه وعذوبته. ماذا لو غنّت ساندي؟ كانت ستُفقِد الجمعَ اتزانه دون شك. حاولتُ الاتصال بها قبل قليل، لأطمئن عليها بعدما سافرَت دون إذن تايا.. تايا عنيدة، لن تُتابعها مهما

رجوتُها، عاودتُ المحاولة، لم أتلقّ ردًّا. راسلتُ تايا لأبلغها فشلي مُجدّدًا في الوصول لساندي.

نبّهني صوت نينا: "لا تُغنّي ماما إلا نادرًا.. أظنها غنّت من أجلك"، قالتها بنبرة هدّجَتها موجة عاطفية عاتية، ما جعلني أُتابع لاريسا حتى توارَت بداخل البيت. خطرَت لي أمي؛ بكاؤها ليلة سفري إلى الكويت، واحتضانها الذي انطبع في روحي ولم أشعر به وقتها. وجدتُني أقول لنينا: "سأخبركِ بشيء.. لقد أحببتُ لاريسا كثيرًا، لدرجة أنني أفتقد أمي وأرغب في السفر في أسرع وقت. هل أبدو متناقضًا؟!".

"لا أبدًا.. وإن كنا سنفتقدكَ نحن أيضًا، لم أرَ ماما بهذه الحيوية منذ سنوات. يبدو أنكَ تُذكّرها ببابا".

تمهلتُ قليلًا أمام لفظة "بابا"، حين نعتَت بها أبي. دائمًا ما أفكّر فيه كأبي، ليس "بابا"، التي تحمل حميميةً لا يمكنني اصطيادها. نينا تمسكها بسهولة فرقعة الأصابع، ربما بفعل العِشرة. جرَّبتُ نُطقها في خيالي، مضغتُها بين لساني وشفتيَّ كأنني أُجرب طعامًا لأول مرة، كانت كالزلابية العائمة في الحساء، وجودها يفرض نفسه، رغم أني لا أستسيغه.

سألَتني نينا: "أيُناسبك السفر بعد غد؟".

قلت: "بالتأكيد"، ثم قلتُ مُعقّبًا: "أخشى أن أُفسد ترتيباتكِ الخاصة بالفيلم".

"لا، لا تشغل بالك. سنُكثِّف العمل غدًا وبعد غد، وسنجد مبررًا لغياب المحاوِر لو احتجنا لاحقًا لتصوير المزيد".

كانت تحدِّثني بنبرة مطمْئنَة، تُعيد الهدوء وتبعث على الثقة، قلت لها: "سنظل على تواصل"، فابتسمَت فيما تجمع شعرها فوق كتفها الأيمن، وتُعيد تثبيت قرطها الأيسر ببطء. انتابني شعورٌ بأني سخيف، مُفتعَل، لا أطيق انتظار يوم إضافيّ، مع ذلك أدَّعي الرغبة في استمرار التواصل! طأطأتُ رأسي ومسحتُها من الخلف، خجلًا ربما، ثم انتبهتُ لعودة لاريسا في ملابسها المعتادة. سحبَت مقعدًا مجاورًا لنينا وراحَت ترنو نحو الداخل. قلت لها: "كنتِ مُذهلة، الغناء والملابس وكل شيء"، لم يبدُ عليها التصديق، أشارَت نحو فتاةٍ تحمل صينية كبيرة، وقالت: "اخترتُ لكما قطع الڤينر شنيتزل بنفسي، لا بد أنكم جوعى".

سألَتها نينا: "ألن نستكمل القصة؟"، فقالت: "أية قصة؟"، أوضحَت نينا: "أعني الفيلم". التقمَت لاريسا أول قضمةٍ من الشنيتزل الطريّ، وأومأَت برأسها أن: سنفعل.

"سيسافر هاني بعد الغد، عليه اللحاق بأمه سريعًا"، قالت نينا، فاستدارَت لاريسا نحوي في لفتةٍ موجزة، أكملَت بعدها نينا تقول: "أظننا نملك وقتًا كافيًا".

"أتعتقدين؟".

"نعم. أمامنا جلستا تصوير؛ إحداهما في الدروب الجبليَّة، حيث ستروين قصتكِ في الكويت؛ والتالية هنا في منزل العائلة، حيث سنختم الحكاية بعودتكِ لأرضكِ الأم".

شردَت لاريسا بعيدًا، فقالت نينا: "ألا تروقكِ الفكرة؟".

"تبدو منطقية جدًّا، وبسيطة، لكن الأمر أكثر تعقيدًا بالنسبة لي. كيف أختصر الحكاية دون إفسادها؟ أي لحظات الزمن تستحق البقاء، وأيها سأُلقي بها إلى العدم؟ ما الذي ساهم بدورٍ أكبر في تشكيل حياتي الآنية، اللحظات الاستثنائية؟ أم تلك العادية؟ هل تملكين إجابة تُقيلني من هذه الحيرة؟".

صمت ثلاثتنا، كأن في سؤالها تعويذةً قضَت علينا بالخرس. أحاطَت نينا كفَّ أمها براحتَيها وراحَت تُملِّس عليها.. تحشرج صوتها إذ بدأَت تقول: "ماما.. عليكِ فقط أن تُجري الحكاية على لسانكِ، ستختار هي ما يستحق البقاء من أحداثها".

وضعَت لاريسا الشوكة والسكين بداخل الطبق، أزاحَتهُ بهدوء وهي تقول: "غدًا نحكي أحداث الكويت، في قبو البيت".

33

تواعدنا على البكور، كي نصحب الشمس منذ مطلعها وحتى المغيب. باتَت نينا في حجرة مجاورة، وطرقَت بابي حين انغمس الجبل في الوهَج البرتقاليّ. بدَّلتُ ملابسي كيفما اتفق، ولاقيتُ نينا في صالة المعيشة، حيث ناولَتني عواكس الضوء ومعدّات الصوت، وهبطنا نتخبَّط حتى قبو البيت. هواء القبو كثيف، يعبق بروائح الاختمار، وضوؤه شاحب كأنما تُضيؤه الشموع.

كانت لاريسا بالداخل، تلبس مريلة برتقالية في لون الجبل، تقطف بتلاتٍ من كومة زهور وتُلقي بها في وعاء غويط. ضمَّتني أنا ونينا في احتضان رطِب، يفوح منه عطر الزهور المبتلَّة. "لا يمكن مُجاراتكِ في الصحَيان مُبكرًا"، قالت نينا، فعادَت لاريسا لزهورها وهي تقول: "الحياة ثمينة، تزداد قيمةً كلما قصرَ العمر. هذه الزهور تسبق الجميع في الصحَيان".

كانت تُحضِّر شراب الهولاندر، اقترحَت نينا أن نضمِّن ذلك في الفيلم التسجيلي، فتحمَّسَت لاريسا وبدأنا التصوير. شرعَت تشرح

للكاميرا كيف تستخلص روح الزهور، وتحتفظ بها في جزيئات الماء؛ هكذا يُكتَب للزهر عمرٌ أطول من حياته القصيرة.

"كنتُ في عمر هذه الزهور حين سافرتُ الكويت. أمضيتُ هناك فترة قصيرة في مهنة التدريس، ثم تركتُها مع رحيل إيثان، حيث عُرِض عليَّ العمل كمُنسقةٍ للعلاقات العامة في سلسلة فنادق، هناك قابلتُ رافت قبل الغزو بسنوات، كان يعمل مديرًا للأمن في نفس الفندق. قليلًا ما تداخلَت وظيفتانا، كنا نلتقي بين الحين والآخر في عشاء عملٍ أو في استقبال وفد يزور الكويت. كنتُ أشعر بانجذابٍ نحوه، حالي حال العديد من الموظفات، لكنني أبدًا لم أتقرَّب منه أو أُبدِ اهتمامًا خاصًّا، طوال حياتي لم أقُم بذلك مع أي رجل، حتى إنني تخطَّيتُ الثلاثين آنذاك محتفظةً بعذريتي، كنتُ كاثوليكية محافظة، قبل أن أفقد كل شيء.. العذرية، والإيمان".

أشعلَت لاريسا نار الموقد، وضعَت فوقه إناءً كبيرًا مملوءًا بالماء، أفرغَت بداخله كيسًا من السكر وتركَته يذوب ببطءٍ في الماء الآخذ في التنفُّس. راحَت تشطف زهرات الهولاندر، وتقذف بها في جوف الماء حين شارف الغليان. أكملَت تقول:

"وقع الغزو، اختُطِفتُ ضمن من اختُطِفن من فنادق الكويت، عدتُ مُرغمةً لفصول التدريس، فقد احتجزوني مع أخريات بداخل مدرسة ابتدائية. تروَّع أول جندي قام باغتصابي، فلم يخطر له أبدًا

أن أكـون عذراء، تهيَّأ له أن جرحًا مـا أصابه، أخذ يهتز مرتعدًا، وحمل جرحـه لأقـرب دلو مياه، وحين تأكَّد من سـلامته أبلـغ قيادته، فصفعهُ الضابـط وراح يوبِّخه أمامنا بقسـوة، أن أضاع عليه فرصة فضِّ بكارتي بنفسـه. تناوبـوا انتهاكـي لأكثر من شـهر، مـع أخريات صِـرنَ عائلتي الموصولـة برباط البـؤس، نأكل معًا مـن فتات يضعونه لنـا مرتين كل يوم، ونتشـارك في نصف ملابسنا الداخلية، بينما نغسل النصف الآخر في مياه آسنة، فقد توقَّفَت محطات المياه لفتراتٍ طويلة.

"ذات يوم فُضَّ المعسكر، سمعناهم يتداولون فيما بينهم حول مدرسة أخرى سيُعسكِرون فيها تُغذيها المياه العذبة، حملوا الفتيات الصغيرات مع متاعهم، أولئك اللاتي لم يتجاوزن سن العشرين، فقد كان روح الزهر قد استُخلص تمامًا من أجسادنا، وصرنا نبدو أكبر كثيرًا من عمرنا الحقيقيّ. كنتُ أبكي الصغيرات بما يفوق فرحي بنجاتي المؤقَّتة. أمضينا يومًا كاملًا نترقَّب، نتجنَّب الاقتراب من أسوار المدرسة، حتى تأكَّدنا تمامًا من خلوها من الحراسة، فمضينا نبحث عن مكان نلتجئ إليه، وعلى مسافة ليست بعيدةً وجدنا مدرسة الراهبات الكاثوليك".

أطفـأَت النـار، قلَّبَت الزهـر في الوعاء ببـطء ثم نثرَت أعلاهُ قشـر الليمـون، كمرَتهُ جيدًا بقماشـة قطنيـة لفَّت حولها دوبارةً سـميكة، ثم سحبَت كرسيًّا جلسَت عليه وواجهَت الكاميرا لأول مرة.

"كنتُ ممن بقين في الكويت طوال سبعة أشهر هي عمر الغزو العراقيّ. حبستُ نفسي خلالها في غرفة مُعدَّة للصلاة بداخل المدرسة، كنتُ أرمق الأيقونات والصلبان المعلَّقة على الجدران، أتأمَّل الأثر الذي تركهُ فوق جلدي ضابط عراقي أراد هدايتي لدين الإسلام على طريقته، أرمق الإنجيل المفتوح فوق منضدةٍ صغيرة تحت صورة العذراء، أنصِتُ إليه في هدأة الليل، إذ ربما يحادثني بأي شيء، أو يُلقي في رَوعي ما يغسل روحي ويمنحها الصفاء. حاولتُ بصدق أن أتشبَّث بالإيمان، لكن الهزة التي دهمَتني لم تترك بداخلي إلا الخواء. كنتُ أعايش لحظات الغثيان وقسوة التألُّم فوق ما قاسيتُها أثناء الاغتصاب، إذ إنني كنتُ أهرب بخيالي حالما يُرقِدونني فوق الطاولة، كي تخبو قليلًا آلام الاختراق. أتخيَّل الملكوت، أتأمَّل كيف وصلتُ لهذا العالم، وأتصوَّر نفسي قطرةً متناهية الصغر تسيل في ماء الكون. درَّبتُ نفسي أن أنفصل تدريجيًّا عما يقع بداخلي، أتقبَّل الرعدة التي تجتاحني كزلزال يضرب قرية جبلية، كصدعٍ أرضي لا بد أن يقع حتى تستعيد الأرض استقرارها بعد حين، صار ماء الجنود يسري بداخلي كأمطار حمضية تفتك بالزرع، كما صار الجنود سيئو التغذية قطرات تُشبهني في ماء الكون، بل صاروا يفوقونني بؤسًا بافتقارهم للخيال. كان ذلك في فصل المدرسة، أما بداخل صومعة الصلاة، فقد صار الألم خالصًا، لا يُقاسمني فيه أحد".

سألتُها: "ألم تُحاولي مغادرة الكويت؟ الاتصال بالسفارة؟".

"لم أضَع العودة لأهلي كاحتمال وارد، كنتُ أرغب في طمأنتهم فقط، وهذا ما ساعدَتني عليه السير ماري روز مديرة المدرسة، بعثَت برسالة لكنيسة سانت بيتر وبول عبر الكنيسة الكاثوليكية في الكويت، طمأنَتهم على سلامة الابنة لاريسا ماتييـاس وبأنها تحت رعايتها المباشرة، وإن كانت لا يُمكنها الآن مغادرة الكويت. لم أجد الجرأة لكي أعود إليهم، أُجرجِر هزيمتي خلف ظهري وأحمل وشم البؤس أسفل سُرَّتي، فاقدة عذريتي، مُنتهَكة، بائسة، هكذا كنتُ أفكر آنذاك، مسكينة كنت".

"ثم ماذا؟"، سألتُها.

"ثم عادَت الأمور رويدًا بعد زوال العدوان، عادَت الشرطة ببطء، لكن بحماس، كانت الحكومة ترغب في إزالة وصمتها السوداء بأية طريقة، ساعدوني كي أعود لشقَّتي وأتفقَّد حاجياتي، عوَّضوني عن كامل راتبي مع حفظ رصيدي من الإجازات، كل شيء، إلا ما لا يمكن استعادته؛ نفسي. لكن التعويض الأكبر جاء أخيرًا حين ظهر من جديد مدير الأمن".

"رأفت عبد الصمد؟".

"من غيره".

"احكي لنا".

"لا ليس هنا، فالجو صار خانقًا".

34

صارَت لاريسا لغزًا معقَّدًا ليس بإمكاني فك شفرته. هل هي قوية فوق العادة أم بائسة؟ سلَّمَت دون مقاومة تُذكر لفاجعة كبرى ضربَت حياتها؟ بدَت أكبر بمائة عام حين خرجَت من القبو، ثم عادَت بعد قليل في كامل زهوها، تحمل إلينا إفطارًا من الخبز والزبد ومربى التوت. لم أجد شهيةً للطعام، حتى تناولَت بيديها شريحة خبز مسحَتها بسكينها بالزبد والمربى، وبحنان آسر قرَّبتها مني. عشتار تجلس أمامي، بجلالها العابر للأزمان. حتحور، بعطائها المانح للحياة. قضمتُ الخبز، فيما تعلَّقَت عيناي بابتسامتها الثابتة كالجبال. حتى الجبال تضربها الزلازل، تشقُّها صدوع غائرة، لكنها تعود للثبات، تستقبل الأمطار وتمنح الحياة.

"هل قابلتَ كريشنا؟"، فاجأني سؤالها فتوقّفتُ عن المضغ، أومأتُ مُوافقًا فقالت: "كيف وجدته؟"، قلت: "طيب.. مريض، لكن طيب. لا زال قادرًا على الخياطة". ضحكَت وقالت: "أنت حكيم كأبيك".

كانت تعرف كريشــنا تمام المعرفة. تعرف تاريخه الذي لم أسـمعهُ حتـى منـه. حكَـت كيـف وُلِد فـي الكويت في عهـد البسـاطة، أي في النصـف الأول من القـرن الماضي، حيث كان الهنود جزءًا من نسـيج الكويـت، يذهبـون مشـيًا صبـاح كل جمعـة لشـاطئ قريبٍ مـن قصر الشـيخ عبد الله السالم، ويعومون بداخل "التيوبات" (إطارات داخلية للسـيارات مـا عـادَت موجـودة)، لا يُغلقـون أبوابهم في الأمسـيات، أسـرة كبيـرة يعيش أبناؤها فـي بيوت متفرِّقة. بدأ أبـوه من الصفر، كان يجلـب المياه العذبـة من البصرة محمولـة فوق ظهر حمـاره، ويبيعها لبيـوت الهنـود والكويتييـن على السـواء، يسـتضيف كل خميس أبناء جاليته لأكل البرياني، ومشاهدة فيلم سينمائيٍّ بالأبيض والأسود، عبر آلـة عرضٍ أحضرهـا من الهند، فيترك كل منهم في نهاية السـهرة حفنةَ نقـود قدر طاقته. حين تراكم المال، أسَّـس مطعمًا للمأكولات الهندية لـم يلقَ النجاح المأمول، فباعـهُ وعاد وحيدًا إلى الهند، بعد خلافٍ مع أم كريشـنا زكّاهُ فشـلُ المطعم. عاش كريشـنا من بعدها في كنَف أمه، مُشتغِلًا معها في حياكة الملابس.

على الطاولة اتَّكأَت لاريسـا، وأكملَت تقـول: "كنتُ بصحبة أبيكَ حيـن التقيـتُ كريشـنا لأول مرة. كان رافـت قد ضمَّني لفريـقٍ بحثيّ، أنشـأه لجمع المعلومات حول المتضررين من وقائع الغزو، من بينهم كريشنا. كان من أولئك الذين بقـوا مثلي طوال فترة الغزو، قُبِض عليه بعد أسـابيع مـن رحيل رافـت، رآه أحد الجنود فيما يسـرق حفّاضات

كبار السن من جمعية تعاونية، ولحظِّه العاثر، تعرَّف عليه ضابط الأمن العراقيّ، اتُّهم بسرقة سيارة من معسكر الجيش، ظلّوا يعذِّبونه حتى يُرشد عن مكانها، لو كانوا علموا بأن السيارة تم تفخيخها والزجُّ بها في إحدى "السيطرات" (هكذا كانوا يسمّون نقاط الأمن)، لكان كريشنا قد أُعدم فورًا. بقي مُحتجَزًا حتى انتهاء الغزو، يتسلّى الجنود بثقبه بمثقاب كهربائي، كانوا لا يُبالون بتفجُّر الدم، فصوت اختراق العظم هو ما كانوا ينشدونه دائمًا، كان كريشنا يقص مأساته بآلية عجيبة، كأنها مرَّت بشخصٍ آخر، يصف صراخه بطريقةٍ أقرب للسخرية، حتى إنني شككتُ في صدقه ذات يوم حين حكى ما قام به جنود عراقيون، أضرموا النار في طرف قميصه وشرعوا يُشعلون سجائرهم منها، حتى أفلت منهم بقوة الصراخ والفزع، وأطفأ ناره في جدار أسمنتي ظل يضرب فيه جسدَه حتى سقط مغشيًّا عليه. لم أُصدِّقهُ أول الأمر، إذ قص علينا الحادثة باعتيادية تامة، وحين شعَر باستغرابي أرانا الرقعة السوداء التي تُغلِّف بطنه، فقد أُصيب آنذاك بحرق من الدرجة الثالثة لم يُعالج بالطبع، كما أرانا نقاطًا سوداء تُشبه الثقوب، سألتُه عن كنهها فقال: كانوا يطفئون سجائرهم في أقرب شيء تطوله أيديهم".

حاصرتُ شعوري بالصدمة وسألتُ لاريسا: لِمَ لا نُضمِّن هذه الشهادات في الفيلم؟ فقالت إنها تُفضِّل التقيُّد برؤية أبي؛ أن يتناول الفيلم قصَّتها فحسب، ثم شرعَت تُكمل ما حدث لكريشنا بعد التحرير.

"كان مشرَّدًا حين عثرنا عليه، يُعاني آلامًا لا يُمكن تحمُّلها في عظامه المثقوبة، لا يملك بيتًا بعد وفاة أمه بمضاعفات السيلان، ولا مالًا. لم يكن مُستحِقًّا لتعويضات الحكومة، فليس مواطنًا ولا موظفًا رسميًّا، وكان رافضًا تمامًا لأي إجراء قد يتسبَّب في ترحيله من الكويت. كان يعتبرها وطنه الوحيد، يريد أن تُنثر رُفاته على امتداد شاطئها الحبيب لقلبه. كان خوفَه ألا يجد بيتًا يستره حين يعجز تمامًا عن العمل، وكان يحلم بسُكنى بيت شعبي كالذي احتضن طفولته، وشاهد فيه أفلام السينما مع أبيه وأمه".

"أسكنّاهُ في مُلحقٍ بمنطقة الفروانية".

"حقًّا؟".

"نعم، هكذا أمَر أبي".

قالت: "حسنًا فعلتم"، بينما أجهشَت نينا في بكاء مفاجئ. لولا إيماءة لاريسا لكنتُ سألتُها عما انتابها، غمسَت لاريسا أصابعها في برطمان المربى، لطَّخَت بها وجه نينا، فتبدَّد البكاء على الفور واستحال ضحكًا طفوليًّا، قامَت على إثره بتلطيخ وجه أمها بالمثل، قبل أن تلتصقا في احتضان وددتُ لو أنني جزء منه.

في الظهيرة حملنا معدّاتنا ومضينا نحو دروب الجبل، تسبقنا حماسة لاريسا وقوَّتها الأزلية. جاسَت نينا تبحث عن أنسب موضع للتصوير. كانت أشعة الشمس تسقط بجسارةٍ فوق هامات الأشجار،

فتصدُّها الأوراق هبوطًا نحو الأرض. كنتُ أشعر بتكسُّر الأوراق الذابلة والفروع الجافة أسفل حذائي، فتنتابني قشعريرة خافتة، كأني أعذِّبها كما تعذَّب كريشنا، أثقب عظام الأرض كغازٍ بلا قلب. كتمتُ شعوري كيلا أُعكِّر الصفو، لكن لاريسا بحدسها العميق تناولَت يدي، وجذبتني معها لحيث توقفَت نينا. قالت: "ما بك؟"، قلت: "لا أدري، أشعر بحساسية مفرطة، يتهيَّأ لي حين أدوس الأرض أني أدهس عظامًا بشرية".

جلسَت لاريسا أسفل شجرة باسقة، أومأَت إليّ لكي أقترب، في حين نادَتني نينا كي أثبِّت معها عواكس الضوء، صدحَت لاريسا: "تمهّلي يا فتاة"، ورنَت إليّ حتى سقطَت عيناي في حجري، قالت: "الأرض بيت أبديّ، يضم العظام ضمة نهائية، ليس ثمة ما يُحزِن في ذلك، فلا بد لكل شيء أن يتوقف ذات يوم، إلا عجلة الزمن، هي الوحيدة التي تقتات على الجميع لتُنبِت غيره، وهكذا".

قلت: "كلامكِ غامض لاريسا"، فقالت: "أتّفق معك، ربما يتضح حين نستكمل الفيلم".

35

بعد انقضاء الغزو بأسابيع، عاد أبي إلى الكويت. كان مسؤولٌ من مكتب الشيخ سالم الصباح قد اتصل به في شقة الإسكندرية. حاولوا تجميع أكبر عدد من رجال المقاومة، تمهيدًا لإقامة احتفالية كبيرة على شرفهم، وكان أبي أحد أبرز الأسماء التي أرادوا تكريمها. ذكَره الشيخ سالم بالاسم، في الكلمة التي ألقاها على المحفل المهيب، مُبرِزًا دوره ليس فقط في صدِّ العدوان، بل في دعم المرابطين في أرض الوطن، نوَّه كذلك بعلاقته الوثيقة بالشيخ الشهيد فهد الأحمد الصباح. فقدَ أبي تماسكه حين تسلَّم الدرع الذهبية المنقوشة بصورة الشهيد. أجهش للحظة في البكاء، قبل أن يستعيد زمام أعصابه. قد يكون البكاء ما عمَّق تقديرهم له، وساهم في بلوغه المكانة التي خصَّه بها الشيخ السالم، الذي ضمَّه بعد الحفل بأيامٍ لعضوية اللجنة الوطنية لشؤون الشهداء والمفقودين، وعيَّنه سفيرًا فوق العادة للنوايا الحسنة. كان الوحيد الذي تقلَّد هذا المنصب من غير الكويتيين، صار أحد ممثلي اللجنة أمام الصليب الأحمر. تفرَّغ لهذا الملف، فلم يعُد لعمله السابق قبل الغزو، لكنه استعاد علاقاته كاملةً وسعى لتوظيفها في خدمة هدفه. استفاد من قائمة توزيع المعونات والأغذية التي

استخدمها أثناء الغزو في الوصول لعدد من المتضرِّرين، من بينهم كريشنا، كما تواصل مع زملائه القدامى للوقوف على عدد المنكوبين من موظفي الفنادق. هكذا وصل للاريسا.

كانت لاريسا أبرز نموذج توقَّف أمامه؛ أوروبية جميلة، ثابتة إزاء الفاجعة، تُفصح بجسارةٍ عما تعرَّضَت إليه عكس مثيلاتها الكويتيات، اللاتي كن يخشين الفضيحة. ساعدتهُ في إعداد ملف يحوي شتى البشاعات، وآمنَت معه بضرورة تحويل الطاقات السالبة التي خلَّفها العدوان لجهدٍ إيجابيّ، يردُّ الحقوق ويستعيد الأسرى. من مات فقد مات، أما الأسير فبحاجةٍ لظهير سياسي وإعلامي ينشر قضيته، ويدفع نحو استعادته. "لا تنسوا أسرانا"، كان اسم الحملة التي ابتكرَتها اللجنة الوطنية من وحي الملف، للتوعية بقضية الأسرى، اختاروا لها اللون الأصفر، لون التفاؤل والحرية، وهو ذاته لون الملف الذي تجمَّعَت بداخله الشهادات والبيانات.

كان ضوء النهار يُضيء وجه لاريسا بوهج الذكرى، فيما تحكي قصة عملها بجوار أبي. تناولَت فرعًا جافًّا من الأرض، دوَّمَت بإصبعها لتُحدث حفرةً صغيرةً في تُربة الغابة، غرسَت بداخلها الفرع الدقيق وأردفَت تقول: "كنا نصل الليل بالنهار في انتظار بيان من جهة ما، أو شهادة سيُدلي بها أخيرًا أحد المُغتصَبين، من النساء والرجال على السواء، حتى العاهات المستديمة كان البعض يُخفيها خشية التعرُّض لخسارة وظيفته، انتدبني رافت للعمل معه، صرنا لا نفترق

أبـدًا، نحضـر اجتماعـات بالداخل والخـارج، نعتمد حـالات العلاج على نفقـة الحكومـة، نلتقـي بمسـؤولين عراقييـن ودوليـين، نحاول الضغـط على النظـام للإفصاح عـن المُحتجَزين. كنتُ أُقـاوم بالعمل شـعورًا عميقًـا بالمهانـة، بالانكسـار وبالـلا جـدوى، بافتقـاد عائلتي وانعدام مقدرتي على مصارحتهم بما حدث. صارحتُ العالم بأسـره، إلا عائلتـي. أصابنـي اليأس عدة مرات، حيث كنتُ أنغلق على نفسـي ولا أرد علـى أحد. في تلك الحـالات كان رافت لا يتوانى عن اقتحام عُزلتـي مهمـا كان مشـغولًا. فـي إحدى المـرات رفض السـفر بدوني واقتحـم جناحي فـي فندق الهوليـداي إن، كان مديـر الفندق صديقه، حـاول إثناءه دون فائدة، اضطُررتُ لاسـتقباله نهاية الأمر. كنتُ أعاني من آلام حادة بالبطن، أصر على اصطحابي لمستشفى قريب، رفضْت، لـن يكشـف عليّ طبيب، "يمكننا الكشـف عند طبيبـة لا طبيب"، أخذ يقـول حين فطِن لخوفـي، أصررتُ على الرفـض، وصمَّم على معرفة السـبب، لم يكن يعرف بأمـر الندبة التي خلَّفها الضابـط العراقيُّ بعد، أخبرتُـه تحت ضغطٍ من إلحاحه الشـديد، صمَّم علـى رؤيتها، أفزعني إصراره، شـرعتُ أدفعهُ بعيدًا عني، أمسـكني بقـوَّة وضمَّني إليه، كنتُ أرتجـف، شـعري يغمر أنفه المغروس في رأسـي كنصـل رهيف، لثَم خصلاته وراح يتنفَّس ببطء، غمرني دفء أنفاسـه، ذوَّبني بسخونة أنفه وشـفتَيه، فيما يهبط بهدوء نحو جبهتي، وجنتيّ، تلمَّس سـبيلًا سـاخنًا صوب شفتيّ، قضمَهما بحنانٍ أذابني، شعُرت بارتخاء ناعم، وسخونة

موجِعة تضرب نصفي الأسفل، شقَّ بهدوء مجرى الحنين بين ثديّ، أخذ يحلُّ أزرار بلوزتي، ألصق ببطني وجهَه الخشن، تلاشى وجعي في الفيض الساخن.. حتى لثَمني ثلاث مرات في محيط الندبة.

"كان أول لقاء حميمي يجمعني برجُل، كنتُ قد بلغتُ الثالثة والثلاثين، ولم أُشارك رجلًا في الفراش مرة واحدة. فعلها رافت المجنون، الحب يصنع المعجزات، وكان حبي قد اندلع فجأة كمارد مصباحٍ مع لثماته الثلاث. كان اللقاء مبتورًا بالطبع، لكنه الأجمل على الإطلاق، نمنا عاريَين، يلثم كل منا الآخر كل بضع ثوانٍ في أي موضع، كان يخص الندبة باهتمام خاص، يُداويها بالحب، وأظنني شُفيت، فقد حاولتُ النهوض بعد ساعات كي أرتدي ملابسي، رفض رافت، أخبرتُه أني أشعر بالبرد، قال: لا يعنيني، قلت: اترُكني، قال: ليس قبل إجابة طلبي، قلت: ماذا تريد؟ قال: تزوَّجيني.

"ارتدينا ملابسنا وانتظرنا طلوع النهار، ومضينا لمكتب مأذون شرعي أشار به مدير الفندق. ارتدَت الكويت لأجلنا أبهج حُللها، واحتفى بنا كل من أحب رافت، منحَنا الشيخ سالم منزلًا جميلًا في ضاحية عبد الله السالم، أجمل ضواحي الكويت آنذاك، ولثلاثة أيام متتالية كانت الألعاب النارية تندلع من أعلى سطحه احتفالًا بزواجنا، الذي لم يُنغِّصهُ إلا رفضي القاطع لممارسة الحب حتى ذروته. كنت أفزع بمجرد أن يشرع في الأمر، وكان متفهِّمًا لأبعد حد، أصدُّ محاولاته فيعود للثمي بحنان فائق ويُنيمني في حضنه.

"فرَّغنا طاقتنا في العمل سويًا، نُلقي المحاضرات ونستدعي التعاطف، ثم ندفع بقائمة أسماء نشك في كونها على قيد الحياة محتجَزةً في العراق. بقيَت معضلة كريشنا تؤرّق رافت، يُريد مساعدته فلا يستجيب، لا ذهاب لمستشفى رسمي، لا ملف تعويضات. لا علاج على نفقة الحكومة، أمدَّنا بمعلومات كثيرة عما جرى بداخل المعسكرات، عن أعمار المحتجَزين، جنسياتهم، عدد من شهِدهم يُعدَمون أو يُعذَّبون، لكن أبدًا لا يريد شيئًا لنفسه، أخذه رافت لمنزل صديقه وزير الصحة ليكشف على عظامه، في إحدى المرات أخبره بتعهُّد الوزير بحل مشكلته، سيُقدِّم أوراقه للمسؤولين، مع ضمانة شخصية ألا يتم ترحيلُه من الكويت. فزِع كريشنا المسكين، أومأ رافضًا بجماع رأسه وأطرافه، حاول رافت طمأنتَه، لكنه رفض تمامًا. اتركوني أذهب، صار يقول. أعدناه لشقَّته المستأجَرة مع عدد من أقرانه، في اليوم التالي كان قد اختفى، لا أحد يعرف أين ذهب، جمع ملابسه في صرَّة، واختفى إلى الأبد".

36

على حافة الطريق الجبليّ، وتحت مصفاةٍ من أوراق الشجر تسمح فقط بمرور ندفاتٍ من الضوء الأملس، كدتُ ألمس جوهر الحكاية.. حكاية لاريسا، كريشنا، أنيشكا، أمي وأبي، حتى جدتي ورانهيتا العجوز، ربما تايا أيضًا، لا أستبعد. كان بصري يغيم تدريجيًّا من الوهج، حين أسرح في تأمُّل ندفةٍ وهّاجة من الضوء الشفيف، أغرق في ضباب مسحور، يخفتُ بجواري صوتُ لاريسا، كأني أسقط من فراغات الحكاية في حُلم غائم، ثم إذ بي أفيق مرةً واحدة، ينكشف الضباب عن صورةٍ حادَّة التفاصيل للأوراق الجافة، فائقة النقاء، كأني أرمق شاشةً ذات تقنية فريدة تمنح للصورة أبعادًا صعبة الإدراك.

ما الفارق بين "كويت البساطة"، وهذا الطريق الجبلي الصاعد؟ ما الفارق بين لاريسا وأمي؟ بين جدّتي ورانهيتا العجوز؟ بيني وبين أبي؟ تتماهى الحكايات ويتداخل أبطالها خلف غشاء الحُلم بطريقة مُحيِّرة، أو كاشفة، لا يمكنني التحديد! جميعنا ذات الشخص، تمنحهُ الحياة جملةً من الصفات، وتُعيد تشكيله الظروف حتى ليبدو مختلفًا، فينخدع في الآخَر، ولا يمد يده ليلمس الجوهر.

مضينا نتسلّق الطريق ببطء، يحفُّ بنا الجبل كقوقعةٍ هائلةٍ نغوص في جوفها ونتسمَّع السر، سر أبي، الذي مضى بعيدًا في تسويق أفكاره، آمن بأن السياسة ليست محض جولات تفاوضية تقوم بها أطراف متعارِكة، بل تمهيدًا للأرض واصطناعًا لأجواء ما قبل التفاوض، توسَّع في دائرة علاقاته بالساسة والمسؤولين، صار أحد المخطِّطين للأمر برمَّته؛ يضع تصوراته حول التحركات التالية، يقدّر الميزانية المطلوبة، يتعاقد مع محامين دوليين، يُشكّل البعثات؛ من يسافر، من يظلّ، من يُرافق الصليب الأحمر ومن يُمثِّل اللجنة أمام الأمم المتحدة. وفيما تشابكَت الصلات من حوله، كلّف لاريسا بتجميع الشهادات من أسرى عراقيين؛ أوروبية تتحدَّث العربية بطلاقة، عاينَت بنفسها أهوال الغزو، هي الأجدر باصطحاب موفدي الوكالات العالمية والترجمة بينهم وبين الأسرى، ولديها من الصلابة ما يؤهِّلها لذلك. حاورَت عددًا من أشباه مُغتصِبيها، قد يكون من بينهم مَن واقعَها في إحدى نوبات غيابها عن الواقع المفزِع، كانوا لا يقِلّون عنها بؤسًا ولا انكسارًا، مُحتجَزين في ظروف أشد قسوة، يعانون سوء التغذية، والخوف، والعدَمية.

أخذَت تساؤلاتها تتمدّد بداخلها كما في السابق؛ من الظالم، من المظلوم، ما الحرب، أين الله من كل ذلك؟ لم يحفَل أبي بشكوكها؛ "الظالم من اغتصَبكِ من قبل، الحرب أمر لا بد منه، والفيصل هو الدافع من ورائها والالتزام بمواثيقها، إن شئتِ فلتؤمني وإن لم تشئي فهذا شأنكِ، لن يُحاسبكِ عليه أحد، ما سنُحاسَب عليه هو مهامنا

التي كُلِّفنا بها، مهما اضطربَت مشاعرنا.. ولا مجال للتعاطف مع مجرمين".

"من هم المجرمون؟"، تساءلَت لاريسا، "من يُنفِذون الأمر أم من يوجِّهونه؟ كل آمِر مأمور، حتى الطاغية العراقيّ المجنون مأمور بطريقةٍ أو بأخرى".

ظهرَت شبكات المحمول في منتصف التسعينيّات، واقتنَت لاريسا مع أعضاء جميع اللجان هواتف نقّالة، أخبرها أبي أن أجهزةً كهذه تُستعمَل في الحروب منذ ثلاثة عقود. جميع الطفرات التكنولوجية وليدة الحروب منذ الأزل، وبغير التقنية العسكرية كانت الإنسانية ستقف بكسلٍ أمام عتبات الكهوف. صدمها رأيُه، رأت فيه دفاعًا عن فكرة الحرب، لكنه أضاء في عقلها ثُقبًا أسود.. البشر تروس؛ تروس كبيرة تُحرِّك تروسًا أصغر فأصغر بلا نهاية. كبُرَت أو صغُرَت ستتآكل التروس؛ ستبصقها الماكينة وتستبدل بها تروسًا جديدة، وتستمر في الدوران.

قفزَت لاريسا لطورٍ جديد من التعاطف مع الإنسان، ومخاصمة الزمن.. الزمن هو الماكينة الكبرى، التي تأكل الجميع وتبصق هياكلهم، هو الوحيد الماضي دومًا إلى الأمام، كل ما دون ذلك تروس. تبخَّر اهتمامها بالقضية دفعة واحدة، تزامن ذلك مع حملها نينا، فكان منطقيًّا أن تقعُدَ عن العمل، الغريب أنها بادرَت بتقديم استقالتها وغرقَت في اكتئاب شديد، فسَّره أبي باضطراب هرموناتها جراء الحمل.

جلسنا فوق ربوة صخرية تُشارف قرية جوتزنس، من مسافة جعلَتها تبدو كوليدٍ مُنكمش حول نفسه، واصلَت لاريسا تقول: "كان الاكتئاب أداة اعتراضي الوحيدة، هكذا أراه الآن، أما آنذاك فقد بدا انسحابًا كاملًا، تلتهُ حالةٌ من عدم الاكتراث، ومن بعدها تحوُّلات أكثر فجاجة. فقدتُ إيماني بكل شيء، حتى الحب، لم يعُد يشكِّل طوقَ نجاتي. جذبَتني أفكار اللا أدريّين، انضممتُ لمنتدياتهم الإلكترونية، قنعتُ بوجاهة إيمانهم بالإنسان، ثم ظهر من بينهم أندريه.

"كان أحد المنظِّرين القياديّين في المنتدى، لفتَتني فجاجتُه، وآراؤه التي كان يدحض بها أي رأيٍ يُناهضه. أنا رسول نهاية الزمان، كان يقول، لم يُرسلني إله، لستُ بحاجةٍ لإله يُرسل ويمنع، أنا من أرسلني إليكم، سأقودكم نحو إيقاف هذه العجلة الجهنَّمية؛ عجلة الزمن. سنختار بأنفسنا نهاية حياتنا، رأس الألفيَّة الجديدة، سنحتفل بانتصارنا أخيرًا على الحياة، سنهزمها بالموت، فلنمُت جماعةً، ولنرَ كيف سيستمر العالم بغير بشر".

"كانت دعوته تكتسب تعاطفًا جنونيًّا كل يوم، لا تمرُّ ساعة دون إعلان عضو جديد تأييده لحركة إيقاف الزمن؛ الانتحار الجماعيُّ ليلة رأس سنة الألفيَّة الجديدة. كنتُ أُتابع بشغف، وأنقل كل ما يقوله أندريه في نوتة صغيرة، وأسترجعه مجمَّعًا حين تنام رضيعتي. حتى عاد رافت يومًا في ساعةٍ متأخرة، ألفاني غافيةً أمام التلفاز المفتوح مكتوم الصوت، الذي يضجُّ بداخله جنونُ قناة MTV بالصورة فحسب،

طفلتي فوق حِجري، بجوارها النوتة الصغيرة ونظارة القراءة. التقطَ النوتة، قرأ فيها وانتابهُ الوجوم، كان غير مُصدِّق، دسَّها في جيبه وذهب يُحضِّر قهوةً مُركَّزة، جلس قِبالتي حتى صحوت، "ما هذا؟"، قال فيما يرفع النوتة أمامي. قُمت. وضعتُ نينا في مهادها، لا أعرف كيف أجيبه، مرتبكةً كطفلة مُذنبة، رغم ذلك مشحونة بالغضب. "أفكار"، واجهتُه، فتعجَّب قائلًا: "أفكار؟!"، راح يستهزِئ بالكلام المكتوب، يسخر من حماقة صاحب "الأفكار" ويتحسَّس موقفي من سخريته. "لن أفعل مثلهم، لو كان هذا ما يُقلقك"، قلتُ بتماسُك مُفتعَل، فقال بجهامةٍ قاتمة: "لم أعُد أثق بشيء".

"لم يتركني لحظة، لم أرَه نائمًا بعدها، حتى مرَّ به مساعده في اليوم التالي وسلَّمهُ ظرفًا أبيض. كانت بداخله تذاكر طيران للنمسا".

37

كنتُ أُوضِّب حقيبة السفر حين طرَق الباب، دخلَت نينا وجلسَت على حافة السرير، سندَت نصف الحقيبة الأعلى لتبقى مُشرَعة أمامي فيما أرصُّ المحتويات. قالت: "اكتُب لي اسمكَ كما تُريده أن يظهر في تتر الفيلم"، قلت إن ذلك ليس ضروريًّا، فتعجَّبَت قائلة: "كيف؟! إذا كنتَ تمثِّل ثلاثة أرباع فريق العمل؛ المحاوِر، مُنسِّق المناظر، مدير الإضاءة... ماذا أيضًا؟ مورِّد المعدّات.. والمنتج المنفِّذ". شردتُ أفكر إن كنتُ فعلًا قد قمتُ بهذه الأدوار، فيما جذبَت نينا سحّاب الحقيبة وأردفَت تقول: "سيظهر اسمكَ خمس مرات، لذا عليكَ الاهتمام بطريقة كتابته".

اقترحَت: Hany R. Abdulsamad ، لكني رأيتُ ألا يظهر اسمي الأول على حساب اسم أبي؛ هو صاحب فكرة الفيلم في الأساس، قالت إننا سنُضمِّن اسم أبي في بداية التتر، كصاحب الفكرة وأحد المشاركين في كتابة السيناريو، ما جعلني أشعر بحضور أبي أكثر من أي وقت. اقترحتُ: H. R. Abdulsamad، لكنه لم يرُق لها، قالت: "يبدو اسمًا لشركة توظيف"، ثم حملَت حقيبتي لخارج الغرفة. صحتُ

مُغناظًا: "اختاري ما تشائين"، وشردتُ أُحصي حاجياتي المهمة كي لا أنسى شيئًا. خطرَ لي أني نسيتُ أهم شيء؛ الهدايا. "لقد فاتَني شراء هدايا لزوجتي وابنتي"، قلتُ لنينا بوجلٍ جعلها تقول: "أمامنا وقت كافٍ، لا تقلق".

عرضَت عليّ أكثر التذكارات رواجًا بين السياح؛ مجسَّمات الفيريس العملاقة، حُليّ فراي ڤيلا، شوكولا موتزارت كوجل المميزة، كعكة ساخار تورتا الشهيرة. "أنتِ الأنثى هنا، فكِّري فيما يجعلهما أكثر امتنانًا". رمقَت الجدار بجانب وجهها، ثم قالت: "لن تخسر رهانكَ أبدًا على الحُليّ، ولدى فراي ڤيلا أذواق تُناسب الفتيات والسيدات".

"ماذا عن هدية أمي.. كدتُ أنساها!".

"أمك.. لا تحرمها من مُتعة تذوُّق ساخار تورتا. ثِق بي".

"متى نبتاع كل ذلك؟!".

"يمكننا المرور بفرع فراي ڤيلا في إنسبروك، في طريقنا إلى القطار، لكن لو استقررتَ على شراء الكعكة، فالأفضل أن نركب رحلة القطار الأبكر بساعتين، لنتسوَّق في فيينا قبل الذهاب إلى المطار".

هكذا قرَّرنا التحرُّك فجرًا، أصرَّت لاريسا على أن توصلنا بنفسها لمحطة إنسبروك. جلستُ في المقعد المجاور أراقُب لاريسا خشية

ألا أراها ثانيةً، صارَت تتلفَّتُ نحوي كل بضع دقائق لتمنحني ابتسامتها المضيئة رغم العتمة. استجمعتُ جرأتي وقلت: "هناك سؤال غير لائق يلح عليّ"، قالت: "سَل ما شئت"، فازدردتُ ريقي وقلت: "لماذا تمضين كل هذا الوقت في الكنيسة طالما لا تعتبرين نفسكِ كاثوليكية كما كنتِ؟"، صمتَت حتى خِلتُها تضايقَت من السؤال، لكنها عادَت تقول: "كريشنا أيضًا كان يُحب المكوث في المساجد، خاصة أثناء صلوات رمضان المسائية.. في الأماكن المخصصة للعبادة راحة، خاصة تلك المباني ذات الأسقف العالية والمساحات الفسيحة، كأنها مُقتطعةٌ من الملكوت، تشعر بداخلها بالتضاؤل والاطمئنان". بعد برهة أردفَت: "قديمًا كنا نسأل كريشنا عن إيمانه حتى نضحك من إجابته، كان يقول: أدين بدين الفأر المذعور، والقط المتربِّص به.. كان حكيمًا على بساطته، الآن أدين بدينه، وأرى فئران الكنيسة لا تنذعر كغيرها من الفئران".

ودَّعتُها بضمّة طويلة أمام المحطة، ومضيتُ مع نينا دون النظر إلى الوراء، خشيتُ أن أبكي لمجرد النظر إليها من بعيد، ومنَّيتُ نفسي بزيارةٍ قريبة للنمسا. في القطار، سألتُ نينا إن كانت تملك حسابًا على فيسبوك، أضفتُها، وعدَّلتُ صفة العلاقة لأجعلها أختي، صاحَب ذلك شعور عجيب بالانتشاء، صارَت أخوَّتنا حقيقةً دامغة، مُعلنةً على نحو مُفرح، كأني أُعلن للعالم أني صرتُ شخصًا آخر أثقل وجودًا فوق الأرض، لم أعُد بحاجة لسماع صوتها طوال الرحلة،

فقد صار يتردَّد بداخلي باستمرار. تركتُها لتنام مُسنِدةً رأسها الجميل فوق كتفي، يتخلَّل أنفي عطرُها الناعم، فيما أُطالع الجزء المتبقّي من سيناريو الفيلم؛ ذلك الذي لن أشهد تصويره، لكني أحطتُ بمحتواه من حديث لاريسا ليلة أمس.

حكَت لي كيف سعَت جاهدةً لإثناء أبي عن قراره، لم تتصوَّر أبدًا أن يترك الكويت ليُعيدها لأهلها، لستُ مُستعدة، أخذَت تقول، فلم تجد إلا أذنًا من طين. أعادها عُنوةً لحضن الجبل، لسهوبه الخضراء الحانية وشمسه الساطعة بحُب فوق العالم. وهناك مرَّ عليها عامٌ ثقيل، تراكمَت خلاله ثلوج الألب فوق قلبها، أطفأَت ثورتها وجمَّدَت يقينها عند حدِّه البائس.

كانت جوتزنس تتأهّب بدأب لحلول الألفية، لإبرام عهد جديد مع العالم على العيش بسلام، العمل جارٍ على قدم وساق لاستقبال السياح، خالة نينا تُعِدُّ ملابس احتفالية مستوحاةً من أزياء تيرول، في حين كُلِّفَت لاريسا بإعداد شراب الهولاندر لضيافة الزائرين، نزل أبي معها لقبو البيت، حاملًا نينا الصغيرة، أخذا يستخرجان شربات الزهور المركَّز، يُمزجانه بماء بارد مجلوب من بئر جبلية، يُعبِّئانه في آنية فخارية يوصدانها بغشاء من شمع العسل، ويرصانها فوق أرفف القبو طيلة النهار، وفي المساء يُنيمان نينا في هدأة المنزل ويتمشيان في الدروب الجبلية، يتنفّسان الطبيعة، يوطِّدان علاقتهما مع العالم الآخذ في الأفول، استعدادًا لميلاد جديد.

مرّت ليلة الألفية كسابقاتها. لم تهبط مقصلةٌ فوق رأس السنة، لم يتصدّع العالم كما وعد أندريه أتباعه المنتحرين، لم تعرف لاريسا أبدًا مصير اللا أدريين، لكنها استعادَت يقينها على نحو جديد؛ يقينها في الإنسان، سيد هذا العالم، صانع المأساة والحياة على السواء، باني الحضارة وهادمها على التوالي، مانح عجلة الزمن دورانها السرمديّ، الذي تبدّى بوضوح في بهاء نينا وولعها بالحياة.

أفاقَت نينا قبل وصولنا بمدة وجيزة، طالعَتني بعينين مرتعشتين من وهج النهار، فسارعتُ بإسدال الستارة المجاورة، "نمتِ طويلا"، قلت، فسألَتني: "هل اقتربنا؟"، "الشاشة تُشير إلى أن أمامنا عشر دقائق" . ابتسمَت بارتياح، ثم قالت: "أنا جائعة!"، أشفقتُ عليها وقلت: "سنسارع بأكل شيء حالما نصل".

38

حين وصلنا محطة فيينا، كانت الشمس قد أقامَت قيامة العالم، قيامةً أقرب إلى الصمت الوجِل، عكس قيامة القاهرة الصاخبة فوق الاحتمال. خرج الناس أفواجًا يهرعون، كأني أُشاهد أمثولة لاريسا تتحرك أمامي، البيوت تلفظُ قاطنيها لشوارع المدينة، كما عصافير تُغادر أعشاشها في رحلة بحثٍ صباحية عن قوت اليوم؛ هؤلاء هم تروس الماكينة كبيرةً وصغيرة، من يحترقون في غرف الوقود ويمتزجون مع زيت المحرك، يدفعون بعضهم بعضًا في حركة دائرية بُدِئَت لتستمر.

اقترحَت نينا أن نستودع الحقائب في أمانات المحطة، على أن نعود لاستلامها قبل التوجُّه مباشرةً إلى المطار. تبدو صغيرةً هذه الفتاة، لكنها ذات خبرة في التنقُّل والترحال. ذكية، ومرتَّبة، وفوق كل ذلك، أختي. ملأتُ عيني منها حُبًّا فيما تُصوِّب اليوروهات المعدنية في فتحةٍ طولية بجانب الخزانة، نبَّهَتها نظرتي فرنَت نحوي بتساؤلٍ جعلني أقول: "لا شيء، غير أني معجبٌ بكِ لأبعد حد".

مضينا لاستقلال المترو؛ حشرٌ آخر أكثر كثافة، وإن كان منظَّمًا كما كل شيء. وقفنا مُتقابلَين، سألتني: "هل يبيعون الزهور الصفراء هناك

في مصر؟"، فقلت باندهاش: "زهور صفراء؟ لِمَ تسألين؟!"، قالت: "أريدكَ أن تشتري باقةً باسمي وتضعها فوق قبر بابا". لمحتُ الغصَّة التي اعتصرَت حلقَها، جذبتُ رأسها الصغير وطبعتُ قبلةً فوق خصلةٍ نديَّة في لون الكستناء، قلت: "سأفعل".

صمتَت قليلًا قبل أن تُردف: "ستجد ألبومًا لصور شالي على صفحتي".

"شالي؟".

"نعم، قلعة سيوة الأثرية".

للحظةٍ ألجمَتني المفاجأة، ثم وجدتُ الأمر منطقيًّا حين استفاضَت نينا في سرد التفاصيل. فمنذ قرر أبي العودة لوطنه، ظلت تزوره برفقة لاريسا في عطلات الكريسماس، فيما يُسافر إليهما في إجازة الصيف. جاء قرار العودة بإيعاز من لاريسا، أرادَت أن تجعلهُ يخوض تجربة العودة إلى الأصل، سيدور الترس دورةً كاملة، دورتَين، مائة، لا فرق، سيعود نهاية الأمر لنقطة البداية، عُد لنقطة بدايتك، بأسنانكَ المبريَّة من كثرة الاحتكاك، وجسدكَ المنهك لطول ما تحمَّل الدوران، تأمَّل تجربتكَ من نقطة الثبات، نقطة البداية.

كانت لاريسا على يقين بأنه تزوَّجها رغبةً في إنقاذها، واضطر من أجل ذلك أن يترك عمله ويتفرَّغ لرعايتها، كان "ملاكها الحارس" كما ظلَّت تسمّيه، وقد قام بمهامه على أكمل وجه، ومنحها حياةً جديدة

في صورة جنين ينبت في رحمها. قبِلَ رغم عنفوانه ورجولته أن يبذر بذرته بتلقيحٍ اصطناعي. يستطيع الآن أن يمضي في رحلته، لو كان يريد البقاء في النمسا لكان تعلَّم الألمانية، لكان انشغل بوظيفةٍ تُدِرُّ دخلًا، لكنه اختار البقاء كضيفٍ عابر على حياة جوتزنس. تواعدا على تبادل الزيارات مرتين كل عام، اختُزِلَت في بعض الأعوام لزيارة واحدة، واستمرَّت الحياة.

تجاوزَت حسابات نينا درجة المثالية، وصلنا الحي الأول في تمام العاشرة، مع بداية دوران عجلة البيع والشراء، بدأنا بفندق ساخار، وكنا أول زبونَين يدلفان لمنفذ بيع الساخار تورتا، توافد وراءنا الزبائن فيما نختار الكعكة الأنسب، وخلال عشر دقائق كنا قد استلمنا العلبة الخشبية، التي تحفظ الغنيمة البنيَّة ذائعة الصيت. سألتُ نينا: "ألم يكن الأفضل أن نؤجِّل شراء التورتة لنهاية المطاف، فلا نضطر لحملها؟"، فقالت: "لو أجَّلنا شراءها لاستغرقنا نحو ساعةٍ كاملة، وليس لها وزن يُذكَر، لا تحمل همًّا".

مضينا فوق أرصفة فسيحة، محاذيَين المباني الموغِلة في القِدم، لو أمكننا أن نمحو السيارات واللافتات الضوئية لقفزنا بيُسر فوق ثلاثة قرون مضَت. حين اجتزنا شارع كانتنار، وفيما أُطالع عربةً جميلة ذات حصانين، توارَت السماء بغتةً خلف مبنى شاهق مهيب، مثير للرهبة على نحو غامض، رقيتُ ببصري مُحاولًا تسلُّق أعلاه، كان مُحالًا، فأبراجه المُشهرة صوب السماء لا يُمكن إدراكها من حيث وقفنا.

كانت كاتدرائية سانت ستيفان، التي يمتد عمرها لنحو ألف عام. استدرنا حولها، فطالعَتنا واجهة فراي ڤيلا الأنيقة.

تركتُ لنينا اختيار الحليّ؛ سوار أنيق وخاتم قياس 7 لحساب تايا، وقلادة بديعة لساندي، وفيما أدفع الأثمان الباهظة لمحتُ أزرارًا رجالية لأسورة القمصان، فتذكَّرتُ ياسر، تردَّدتُ لبرهةٍ خشية ألا يُناسبه الذوق، ثم التقطتُ زرارَين وأضفتهما للفاتورة. أصرَّت نينا على التقاط صورةٍ لي، فيما أحمل بيدٍ حقائب فراي ڤيلا وبالأخرى كعكة ساخار تورتا. كنتُ سعيدًا برفقتها. خطر لي أن نتناول إفطارنا حيث تقابلنا أول مرة، تحمَّسَت كثيرًا، وعُدنا في ذات الطريق الذي قطعناه قبل قليل. كان أمتع إفطار يُمكنني تذكُّره، ربما بفضل الصُّحبة، ووجدتُها فرصةً لشراء علبة الشوكولا الحمراء التي أهملتُها في المرة السابقة. "يمكنكَ شراؤها بمبلغ أقل من أماكن أخرى"، كرَّرَت نينا نصيحتها، فقلت: "لا يُهم، سأدفع الفارق مقابل صورة في الكافيه العتيق، وأنا أحمل علبة الكمان البديعة".

ركبنا المترو من جديد، كان أقل ازدحامًا هذه المرة، ومشينا بخطوات حثيثةٍ نحو محطة القطار. استلمنا الحقائب ووزَّعناها فيما بيننا، واستقللنا تاكسيًا من موقف السيارات. "إلى المطار"، فهمتُها حين قالتها نينا دون حاجة لترجمة. انشغلتُ في تجميع أكياس الهدايا في حقيبة اليد، مُحاولًا دفع الشعور الثقيل الذي أخذ يملؤني ببطء. للوهلة الأولى رفضتُ تفسير الشعور المفاجئ بخشيتي من فراق نينا،

في ذات الوقت كنتُ أتوق لرؤية ساندي، لأن أمنحها السعادة رغمًا عنها، كما أشتاق إلى أمي فوق الاحتمال، بقيَت تايا كغُصَّةٍ في الحلق، لعلَّها وجدَت الفرصة موائمة لإجراء كل عمليات التجميل التي ترغب في عملها بعيدًا عن ملاحظتي. سيُصيبها بالجنون فارقُ الست سنوات ذاك، الذي يفصل عُمرَينا كجِسرٍ مهدوم.

كانت لحظة الوداع آتيةً لا محالة، كأي لحظة مستقبلية غير مرغوبة. وصلنا المطار قبل موعد الطائرة بساعتين ونصف الساعة، رصصتُ الحقائب فوق العربة المعدنية، واحتضنتُ نينا حضنًا أخيرًا دفع بشعوري لأخمص قدميّ، تهدَّج نفَسي، فخطَت نينا خطوةً إلى الخلف، وقالت بدهشة: "أتبكي؟!"، كنتُ أبكي فعلًا، "سأفتقدكِ كثيرًا!"، قلت فيما ترتكِب دموعي فعلها الفاضح، ما دفع نينا للتعلُّق برقبتي دافنةً دموعها في ياقة سُترتي. "سأذهب الآن"، قلت، فقالت: "نعم، لا يمكنكَ الانتظار أطول من ذلك".

لثمتُها لأول مرة منذ التقينا، ورحتُ أدفع مُبتعِدًا عربة الحقائب، سمعتُها تقول: "لو قرَّرتَ البقاء في سيوة، سأمضي معكَ الكريسماس القادم".

39

الثامنة مساء القاهرة، هواؤها العابق بريح محترقة، شوارعها الغاصَّة بعرباتٍ كالنمل الساعي بغير هدف. كان ياسر بانتظاري خارج المطار، بوجهه الباش رغم الضغوط. لم أطلب منه استقبالي؛ راسلتُه فقط قبل إقلاع طائرتي، فجاء في الموعد وحمل عني حقائبي، وضعها فوق المقعد الخلفي، ومضى يتلمّس الفراغات الضيقة التي تتخلل طابور السيارات. "إلى أين؟"، سألني، قلت: "بيت هليوبولس".

لمحتُ نور بلكونتنا مُضاءً حين دنَونا من البيت، كانت أمي جالسةً في ونس الشارع، تُطالع هاتفها من خلف نظارة قراءة، نبَّهتُ ياسر لوجودها فأطلق نغمةً إيقاعية من آلة التنبيه، وصاح حين أوقف السيارة: "مساء الفل يا أم هاني"، خلعَت نظارتها ووقفَت تُحدِّق في ظلام الشارع، سمعتُها تقول بينما أنزل من السيارة: "مين يا حبيبي؟"، فطالعتُها قائلًا: "وحشتيني يا ماما". خفَّت لملاقاتنا في منتصف الطريق فوق بسطة الدور الثاني، لثمتُ جبينَها وضممتُها بقوة، فيما أخذَت تُنهنِه. "افرحي يا أم هاني"، قالها ياسر مُقبِّلًا جبينها هو الآخر، ثم أردف: "كما وعدتكِ، سنتحفّظ عليه حتى تملّين منه".

"لا أملُّ منه العمر كله"، قالت أمي، فضممتُها ثانيةً وقلت: "سنسافر سيوة فجر الغد، ونعود سريعًا لنمضي سويًّا إجازةً مُعتبَرة".

"تاني يا هاني؟!".

"آخر حاجة، صدقيني".

مع طلعة الفجر تسلَّلتُ بهدوء كي لا أُقلِق نومها. كان ياسر بانتظاري أمام البيت. أشعلتُ سيجارة ووقفتُ أدخِّن قبل ركوب السيارة، مُسنِدًا جسدي لزجاجها البارد، دفعني الحنين لأُطل مُجدَّدًا على البلكونة، هناك كانت أمي ترقب المشهد من أعلاه، لوَّحَت نحوي وغطّت وجهها بطرف طرحتها تُغالب البكاء. قصفتُ نصف عمر سيجارتي، ركبتُ السيارة وأنزلتُ الزجاج، لوّحتُ إليها مُودّعًا وسألتُ ياسر أن يُعجل بالتحرك.

كان الجو مُشبعًا بالرطوبة، وساندويتشات الفول والطعمية التي جلبها ياسر لا تزال دافئة، ما استعاد في ذهني رحلات الجامعة، أيام البساطة وفراغ البال، سألتُ ياسر إن كان لديه أغنيات ثمانينيّة، قال: "كله موجود". أوصل هاتفه المحمول بالنظام الصوتي، ورُحنا نطوي الصحراء بصحبة أغانينا القديمة حتى انتبهتُ لوصولنا الساحل الشمالي. وجدتُه مُترعًا بالعمران واللافتات على جانبي الطريق، كل شيء تبدَّل كثيرًا عن آخر مرة رأيتُ فيها الشريط الساحلي، إلا الزرقة الفيروزية المُتدرجة، تبقى ساحرة دون تغيير.

لـم نتوقّف قبل بلوغ مرسـى مطـروح، هناك وقفنا نتـزوّد بالوقود، ونُفكّك أطرافنا التي يبّسَـها طول المكث في السـيارة. فتّش ياسـر عن مطعم بدوي أكل فيه قبل سنوات، وابتهج كثيرًا حين اهتدى إليه، هناك تناولنـا غداءً من لحـم الضأن والأرز الأحمر المقليّ، وحبسـنا الطعام بشاي أخضر ثقيل، ثم عُدنا نستكمل المسير لثلاث ساعات متواصلة، نقطع صحراء قاحلة لا أثر لحياةٍ فوق بسـاطها الأصفر، إلا شـجيرات هائشة مُبعثرة تمتص الحياة من مصدر مجهول.

كان طريقًـا ضيقًا تبتلعه الشـاحنات دون رحمة، فـلا تترك المجال لعبورنا دون ملامسة الرمال العطشى، الشيء المبهج الوحيد كان تقليد ياسر لمُطربي الثمانينيّات، وقفشاته التي توالدَت ذاتيًا من رحم المعاناة. كنـتُ أُمسـك بهاتفه وأفتش عن أغانٍ أثيرة لقلبـي، حين رفعتُ بصري فوجدتُ الأفق أمامنا ينشـق عن نتوء جبلي، لاح بغتةً ودون مُقدّمات. "داخلين على سيوة"، هلّل ياسر وكأنه تعمّد مُفاجأتي. أخذتُ أُحدّق في الجبل، والسـفح المخضوضِر أسـفل منه وقد راح يصبغ المشـهد الصحـراوي بلـون الحياة، تسـارع نبضي، واسـتعدتُ باندهاشٍ رحلة جوتزنس، حين فاجأني جبل آخر في بقعة أخرى من عالمنا الصغير.

في الأيام التالية، عاودتني جوتزنس عدة مرات، كلما التقيتُ السيويّين تذكّرتُ أهلها، المزارعون هم المزارعون، هم أبناء الأرض وأخلّاء الطبيعة، مهما بدَت الفروق شاسعة، وفوق ذلك يعملون في

السياحة، يلتقون الوافدين من كل مكان، يثبون فوق حواجز الاختلاف ويُجيدون التنقيب عن مساحات مُشتركة، ويُجيدون عرض ثقافتهم طمعًا في لُقمة عيش.

خالفَت الواحةُ تمامًا توقعي، كنت أتصوّرها بقعةً مستديرة خضراء مُترعةً بالنخيل، ربما كانت كذلك في زمن غابر، لكنها اليوم بحجم مدينة مترامية الأطراف تفترش أرضًا خفيضة تحفّها الجبال والبحيرات العملاقة. أدهشَتني معرفة ياسر الوثيقة بدروب الواحة، أخبرني بأنه كان مُكلّفًا بملف ممتلكات أبي خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، كما أن أخاه الأصغر هو المشرف الدائم على المشروع الذي أقامه على أطراف الواحة. شرح لي أبعاد المشروع فيما نقطع ببطء شوارع سيوة المحفوفة بغابات النخيل. عاد أبي من النمسا قاصدًا مسقط رأسه في الإسكندرية، كان يسعى للإقامة في رأس التين، واستثمار مُدّخراته في السوق العقارية الرائجة في المدينة، لكنه تلقى اتصالًا من صديق قديم عائد من الكويت، كان قد سمع برجوعه أخيرًا لمصر، عرَض عليه شراء أسهم في مصنع لتجفيف وتعبئة التمور أقامه في واحة سيوة، واصطحَبه بعد أيام لتفقُّد المصنع. هناك وقع أبي سريعًا في غرام الواحة. سأله عن إمكانية شراء أرض تصلح للزراعة، فأخبره الصديق بأنه سيحتاج لتخليصها من واضعي اليد، ثم لتسجيل المبايعة في محافظة مطروح؛ إجراءات مُضنية وغير مضمونة، وسنوات طويلة ستستنزف القليل

الباقي من حياتك، طموح لا يُناسب كهلًا في عُمرك، فلن تشهد في حياتكَ ثمرة جُهدك. هكذا نصحهُ صديقه، الذي لم يعرف على الوجه الأكمل رأفت عبد الصمد. اتخذ المحارب القديم قراره سريعًا وودَّع صديقه على مشارف الطريق المُفضي صوب الصحراء، وكنوعٍ من التعويض قبِل مُشاركته في شركة سياحة كان يعتزم تأسيسها.. بات ليلته، وهاتفَ في الصباح صديقه المحامي، طالبًا منه محاميًا صغيرًا يقوم بإجراءات الشراء، فاختار ياسر.

مضينا فور وصولنا للقاء الشيخ مدني، أحد كبراء الواحة، الذي استقبلنا في مَضيفته المبنية من طين الكِرشيف العجيب الذي تعرّفتُه فيما بعد، قدّم إلينا فتة البصل وخبز المجردل مع المرق ولحم الضأن (أصابتني الوجبة بحموضة دامَت ليومين)، قبل أن يستأذنهُ ياسر في التجوال بي في أنحاء الواحة، على أن نُعاود اللقاء به في المساء.

كانت الشمس تسحب أهدابها وتعتزم الرحيل. ترك ياسر سيارته أمام المضيفة، واستوقفْنا عربةً خشبية صغيرة يجرُّها حمار، يسمّونها عربة الكازوزة، يقودها صبي لا يعرف لغة غير السيويّة. قاد ياسر عربة الكازوزة بنفسه، حين استعصى علينا التواصل مع الصبي، ما وافق الأخير عليه مقابل عشرة جنيهات إضافية. مرقنا عبر سوق المدينة المكتظة ببضائع ملونة لم تترك مجالًا لحركة الزبائن، هناك أوصاني ياسر ألا أنظر للفتيات السيويّات، فالغرباء لا يُواجهون المتاعب

لسببٍ آخر في المعتاد. وفيما يُعدّد ساخرًا بعض الأمثلة، طالعَتنا من بعيد تلك النتوءات الحجرية الفريدة، التي استلبَت لبّي من أول وهلة. سألتُ ياسر: "ما هذا الشيء المرتفع خلف البيوت؟"، تطلّع صوب الجهة التي أشرتُ إليها وتبسّم قائلًا: "شالي القديمة، سنذهب إليها في الصباح".

40

في طريق العودة تصفّحتُ صفحة نينا على الفيسبوك، بحثًا عن ألبوم سيوة. وجدتُ ألبومًا باسم "جنة مصرية"، مُترعًا بصور جميلة؛ أطفال سيويّون، صخور ذات أشكال غريبة، جَمل يتثاءب وحمار يهش الذباب، مشغولات يدوية ملونة، قلعة شالي. راسلتُ نينا على الواتساب: سأزور شالي في الصباح.. فتحتُ الڤايبر لأُرسل لتايا بعض الصور، كتبتُ مُعلِّقًا عليها: عليكِ أن تُشاهدي هذا بنفسك.. لدهشتي، وجدتُ رسالة ڤايبر من ساندي؛ وصلة يوتيوب لفيديو جديد! لفحَتني غبطةٌ شديدة.. شرعتُ في تشغيل الفيديو، ثم أرجأتُ الأمر حين توقّفَت عربة الكازوزة أمام مضيَفة الشيخ.

كانت المضيَفة مغلقة، وأمام عتبتِها وقف صبي بجلباب مُترَّب، قال إن الشيخ خرج لصلاة العشاء. اقترح ياسر أن نلحق به في المسجد كسبًا للوقت، فأخذنا السيارة ومضَينا في طريق مظلم وغير ممهّد، لاحَت قُرب نهايته أضواء القلعة. توقّف ياسر على جانب الطريق الصاعد نحو القلعة، سألتُه: "هل سنشاهد شالي الليلة؟"، فقال بغِبطة: "تُعجبني حماستُك".

مرقتُ خلفه عبر دروب القلعة المُلتوية، تحفُّ بنا الصخور والتجاويف كأننا نعبُر مغارةً بلا سقف. أدهشَتني عمارةُ القلعة، وتلك الحجرات المتراكِبة كأنها قطط وليدة تتحامى ببعضها. "أهذه بيوت؟"، سألتُ ياسر، قال إن أهل الواحة سكنوا هذه القلعة لنحو سبعة قرون، وكانوا يحتمون بداخلها من هجمات القبائل المحيطة بالواحة، خاصة في موسم الحصاد. وقفتُ أتأمّل الجدران المتعرِّجة، أتخيل صبية سيوية ممن ظهرن في ألبوم نينا وهي تحتمي بجدار خشن من أيدٍ أكثر خشونة تُريد سَبيَها. جدار قوامه الطين والملح، أرض قامَت من مهدها، واستحالَت دِرعًا لأبنائها. "أهذه البيوت أيضًا من طين الكِرشيف؟"، سألتُ ياسر، رمقني بغبطةٍ وقال: "عما قريب ستصير خبيرًا بالعمارة السيوية".

دنا ياسر من فتحة كهفيّة الشكل، مُحاطة بحاجزٍ خشبي تراصَّت أمامه النعال، "هذا هو المسجد القديم"، أفاد ياسر بطريقة مُرشدٍ سياحي، سألني: "هل ستُصلّي؟"، قلت: "لستُ مُستعدًّا"، فتركني واقفًا بالخارج ودلف لينضمَّ للصف الأخير. سرحتُ أتأمَّل المسجد؛ وجودُه يُشير لكون الحياة بداخل القلعة لم تكن مؤقتة، بل كانت وضعًا دائمًا ومُستقرًّا، مزارعون بُسطاء يحتمون بملح الأرض، بصخور الجبل، بالله.. دلفتُ لداخل المسجد قُربَ نهاية التحيّات، جلستُ خلف الصفوف حتى ختام الصلاة. اقترب مني الشيخ مدني مُهلِّلًا: "مرحبًا بالحبيب.. مرحبًا بالدكتور"، تربَّع الشيخ بجواري ومرَّر زجاجة عطرٍ

ذات كُرةٍ دوّارة فوق كفّي. انضمَّ ياسر بعد قليل. قال له الشيخ: "بعثتُ الرجال منذ صلاة المغرب لتنظيف البيت، يُمكنكَ اصطحاب الدكتور ليزور بيت أبيه ويقرأ الفاتحة، ثم تعود به ليَبيتَ في مضيفتي".

هممتُ بشُكر الشيخ واستماحته في المبيت في بيت أبي بدءًا من الليلة؛ لكنه قطَع حديثي بإشارة من كفِّه، اهتزَّت معها مسبحتُه الطويلة، قال: "أنت ضيفي حتى تشرع فيما جئتَ من أجله".

رنوتُ نحو ياسر، فهم أني أطلب تدخُّله، قال للشيخ: "أستسمحكَ يا مولانا في اصطحاب الدكتور هاني في جولة حول المدينة، قبل أن نذهب لبيت السفير. قد نستغرق بعض الوقت فلا يمكننا العودة للمضيفة، لذلك نستميحكَ العذر من الآن".

بقي الشيخ ثابتًا بداخل عباءته، كما خيمة ذات أوتاد. مالَ ياسر فوق هامته مُقبِّلًا كتفه، فقال الشيخ من قرارة حَلقه: "تفضّلا يا أحباب".

أردتُ أن أكمل التجوال بداخل القلعة، لكن ياسر فضَّل الإسراع باستقلال السيارة، والقيام بجولة سريعة في النطاق المحيط بالقلعة، بحيث نكون قد صدقنا الشيخ حين اعتذرنا منه. أدهشني منطقُه، فلا الشيخ مدني معنا ولا ثمة لوم علينا في اختيار المكان الأنسب للمبيت، لكنني وافقتُه حين لاحظتُ عليه الجدية التامة. قبل ساعة كنا نقطع الطريق المُفضي لبيت أبي؛ طريق موحش مُشقَّق الأسفلت، كانت السيارة ترتج بعنف مع كل مرور فوق شقٍّ نافذ، وبين رجَّة وأخرى كان ياسر يواصل كشفَ أجزاء الحكاية.

للشيخ مدني شأنٌ عظيم بين مشايخ الواحة، يمتدُّ نسبه لقبيلةٍ أمازيغيَّة، يفتخر بذلك صراحةً، ولا يخلع قلنسوته الحمراء الدالة على جذره المغاربيّ، وبهيبته المتوارثة يُقرّب بين المتخاصمين في عيد السياحة السنوي. كان أقرب السيويّين لأبي، قال له ذات يوم فيما يتابعان تسميد الأرض بروث البهائم: السباخ حياة، نبات يَطعَم الأرض، ودواب تَطعَم النبات، فتُعيد للأرض طُعمَ النبات.. فقال أبي: يا شيخ مدني، لو بيعَت الأرض بعد مماتي، أتشتريها؟ قال الشيخ: يا سيدي أطال الله بقاءك. تفكّرا طويلًا في مصير الأرض، حتى اهتدى الشيخ لفكرة تقييد ميراثي بشرط تعاقدي، فأُعجِب بها أبي لدرجة تطبيقها فيما يخص كل ممتلكاته.

شردتُ فيما يحكي ياسر.. لماذا يشغل الشيخ باله بميراثي؟ ما مصلحته؟ ربما يكون قد لاحظ استغرابي فأردف يقول: "كان أبوكَ قلِقًا بشأن الأرض، يخشى بوارها من بعده، يخاف أن تقع في يدٍ تؤذيها، تحقنها بالكيماوي أو تسمُّها بالمبيد.. أتسمع بالزراعة العضوية؟ أهل الواحة لا يعرفون المسميات، لكنهم يزرعون بهذه الطريقة، هي طريقتهم منذ الأزل، فليسوا بحاجة لمبيدٍ للآفات شبه المعدومة في هذه البيئة الجافة، ولا ضرورة أيضًا لإضافة سمادٍ غير طبيعيّ، فالأرض شديدة والبركة فيما تجود به.

"فكَّر أبوكَ أن يوصي بأرضه للشيخ مدني، على أن يمنح وريثَه الثمن العادل. اعترض الشيخ، فقد كان يرى كيف أفرغ أبوكَ روحه

في هذه الأرض حتى أصلحها، كما وضع فيها خلاصة تجربته وأفكاره. قال له إن الأرض امتدادُه الذي سيظل من بعده، عليه أن يُبقيها في صُلبه، بشرط احتفاظ الوريث بها في حوزته. كان السؤال: ما الذي يجعل الوريث يترك حياته الزاخرة بالملذّات، ويقعد على هذه الأرض؟ وكان للشيخ قناعةٌ صلبة أكدها لأبيكَ عدة مرات: سيُقعِده ما أقعدكَ يا معالي السفير.. دَعهُ يعرف الحكاية من أولها، لعلَّه يُقرّر البقاء كما فعلْت.

اتَّفقا أن يُطلِعاكَ على القصة كاملة، أن تخوض ما خاضه أبوك منذ بدايته، إذ ربما تصل لنفس النتيجة. أنا نفسي كنتُ بحاجة لاستكمال الفراغات، أن أعرف ما جرى في الكويت وفي النمسا، وما ينتظره منك أبوك في كل مكان، وأن أتعرَّف قرارَكَ نهاية المطاف".

سكتُّ طويلًا ولم أُعلِّق، لم أُعنَ بنظرته المُتسائلة، بل كنتُ أحتاج لبرهةٍ أستوعب فيها هذه المؤامرة، تلك التي كان ياسر جزءًا منها، مهما حاول إبداء العكس.

41

كأي عملٍ فني فريد من نوعه، لم يبُح بيتُ أبي بسرِّ جماله من أول وهلة. كان الظلام قد توطّن الأرضَ حين وقفنا أمام سورٍ مرتفع من شجر الكزوارينا، وعاينتُ البيت لأول مرة، حيث قبع على مسافة مائتي متر من طريق الأسفلت. لم أرَ منه إلا الكتلة الحجرية الصمّاء غير محددة الشكل، التي سُوِّي سطحها بطبقة شبيهة بالطين الجاف. تبدّل الحال كثيرًا بالداخل، حيث أُضيء مدخل البيت بمصابيح زيتية متفاوتة الطول، تتدلّى في دائرةٍ تُحيط بالسقف المرتفع. في مواجَهة الباب وقفَت مرآةٌ مكسورةٌ ذات إطار خشبي، استقبلَتنا بحفاوة أُمّ، وقد وُضِع أمامها طبقٌ غويط مليء بالتمر المغمور في لبنٍ رائب. "شراب الاستقبال"، قال ياسر محاوِلًا تخفيف التوتُّر الذي حلَّ بيننا. غرفتُ من الطبق في سلطانية فخارية وُضِعت بجواره، وأكلتُ عدة تمرات لم أذُق في مثل حلاوتها، فيما استخرج ياسر ملفًّا مُتخمًا من داخل صندوق خشبي وُضِع أسفل المرآة. "أوراق الأرض"، قال فيما يضع الملف أمامي، ثم أردف يقول: "سأفرد ظهري في الصالة قليلًا.. خذ راحتك".

تفقّدتُ البيت؛ طابق وحيد، غرفة نوم واحدة مظلمة، في جدارها عدة كُوّات عالية ترشُف النور من ضوء القمر، وعلى الجهة المقابلة بابٌ موارب، تُرِك النور مُضاءً خلفَه؛ كان حمّام البيت الوحيد، حوائطه تُشبه جدران شالي، تحسّستُها فيما أُبدّل ملابسي وأغتسلُ من ماء سطل معدني بجوار الحوض. حملتُ الملف معي لصالة البيت؛ صالة صغيرة لم أجد مفتاحًا لإنارتها، وكان ياسر قد غطّ سريعًا في النوم. جرَرتُ كرسيًّا صوب المدخل المضاء، وجلستُ تحت دائرة المصابيح أتصفّح الملف. وجدتُ مُخالصةً من واضعي اليد يعود تاريخها لتسع سنوات مضَت، تخص مائة فدان في الظهير الصحراوي المُتاخم لجبل الدكرور، مُلحقٌ بها عدد من اختبارات التُربة وعقد اتفاق على حفر بئر بعمق خمسين مترًا، ومُعاينة لشبكة الري شُبِكَت في أعلاها كومةٌ من الفواتير، وجدتُ كذلك توصيفًا دقيقًا لطريقة تسوية الأرض ومدِّ الشبكات وزراعة الفسائل، وجدول بمواعيد زيارة الطبيب البيطري... الكثير والكثير من الجداول والأرقام الجافة، امتصّت جميعُها روحَ الحقيقة صباح اليوم التالي، حين تفقّدتُ الأرض.

كان ياسر نائمًا لا يزال حين استيقظتُ، وكنتُ قد نمتُ مُحتضِنًا ملف الأرض فوق الكرسي، وقد سقطَ مني بعض الأوراق فوق الأرض الحجرية، فيما تنشر الشمس خيوطًا جديدة فوق سقف البيت. أعدتُ اكتشاف المدخل قبل أن أنهض؛ في سقفِه طاقةٌ دائرية

من الزجاج الملون تتوسّط المصابيح متباينة الطول، كان مشهدًا خلّابًا تكسُّر الضوء أسفل الطاقة الدائرية، راسمًا دائرةً من الألوان الشفيفة فوق الأرضية تميلُ بنعومةٍ نحو الغرب.

تأملتُ البيت الصغير بمعماره العجيب؛ باغتَتني مقولة عمّي من مصدر مجهول؛ الدنيا غرفة وصالة، هكذا كان البيت.. خرجتُ أتنشّق الهواء الجاف، بدا الأسفلتُ بعيدًا لدرجة مذهلة، والشُّجيرات تُحيط البيت في دائرة مرسومة بدقّة، تمشّيتُ حتى تجاوزتُ السور، ووقفتُ مُرتكنًا لسيارة ياسر أرقب المشهد.. مائة فدان يحوطها الجبل من جهة، وأشجار الكزوارينا من ثلاث جهات، تفترش السفحَ المحاذي لجبل الدكرور. تأملتُ الأراضي القاحلة بالجوار، وكدتُ أرى أبي فيما يفاوض العُربان على ملكية هذا البساط الطويل من الرمل السفيف، الذي ينام فوق طبقةٍ من الطّفلة المتماسكة، تعوم بثباتٍ فوق بحيرة مياه جوفية، بهذا أخبرَتهُ تقارير التربة، فصار كما رائد فضاء يستكشف فرص الحياة فوق كوكب مجهول. لن يفعلها إلا مغامرٌ آلف الصحراء طويلًا كأبي، يُقايض مدَّخرات عمره بشريط طولي من الرمال، بعرض مائتي متر على الطريق المسفلت (كان رمليًّا آنذاك)، وعمق كيلومترين يمتدّان حتى يُلامسا قدم الجبل.

أضاف ياسر تفاصيل أخرى حين طالعنا سويًّا أوراق الملف، وأمسكنا بورقةٍ كُتِب عليها "60٪"، بخط كبير بدا فرِحًا من طريقة كتابته؛ فهمتُ دلالتها حين أخبرني بمساحة الأرض المستصلحة

من إجمالي المائة فدان؛ ستين فدانًا.. الباقي رمل تذروهُ الريح. سعر الفدان المدوّن في أوراق المبايعة 1500 جنيه، فيما يُقدَّر اليوم بعشرة أضعاف هذه القيمة، أما الفدان المزروع فيتجاوز المائة ألف. بحسبة بسيطة قدّرتُ قيمة الأرض بسبعة ملايين جنيه، بخلاف البيت وحظيرة الماشية والمعدّات، وبعض المشتملات الأخرى.

"ما الذي يريده أبي؟"، سألتُ ياسر، فابتسم بذهول ولم يُحِر جوابًا. كان لا يعلم على وجه اليقين.. كان عليّ الاجتهاد وحيدًا منذ هذه اللحظة.

عدتُ لمُعاينة البيت من الخارج، بناء مُتعرِّج بلا حدود مستقيمة، ترتفع جدرانه لنحو خمسة أمتار فوق الأرض، تزيد وتنقص دون خطٍّ واحد مُستقيم، تعرُّجات عشوائية تَظهر من بين فراغاتها السماءُ الصافية، كأنها تاجٌ لمَلِك بدائيّ. نوافذه كُوّات غير مستوية، ثُبِّتَت بداخلها شبابيك خشبية يلتئم حول إطاراتها طينٌ حجريّ، ليسُدَّ الفراغات. بناء عجيب، ذكّرني رأسًا بقلعة شالي. تأكدتُ لاحقًا أن المادة المستخدمة في البناء هي ذاتها قوام القلعة؛ الكِرشيف، مادة لم يعرفها في تاريخ البشر غير السيويّين، مزيج من كريستالات الملح المكوّمة حول البحيرات المالحة، والرمل والطين الطفليّ المُستخرَج من شطآنها؛ خليط هو الأكثر مقاومةً لهجمات المناخ، والأشرس في التصدّي لغضبات الزمن، باستثناء الأمطار، هي وحدها القادرة على إذابة الملح وإضعاف المزيج الخارق. أي عقل دفعكَ لبناء بيتكَ بهذه

الطريقة؟ سألتُ أبي دون انتظار إجابة.. أنا من عليه إيجاد الإجابات بدءًا من هذه اللحظة.

سألتُ الشيخ مدني عما اشترطهُ أبي لكي أحصل على التركة. قال: استكمال البيت؛ إضافة دور علوي يحوي غرفتَين، وحمّامًا إضافيًّا.

"ألم يجد الوقت لتوسعته بنفسه؟".

"بالعكس، رجوتُه كثيرًا أن يشرع في التنفيذ، فقد أعدَّ الرسوم منذ أكثر من خمس سنوات، لكنه أصرَّ أن يترك الأمر لوريثه".

"لماذا؟"، سألتُ الشيخ، قال: "لم يكن يعرف إن كان أحدٌ سيرغب في البقاء، في إحياء الأرض الميتة. من يقعد سيسعى للتوسعة على نفسه، أنت أو غيرك".

في المساء هاتفتُ نينا، ولاريسا، وأمي، وتايا، كانت ساندي نائمة، سألتُ تايا أن تُبلغها رسالتي، حتى المحامي الكويتي دعوتُه، طلبتُ إليه أن يهاتف أنيشكا ورانهيتا، ويحمل إليّ كريشنا بأية طريقة ممكنة؛ الجميع مدعوٌّ لحضور افتتاح البيت بعد توسعته. موعدنا إجازة الكريسماس القادمة. الجميع هنا، في بيت أبي، وأمام قبره.

42

كأنـي أولَد من جديـد، أتعرّف رويـدًا عالمي الرّحب؛ أبي الشـيخ مدني، يجوب بي النواحي ويُكسِبني المعرفة؛ وأمي الأرض الصالحة، تنتظرني في أي وقتٍ أعود، تحتويني وتُطعمني وتطمئن عليّ.. يومًا ما سـآلف حياة الواحة، سـتصير معتادةً، مملة لا جديـد فيها، ولكنْ حتى يحين ذلك اليوم، فأقل ما يُقال إنها مدهشة.

قلعة شالي الرهيبة، التي تسلّقتُ دروبها عدة مرات، وحدي أو برفقة الشـيخ، كانت ملاذي منذ سـافر ياسر، والشُّـجيرات المحيطة بالبيت صِرن أصحابي، الزيتونات والنخلات. لكل شخص من سكان الواحة نخلةٌ باسـمِه، غُرِسَت فسيلتُها يوم مولده، أراني الشيخ نخلتَه المديدة، تجاوز عمرها سـبعين عامًا، أما نخلاتي التي زرعها أبي (باسمي ربما) فلا تتجاوز أعمارُها السـنوات السبع، ولا تعلو قاماتُها فوق هامة طفل في السـابعة، وقد صرتُ مثلها منذ سـكنتُ الواحة، باسـتطاعة أيٍّ من أطفالها أن يُعلِّمني الكثير.

اصطحبنـي الشـيخ لجبـل الموتى، تسـلّقنا سـفحَه الصخـري قبل مغيب الشـمس، وهناك أشـار لنقـشٍ محفور فوق صخرة تُشـبه عيش

الغراب، دنوتُ منها أستطلع النقش. قرأتُه ببطء وبصوتٍ مجلوّ: رأفت عبد الصمد رشدي (1945- 2017).. أبي ينام تحت هذه الصخرة. "غسلتُه بيدي"، قال الشيخ فيما يجلس القرفصاء، راح يمسح فوق الصخرة مُتمتِمًا بأوراده الغامضة.. ضلَّ على حاله طويلًا فجلستُ أستريح فوق الصخرة؛ كانت دافئة، ولدهشتي شعُرتُ بارتياح تام. لوهلةٍ ظننتُ أني أُدرك كُنْهَ محبة أبي لهذه الواحة، وسبب اختياره لها كمستقرٍّ أخير.. ربما اختار لِتِرس حياته ماكينةً رحيمةً بعض الشيء، لا تأكل تروسها بنهمٍ مُريع. لا تلفظهم نهاية المطاف في مستودع للخُردوات. اختار ماكينةً تُحيط تروسها بوعاء صخريّ، ولا تُنهِكها في دوران عبثيّ محموم.

سألتُ الشيخ فيما نغادر السفح: "لماذا لم يُكمل أبي استصلاح الأرض؟"، فقال إن أبي قسمها خمسة أقسام خطّط لاستصلاحها تباعًا، كلما ظهرَت بشائر الزرع في القسم المُستصلَح، مدَّ شبكة الري للذي يليه، حتى أتم زراعة ثلاثة أقسام.

"هل يُمكننا استكمال الباقي دفعة واحدة؟".

"ستحتاج لمال كثير، وربما لحفر بئر إضافية".

قلت: "لِمَ لا؟"، فلم يُعقّب الشيخ.. عندها خطرَ لي حلٌّ آخر.

"سأعرض عليكَ ما سبق أن عرضَه أبي يا شيخ.. أبيعكَ جزءًا من الأرض".

"مـا حاجتكَ لذلك يا ولدي؟ عوائد الـزرع الحالي تُحيي الرمال خطوةً بخطوة".

"أُريدكَ معي يا شـيخ مدني، يدكَ بيدي. لسـتُ أهـلًا لما فعلتماه أنت وأبي، سـتُصلِح بمالكَ الجزء المتبقّي، وتصير شـريكي في مشاع الأرض بنسبة أربعين بالمائة.. ما رأيك؟".

تمهّل الشـيخ قليلًا ثم قال: "شـريكًا كنتُ أو غير شـريك، سـأكون سـندًا لـكَ ما حييت"، ثم أتبع يقـول: "دعني أتدبّر الأمـر، وليفعل الله ما يريد".

كنتُ واثقًا من قرار الشيخ، أعلم يقينًا بأنه لن يخذلني، لذلك أرجأتُ استصلاح الأرض والتَفتُّ للأهم؛ توسعة البيت. فردتُ المخطّط أمامي فوق أرض الصالة، ورحتُ أُطالعه مع كل وجبةٍ أتناولها بداخل البيت، أرسم في خيالي مساراتٍ سأقطعها يومًا صوب الدور العلوي، أشرع أبوابًا سأطمئن على إغلاقها قبل النوم، أسمع أصواتًا يصخب بها القاطنون أعلى البيت، غرفة لنينا ولاريسا، وأخرى لأمي، فيما سأنام مع تايا وساندي (ربما إحداهما) في غرفة أبي، الذي صرتُ أناديه "بابا" في خيالي، بسهولة قذف نواة البلح عبر كوّة الجدار.

صرتُ أكثر ثقةً في اختياري البقاء، وفي إمكانية قدومهم مع حلول الكريسماس. سيروق لتايا كوني أستقيل نهائيًا من وظيفتي وأقطع دابر علاقتي مع مارثا الحسناء، كما ستُثيرها فكرة السباحة في حمام كليوباترا

لاستعادة نضارة الجلد (باستطاعتي بيع خرافةٍ كهذه لتايا المسكينة). قطعًا سترفض ساندي، لا شيء يجذبها من عالمها الصاخب، حسبي أن تُمضي الإجازة هنا حتى تبين الأمور. حتمًا ستحضر ماما، سيفتر غضبُها أن استقررتُ هنا في بيت أبي، حين أمضي معها أيامًا في بيت هليوبولس، هناك سأقنعها (ربما بمعونة ياسر) أن تقضي الكريسماس هنا في دفء الواحة، هي تكره الصحراء في العموم، لكنها تميل للطبيعة والسكون، آمل أن أجد طريقةً لاستبقائها. نينا ستصل قبل الجميع، وستسعى لإسعادهم كلما سنحَت فرصة، قد تُساعدها أنيشكا لو أمكن استخراجُ أوراقٍ لسفرها، أما رانهيتا فستُصبح صديقةً للاريسا من أول يوم. من أيضًا؟ العم كريشنا.. ربما يجد أخيرًا دواءَ آلامه في رمال الواحة العطوف، بجوار بحيرات الملح.

أرشدني الشيخ لإحدى هذه البحيرات، على مبعدة عشرين كيلومترًا جنوب الواحة، بحيرة هائلة الحجم، مياهها فيروزية مُشرِقة، تستحيل زهرية اللون كلما نعسَت الشمس، مشهد كان ليذهب بعقل نينا لو شاهدته رأيَ العين. بعثتُ إليها صورًا عديدة، وحملتُ إلى البيت بلّورات ملحٍ في حجم صخرة متوسطة، قرّرتُ الاحتفاظ بها بعيدًا عن صانع الكِرشيف، حتى أُريها لمن يُجيب دعوتي عند افتتاح البيت.

شرع البنّاء في نصب السقّالة جهة الشرق. "سلالم البيوت السيويّة لا تخترق المنازل من داخلها، بل ترتقيها من الخارج"، هكذا قال البنّاء

حين عرضتُ عليه المُخطّط الموضوع بمعرفة أبي، شرح لي كيف يرقى سلم البيت السيوي بسلاسة فوق الجدران، واصطحبني لبيوت مهجورة لأُعاين بنفسي زاوية الميل وطريقة البناء. كان ذلك التعديل الوحيد الذي رآهُ البنّاء ضروريًّا، أما دون ذلك فقد أعجبهُ المُخطّط، الذي وضعهُ مهندسٌ معماري صمّم العديد من الفنادق البيئية في محيط الواحة. وافقتُ البنّاء على المقترح، حيث يمنح القاطنين في الدور العلوي مزيدًا من الخصوصية (ستحتاجها نينا ولاريسا، فيما ستضيق بها أمي)، هكذا عزمنا البدء بإنشاء السلم بحيث ينحدر صعودًا من ناحية الشرق، ويلتفُّ بنعومة نحو الغرب، كأنه شمسٌ تذرَع السماء.

صنعنا مسارًا مُحدّدًا لعمّال البناء حتى لا تتأذّى الأرض المزروعة، وصرتُ أُتابع الإنجاز كل يوم، وفي ذات الوقت أُراجع ما يحتاجه البيت من ترميمات داخلية؛ يحتاج الحمّام لفتحة تهوية، وبعض الشبابيك يُصدر صريرًا مع الفتح والغلق، أما مرآة المدخل فتحتاج لاستبدال، حتى تعكس بهجة الحياة بداخل البيت، فثمة شرخٌ طوليٌّ يقسِمها نصفَين.. استدعيتُ البنّاء ذات يوم، سألتُه عن صانع زجاج يبيع المرايا، فأشار لأحدهم في سوق المدينة. طلبتُ إليه أن يأخذ قِياس زجاج المرآة لنستبدله، فاعتذر بأنه ليس بحوزته مترٌ للقياس، وذهب لاستكمال عمله. عاد بعد قليل وقال إن بإمكانه استخراجَ المرآة من داخل الإطار، والذهابَ بها رأسًا لصانع الزجاج حتى يصنع مثلها.

استحسنتُ الفكرة كثيرًا، وساعدتُه في إنزال المرآة واستخراج قطعتَي الزجاج بحذر، وهناك خلف الزجاج المكسور كان بانتظاري، بنفس أهدابه المُشرَعة على الدوام، بنفس البسمة الواثقة والوقفة المشيقة.

قد تكون هي ذات الصورة التي أحبّتها لاريسا، لم أتصوّرها أبدًا بهذا الحجم، فيها يحملني أبي في بلكونة هليوبولس، ويرمق الكاميرا باطمئنانٍ تام، فيما الشمس تضرب نصف وجهي الأيمن وتمنع عينيَّ عن التحديق في العدسة.. فيها بدوتُ في السابعة، أو أقل قليلًا.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

فكَّرتُ حتى في إعفاء نفسي من استكمال رحلة العبث تلك، أن أعود لأميركا وألتفتُ لعملي، فهو ملاذي الأخير، أن أُداهِن تايا، أن أعتذر من ساندي. وددتُ لو أصنع شيئًا واحدًا دون انقياد لأحد، ملأني السأم من نفسي ومن حالي البائسة، ووجدتُني ألتمس أعذارًا لتايا، لساندي، لأمي طبعًا، حتى لأبي.. جميعنا تسوقه الحياة فيما يتصوّر في نفسه القُدرةَ على تحويل المسار.

❋❋❋

يغادر أميركا بصورة مفاجئة، آملًا في الحصول على ميراثٍ يستعيد به حياته المفككة، غير أنه يجد نفسه مضطرًا لأن يخوض رحلةً طويلة عبر عدة بلاد.. يقابل أشخاصًا ما كان ليلتقيهم دون العبور بهذه المحطات، يساعدونه في كشف أسرار ماضيه المحفوف بالغموض. هل ستتهاوى قناعاته وتتبدى أسراره المربكة؟ هذا ما نتعرف عليه عبر صفحات الرواية النابضة بالأحداث.

أحمد القرملاوي، روائي وقاص مصري، من مواليد القاهرة. صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "أول عباس" في يناير 2013، ثم روايته الأولى "التدوينة الأخيرة" في أغسطس 2014، تلتها رواية "دستينو" في يوليو 2015، وحصلت روايته "أمطار صيفية" الصادرة عام 2016، على جائزة الشيخ زايد للكتاب فرع المؤلف الشاب لعام 2018.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد مراد

9 789772 937578

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

مكتبة الدار العربية للكتاب